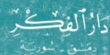
شوقي أبو خليل

الإسلام وحركات التحرر العربية


دار الفكر
دمشق - سورية


دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام

وحركات التحرر العربية

شوقي أبو خليل



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الكتاب ٤٢٥
الطبعة الخامسة ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م
ط ١ ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م

سورية - **دمشق** - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

تَصْدِيـر

« لاأكتب التـــاريـخ إلاّ في سبيــل المجـــد الوطني ، والعزة القومية ، ولولا هذه الغاية لكسرت قلمي » .

المؤرخ الألماني : « تريتشك »

بسم الله ، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وأصحابـه ، وبعد ..

مما يلفت النظر ، وبشكل واضـح ، كتـابـات كثير من المـؤرخين في هــذا العصر ، فغمط حق الإسلام ، ودوره في هذا المجتمع ، ظاهرة غريبة ، بل عجيبة !

إن تحـدَّثـوا في أمـور إيجـابيـة نسـوه ، وإن تحـدثـوا في أُمـور سلبيـة لمـزوا وغمزوا ... وإن تحدثوا عن تحرير العبيد مثلاً ... نسوا دور الإسلام ، وإن تحدثوا عن المرأة وتطلعاتها ، نسوا دوره في رفع شأنها ، وعابوا عليهـا التَّمسـك بـه ، وإن كتبوا عن التحرير من الاستعمار ، محوا دوره ، وأظهروه سلبياً قدرياً متواكلاً ... وكل ما ردَّدوه عن الإسلام ، يبدو أنهم لم يتعبوا أنفسهم في دراسته على الإطلاق .

وهذه عـادة مقتبسـة عن المستشرقين ، ومن في مثل هواهم ... فهم لا يجـدون حركة مخرِّبة ، أو بـدعـة هـدَّامـة ، أو رأيـاً منـاهضـاً للإسلام ، إلاَّ أكبوا عليهـا يدرسون ويبحثون ، ثم يقولون إنَّ الحركة المخرِّبة ، هي ثورة جمـاعـة مظلومـة ، طفـح بها كيـل الشَّقـاء ، وإنَّ البـدعـة الهـدَّامـة فلسفـة ، وتفكير سليم ، والرَّأي المناهض حرية فكر ...

وبين أيدينا كتاباتهم ، وكلُّها مديح واستحسان للمذاهب الضَّالة ، التي أنزلت بالإسلام أبلغ الضَّرر ، في عصره الأوَّل ، كحركة القرامطة ، والباطنيَّة ، والبَابَكيَّة الْخُرَّميَّة .

يرددون شعارات برَّاقة ، ظاهرها رحمة ، وباطنها فيه العذاب : (التَّحليل العلمي) ، (إعادة كتابة التاريخ) ، (الدراسة الموضوعية المنهجية) ... فجعلوا باسم « التحليل العلمي » الحركات الشعوبية الحاقدة على هذه الأُمة ، منارات هدي في تاريخنا .

تمسكوا بشعارات « زئبقية » لما فيها من مجانبة للحق ، وتشويه للواقع ، وإرضاء لنزعة في نفوسهم ، وخدمة لفكرة مسبقة ، يطوعون لها كل ما يرون ، ويقيسون بها كل ما يريدون ، علماً أنهم ماتثبتوا من الحقائق التَّاريخيَّة ، وما لمسوا بعد ألف باء التَّاريخ وعلومه ...

ومن أغرب ماقرأت من (التَّحليل العلمي) ، دراسة عن صلح الحديبية ؛ فقد جاء تقرير المحلل ، أن ذلك الصلح جاء لصالح الْمُرَابين القرشيين لا لصالح المسلمين ... وأورد البند الأول من الصلح المذكور كما يلي : « وضع الحرب بين المسلمين الثائرين والقرشيين المرابين عشر سنوات » . وركز الكاتب على هذا البند ، ولكن بالشكل الذي اخترعه هو ، فمراجعنا العربية المختلفة العديدة ، والأجنبية ، ماورد فيها مثل هذا ... بل أجمعت كلها على أن صلح الحديبية كان فتحاً للإسلام والمسلمين ، فهو اعتراف خطي رسمي من قريش بالمسلمين لأوَّل مرة ، إذ دخل في الإسلام بعد هذه المعاهدة ، قبائل عديدة ... حيث تفرغ النَّبيُّ ﷺ وصحبه للدعوة ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

وقالوا : « إنَّ مجابهة الخليفة المعتصم للبابَكِيِّين ، تعتبر بحق مجابهة الإقطاع القوي المتآخي مع الرأسمالية القاصرة الضَّحلة للاشتراكيَّة والوحدة الإنسانيَّة ... » .

كيف نسكت عن مثل هذه الأحكام ، الّتي صدرت تحت ستار « البحث العلمي » ؟! وقد ثبت بالدّليل الّذي لا يرقى إليه الشّك أن صاحب القناع الذّهبي (بَابَك الْخُرَّمي)[1] ، كان عميلاً للإمبراطور الرُّومي (تيوفيل)[2] ، الذي أمدّه بالسلاح والمؤن ، بغضاً لهذه الأمة وعقيدتها ، وحباً في تفكيك عراها ، كيف نرضى بزعامة شعوبي ، كرّس حياته لطعن هذه الأُمة بمبدأ إباحي ، ناهيك عن عمالته للروم ؟ ولكن باسم « التَّحليل العلمي » قد يحدث كلّ شيء وقد يصبح الفاضل حقيراً . والحقير فاضلاً ..!

أرّخوا « للقرامطة » ، معتمدين على كتب عرف مؤلِّفوها بشعوبيّتهم ، وبعدائهم لأُمتنا والإسلام معاً ، ككتاب ناصر خسرو[3] « سفرنامة » ، علماً أن المؤلّف كان رحّالة وليس مؤرّخاً ! فإذا النتيجة تفاجئنا : « القرامطة أوّل جمهوريّة اشتراكيّة في وطننا العربي قامت كردٍّ فعل ضد الدّولة العباسيّة الإقطاعيّة الرأسماليّة اليمنيّة ! » .

فكيف نقبل أن يكون عصرنا الذّهبي أيام الرّشيد والمأمون والمعتصم ، عصر التّأخّر والإقطاع ؟ ونقبل أيضاً أن حركة إباحية جِنْسِيّة « كالقرامطة » حركة اشتراكيّة ، ويزيد الأمر سوءاً اعتماد هذا « المحلل العلمي » على كتب رحالة كناصر خسرو ؟!!

يعلم الاستعمار حقّ العِلم ، أنّ لا عروبة أصيلة دون نظرة إيجابية إلى الإسلام

---

(١) بابَك الْخُرَّمي : [ت ٢٢٤ هـ = ٨٣٨ م] ، نشر دعوته أيّام المأمون في منطقة أذربيجان ، وعاث في الأرض نهباً وقتلاً ، قضى عليه المعتصم ، وقتله في (سامرّاء) ، فتفرّق أتباعه .

(٢) تيوفيل بن ميخائيل بن جورجيس ، ملك الرُّوم البيزنطيين .

(٣) ناصر خسرو [١٠٠٣ ـ ١٠٨٨ م] : شاعر من بلخ ، من أقطاب الأدب الفارسي ، حجّ إلى مكّة المكرّمة ، وزار سوريّة ومصر والجزيرة العربيّة ، فترك أخبار رحلاته في كتابه (سفرنامه) ، وله ديوان (سعادت نامه) ، وفيه يعبّر بالشّعر عن آرائه الدّينيّة .

ديناً وحضارة . ولا ثورة ، ولا نصر دون تفاعل تام مع الإسلام وطاقاته الغنية الزّاخرة بالفداء والجهاد والذّود عن أرض الوطن ..

الاستعمار يعلم : أنّ الأُمّة العربيّة مادخلت التّاريخ من بابه الواسع ، إلاّ وهي تحمل راية الإسلام عقيدةً وفكراً ومنجهاً ... كما أن الإسلام ماانتشر وبلغ شأوه ، إلاّ بعد أن وحّد الأُمّة العربيّة ، فحمله العرب المسلمون إلى العالم .. فلا إمكانية لفصل مفتعل بين بقاء الإسلام وحياته ، وبقاء الأُمّة العربيّة وحياتها .

أئمة الاستعمار أوّل من يعلم أن الإسلام هو الّذي حرّر العرب من الفرس والروم والأحباش ، وأقام لهم دولة عالميّة من الصين إلى فرنسة ، وهو الّذي هزم المغول ومن قبلهم الصّليبية الأوروبيّة ...

هذا كلام ، بل هذا حكم يحتاج إلى دليل وبرهان ، والدّليل نلمسه ونأخذه من أفواه القادة الاستعماريين الّذين وجهوا ، أو قادوا الحملات إلى بلادنا العربيّة ، وهذه بعض الأدلّة :

١ ـ كان الفيلسوف الألماني (ليبنتز)[٤] يغري لويس الرابع عشر[٥] بفتح مصر ، للقضاء على المستعمرات الهولنديّة ، يقول له : « إن هولندة لا تجسر حينئذٍ على معارضتها ، لأنّها تجر عليها غضب العالم المسيحي ، إذا حاربته وهو مشغول **بفتح معقل الإسلام** » .

٢ ـ ولما فكرت الدول في أمر قناة السويس ، كان المركيز « دار جنسون

(٤) غوتفريد ويلهلم لايبنتز Gottfried Wilhelm Leibiniz : [١٦٤٦ ـ ١٧١٦ م] فيلسوف ألماني .

(٥) لويس الرّابع عشر Louis : [١٦٣٨ ـ ١٧١٥ م] ، حكم فرنسة مابين : [١٦٦١ ـ ١٧١٥ م] ، أمّه نمساويّة ، عمل على إقرار الأمن ، أعلن الحرب على هولندة وإسبانية ، واصطدم بالبابويّة ، بلغت فرنسة في عهده أوجها في حقول الأدب والفنّ والعِلْم .

Dargenson » يروج للمشروع من النّاحية الدينية فيقول : « **إنه فتح صليبي لجميع المسيحيين** » .

٣ ـ لما دخل (اللنبي[٦] Allenby) الإنكليزي ، بجيشه إلى القدس عام ١٩١٦ م ، قال : « الآن انتهت الحروب الصّليبيّة » .

٤ ـ ولما دخل (غورو)[٧] دمشق في أوائل شهر آب ١٩٢٠ م ، كان أوّل مافعله بعيد وصوله ، أن توجه إلى ضريح صلاح الدين الأيوبي[٨] ، دخل بملابسه العسكريّة وسيفه إلى جانبه ، وعمرته فوق رأسه ، ثم قال بتهكّم وشماتة : « ياصلاح الدين .. أنت قلت لنا في إبّان حروبك الصّليبيّة إنكم خرجتم من الشّرق ولن تعودوا إليه ... وها إنّنا قد عُدْنا ... فانهض لترانا هاهنا ، ولقد ظفرنا باحتلال سورية » .

٥ ـ لما انقسم مجلس الوزراء على نفسه عام ١٨٢٨ م ، بخصوص أهداف الحصار الفرنسي على الشواطئ الجزائريّة ، دافع (كليرمون دي تونير) وزير الحربيّة ، عن وجهة نظر الحزب اليميني في الاحتلال ، في تقرير قال فيه : « لقد أرادت العناية الإلهيّة أن تثار حمية جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم على يد ألدّ

---

(٦) أدمون اللّنبي Allenby : [١٨٦١ ـ ١٩٣٦ م] ، مارشال بريطاني ، حارب دول المحور في الشّرق ، حكم مصر مابين : ١٩١٩ و ١٩٢٥ م .

(٧) هنري غورو Gouraud : [١٨٦٧ ـ ١٩٤٦ م] ، جنرال فرنسي ، قائد الجيش الرّابع في حملة الدّردنيل في الحرب العالميّة الأولى ، وهو المندوب السّامي على سوريّة ولبنان مابين : ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ م .

(٨) صلاح الدّين الأيوبي [٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م] : يوسف بن أيوب بن شاذي ، أبو المظفّر ، صلاح الدّين الأيوبي ، من أشهر سلاطين الإسلام ، دانت له مصر وبلاد الشام ، وكان أعظم انتصار له على الصّليبيّين يوم (حطّين) ٢ تموز ١١٨٦ م ، وفتح بيت المقدس ، كان رقيق النّفس والقلب ، على شدّة بطولته ، ورجل سياسة وحرب ، بعيد النّظر ، متواضعاً مع جنده وأمراء جيشه .

أعداء المسيحيّة ، ولعلّه لم يكن من بـاب المصـادفـة ، أن يُـدعى ابن لويس التقي لكي ينتقم للدين وللإنسانيَّة ، ولإهانته الشَّخصية في الوقت نفسه ، وربما يسعدنـا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدنيَّة بين السكان الأصليين **وندخلهم في النَّصرانيَّة** » .

لذلك قام شارل العاشر[٩] بحربـه في الجزائر ، بهـدف كسب عطف الكنيسـة الكاثوليكيـة ، بهجومـه على دولـة إسلاميّـة ، يستـدر بـذلـك العطف عليـه ، مع إشغال الشَّعب الفرنسي بأمر خارجي صليبي ، لينسى المشكلات الَّتي عانتها فرنسـة في عهد شارل العاشر .

٦ ـ أقام « بورمون » قائد الحملة الفرنسية على الجزائر ، صلاة الشكر بمناسبـة انتصاره وبعث بوصف لهذا الاحتفال ، قال في نهايتـه : « مولاي ... **لقـد فتحت بهذا العمل باباً للمسيحيَّة على شاطئ إفريقية** ، ورجاؤنـا أن يكون هـذا العمل بداية لازدهار الحضارة الَّتي اندثرت في تلك البلاد » .

٧ ـ ولم يُخْفِ المؤرِّخون المعـاصرون هـذه الحقيقـة ، فوصف « إدوار دريـو » المؤرِّخ الفرنسي المعروف بدراساتـه عن الشرق ، حـادث **الاستيلاء على الجزائر : « بأنه كان أول إسفين دُقَّ في ظهر الإسلام »** .

٨ ـ دعا رئيس وزراء فرنسة « مـارتينـاك » ، في منشور وزعـه في ١٢ أيـار « مايو » ١٨٣٠ م ، حلفاء فرنسا لعقـد مؤتمر دولي ينـاقش الوضع الجـديـد الَّـذي يمكن إقامته في الجزائر لخير المسيحيَّة جمعاء » .

هـذه بعض الأدلّـة ، سقتهـا على سبيـل المثـال ، وهي لا تحتـاج إلى شرح وتـأويلات « وتحليل علمي » ، إنَّهـا أوضـح من أن يعلـق عليهـا إنسـان ، وفيهـا ما يكفي من البيان .

---

(٩) شارل العاشر ، ولد في (فرساي) سنـة ١٧٥٧ م ، ملـك فرنسـة : [١٨٢٤ ـ ١٨٣٠ م] في عهـده جهِّزت الحملة على الجزائر ، (٤ تموز ١٨٣٠ م) .

ولما سبق ...

من باب أوْلى ، أن يقوم الإسلام ، متمثلاً في أبنائه ، للذود عن هذه الأرض الَّتي هوجم عليها ، لقد قام رجاله العاملون ، يحملون سلاحاً روحياً لا يضاهى - إلى جانب السِّلاح المادي - ليواجهوا به العدوان الاستعماري المسلح .

قام رجالات الإسلام ، يحملون قلماً وفكراً ، يدافعون بها عن تاريخ هذه الأمة العربيَّة الإسلاميَّة ، وعن لغتها العربيَّة ، لغة القرآن الكريم ، وقفوا أمام الذين شوَّهوا تراث الأمّة ، وأرادوا طمس ذاتيتها ، وتشويه عقيدتها ...

لقد قام علماء الإسلام ، والمؤمنون بهذا الدِّين ، يكافحون عن أرض هذه الأُمة وتراثها ، فمنهم من نجح في جهاده ، وقطف ثمار غرسه في حياته ، ومنهم من بذر ، فأينع زرعه فيما بعد ، فقطفت أجيالٌ بعده ثمار زرعه ، ومنهم من أخفق لقوة المستعمر العسكريَّة وهذا لا يهم ، فالهدف كما يقول الشاعر :

شَرَفُ الوَثْبَةِ أنْ تُرْضِي العُلا غَلَبَ الواثِبُ أمْ لَمْ يَغْلِبِ

وأنا في هذا الكتاب ، لست في معرض التَّغني بماضٍ مجيد ، ولكنَّني أعرض ما أعرضه ، لإظهار حقيقة يغفلها كثيرون عن قصد ، وأعرض ما أعرضه للقدوة والأُسوة ، رائدي إنصاف هذا الدِّين ، الَّذي ظُلِمَ من قبل أهله وأبنائه ، ومن عنده غير ما سنعرضه بمراجعه العديدة في هذا الكتاب ، فليخرجه لنا بهدوء ، دون تحيز وعويل وتهويل ، وأنا أول المتبعين للحق أينما كان :

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام ٦/١٤٨] .

الموضوعيَّة طريق بحثنا ، ندلِّل عليها بغزارة المراجع ، وإسناد كل حادثة أو قول إلى صاحبه ، ولن ننهج طريق من (يحللون علمياً) فيشوهون معالم الصورة

الحقيقية للوصول إلى مبتغى معين ، كمن قال إن (الشيخ) العالِم فلان ، تعامل مع نابليون ، وأخذ يظهر ذلك بشكل مجسم مُهَوَّل ، ثم قال إن (السَّيد) عمر مكرم قام في وجه نابليون والاستعمار الفرنسي ، مع أنَّ الأوَّل ، الَّذي وصف بالشيخ العالم ليس بشيخ ، ولا بعالم ، وإن تزيَّى بزي العلماء ، وعمر مكرم شيخ عالم ، نقيب للأشراف في مصر ، دفعه إسلامه وإيمانه للجهاد !!..

وبالمناسبة أقول : هناك من تزيَّى بزِي العلماء وليس منهم ، فكان موقفه غير مشرف ، وهؤلاء على ندرتهم وقلتهم ، ليسوا دليلاً على سلوك الإسلام تجاه التَّحرر ومحاربة الاستعمار . فليست كل فئة مهما كانت صفتها ، طاهرة مطهرة ، مخلصة بمجموعها ، فلا بد من بعض الدخلاء ...

ولكن إذا قام مهندس ببناء دار ، ثم سقطت الدار على من فيها لقلة أمانة المهندس ، وسوء خلقه ، وتلاعبه في نِسَبِ مواد البناء ، هل يكون من العدل أن نقول : إن جميع المهندسين سيئون ؟ أو إن الهندسة هي السَّبب ؟!

طبيب ما قام بواجبه جيداً ، ولكنه على الرغم من حمله لشهادة عالميَّة ، تسبب بموت مريض ، فهل من العدل والإنصاف والموضوعيَّة القول : كل طبيب مهمل ، أو إنَّ الطِّبَّ يسبب موت المريض ؟ فالأصل الإخلاص ، ونقيس الرِّجال بالمبدأ ، ولا نقيس المبدأ بالرِّجال إن حادوا عنه سعياً وراء شهوات ، أو أخطؤوا في التَّصور .

فنحن لا نكتب لتطويع الأحداث لأحكام نقررها مسبقاً كالذين جعلوا من القرامطة حركة ثورية اشتراكية ، أو كالذين جعلوا من (بَابَك الْخُرَّمي) الشّعوبي العميل عدو هذه الأُمَّة ، زعماً تقدمياً ضد الإقطاع والرأسمالية المتمثلين في عصرنا العباسي الذهبي ..

كما أننا لا نؤرِّخ أحداثاً ، وصور معارك ، لا ... لن يجد القارئ في هذا

الكتاب إلاَّ النَّزر الضَّروري منها لإتمام شرح موضوع ما ، إنما نبحث هنا في أسباب ثورات ، ونبحث في قادتها وحوافزهم الفكريَّة ، لا كما نتخيلها نحن ، بل كما أظهرها أصحابها بأقوالهم وأفعالهم ، لذلك سيرى القارئ صدق النَّقل ، ووضوح المراجع المأخوذ عنها ، وهذا ليس فضلاً منا ولا مِنَّة ، فعقيدتنا وإسلامنا وقرآننا يأمرون بذلك ، لقد علمتنا آياتُ كتاب الله أن ننصف الناس :

﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُم إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف ٧/٨٥] .

وهذا يجعلنا نذكر من أساء ولو تزيَّا بزي العلماء ، لقد علمتنا الآيةُ الشريفةُ الموضوعيةَ :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُم فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَح إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة ٥/١٣] .

فهذا الاستثناء : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُم ﴾ ـ وأمثاله في القرآن العظيم كثير ـ هو تعليم لنا ، أن نتحرى الصدق في أحكامنا ، وألاَّ نصدر أحكاماً يذهب بها الصَّالح بين الطَّالحين ، ولا الطَّالح بين الصَّالحين .

فموضوعيّتنا جزء من إيماننا بإسلامنا ، نابعة من القرآن الكريم .

وملاحظة أخرى نوردها قبل ختام هذا التَّصدير :

لا بدّ أن نذكر أنّ ثورات التَّحرر العربيَّة ، قامت على يد علماء عاملين مخلصين ، كثورة الجزائر عام ١٨٣٢ م ، الَّتي فجّرها المجاهد الكبير عبد القادر الجزائري ، وحركة الإصلاح الَّتي قامت بها (جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريين) بتوجيه العلاّمة **الشيخ عبد الحميد بن باديس** ، وكذلك **الشيخ محمد البشير الإبراهيمي** ، الَّتي محت وإلى الأبد فكرة الفَرْنَسَة والاندماج .

وثـورةُ الرِّيف في المغرب الَّتي فجَّرهـا محمـد عبـد الكريم الخطـابي ، وثـورة فلسطين ١٩٣٥ م التي بدأها **الشيخ عزّ الدّين القسّام** وتابعها تلامذته ومريدوه .

وهنـا لا ننكر مسـاهمـة بعض الشرفـاء من غير المسلمين في بعض الثـورات الوطنيَّة ، كما في مصر في ثورة ١٩١٩ م[١٠] .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ...

إنَّ الأدلّـة الَّتي سنعرضهـا خـلال هـذا البحث التَّـاريخي ، ليرى القـارئ من خـلالهـا دور الإسـلام في حركات التَّحرر العربيَّـة ، ستقنـع المنصِف ، ولن تقنـع أولئك الَّـذين وصلوا إلى (الجهل العلمي) عنـدمـا بـدؤوا بتفسير التَّـاريخ تفسيراً علميّاً ، وكأنَّ اللُّغة العربيَّـة الَّتي دوَّنت تـاريخنـا ، تحمل لكلِّ نصٍّ معنَيَيْن ، معنىً واضحاً جلياً عبَّر عنه المؤرِّخون الأقدمون عما أرادوا ورأوا ، ومعنى جديداً يريـده داعية التَّحليل العلمي ، فيدور ويحوم ويؤوِّل ، ليصل إلى مبتغاه .

إنَّ سلطان البرهان في الإقناع بعيد عن أذهـان هؤلاء ، وإننـا آخر من يقنع أن الأدلّة الَّتي سنوردها ستجعلهم يعيدون النَّظر بمـا كتبوا ، أو ستجعلهم يكتبون في المستقبـل بتجرُّد ونـزاهـة ، وإن كنتُ أنصـح لهم أن يتريَّثـوا قبـل أن يكتبـوا لسبَبَيْن :

ـ رأفة (بالبحث العلمي) الَّذي يحملون شعاره ، فهم أبعد النَّاس عنه .

---

(١٠) نقطة ضروريّة أقولها هنـا : إنّني عنـدمـا أذكر التَّبشير والاستعمار والحروب الصَّليبيَّـة ، أعني بمـا أقول أوربة الَّتي مزَّق الحقد قلبها ، لانطلاق المارد من جزيرة العرب محرِّراً فاتحاً ، يمتلك ما بين المحيطين ، ولا أعني بكتابي هذا الأخ العربي المسيحي ، المواطن الشَّريف ، الَّذي نقف معه جنباً إلى جنب ، في مواجهة هذا الخطر .

ـ وشفقة عليهم ممن يعرفون الحقيقة ، فالمطلع الباحث الدَّارس لا يثق بهم ، ولا بكتاباتهم (المُطَوَّعة) لأهداف معينة .

لقد رأيت ناساً ـ في تعنُّتهم ومكابرتهم ـ أغرب ممن ينكرون الشَّمس في رابعة النَّهار ، ليس دونها سحاب ، ينكرون فضل الإسلام في طرد المستعمر من هذه الأرض ، ولو لمسوا مئة دليل ، فليس غريباً عنهم عنادهم ومكابرتهم أن واحداً وواحداً يساويان اثنين ، وأن اثنين واثنين يساويان أربعة ... ولن يفلح أو ينفع العناد إذا جابهتهم الحقائق ، ودفعتهم الحوادث ، وظهرت للملأ أنَّها على عكس ما يرون .

ولن يتحقق ـ بإذن الله ـ ما يريده الاستعمار الثَّقافي لنا ، ولن يرانا أعداء الإسلام ننظر إليه بسلبية وخفَّة !!

فالمطلع على تاريخ **الإسلام** يعلم أنَّه **دين العقل** ، وأبناؤه يعرفون أنه **دين الوحدة** ، دين **الاستقلال والحرية** ، **ودين التَّقدم والصِّناعة** ، **ودين الرَّفاه والعلم** ، **ودين الإخاء والمساواة** ... دين **التحرر من الاستعمار** ، **ودين الطمأنينة والأمن** .

وسيبقى الإسلام دين العزة والتَّقدم ، وهيهات لمنصف أن يصمه بالرَّجعيَّة ، الَّتي عرَّفها الدكتور عصمة سيف الدولة : « الرَّجعيون الَّذين لا يدركون مشكلات ظروفهم إدراكاً صحيحاً[١١] . أو يبتكرون ظروفاً ومشكلات لا وجود لها[١٢] ،

---

(١١) راجع هذا التَّعريف ، والتَّعريف الَّذي سيلي أيضاً في كتاب : (أُسس الاشتراكيَّة العربيَّة) للدكتور عصمت سيف الدَّولة ، طبع الدَّار القوميَّة للطباعة والنَّشر ، في الفصل السَّادس : (في البُعْدِ الرَّابع) ، ومن هؤلاء الَّذين وصفهم التَّعريف المتعامين عن دور الإسلام في ثورات التَّحرُّر ، وخوض غمرات الموت في سبيل الحياة الكريمة .

(١٢) يبتكرونها إمَّا في سبيل حُبِّ الظُّهور ، وإمَّا تعنُّتاً وصليبيَّة وشعوبيَّة ، كاختراعهم فكرة التَّحليل العلمي ظاهرة واضحة الحافز والهدف .

والّذين تقعدهم السلبيّة عن بذل الجهد حلاً للمشكلات » .

فنحن نعرف عن الإسلام مـا لا يعرفون ، ونعي منـه مـا لا يعون ، **ففي ظلـه حقـق العرب حضـارة خـالـدة ، إنسـانيـة شـاملـة** ، تجـاوزوا بهـا التّخلف قبـل الإسـلام ، واقتحمـوا بهـا الطبيعـة ، وعرفـوا من قـوانينهـا مـالم يكن يعرفـه معاصروهم ، واستعملوا تلك القوانين استعمالاً علميّاً حقق حيـاة جـديـدة في أركان الأرض .

عرفنـا الإسـلام قـوة دافعـة ، قـادت ثـورة الجـزائر إلى النّصر في العصر الحـديث ، وإذا عَرَّف البـاحثـون التّقـدميّـة والتّقـدميين : « بـأنّهم كلّ ضحـايـا الاستعمار الّـذين يرفضون استمراره ، ويـنـاضلون في سبيل التّحرر ، وكل ضحـايـا التّجزئـة ، وكل ضحـايـا الاستبـداد والتّخلف » . فـأي فكر ، وأي منهـج ، وأي أرض ، وأي أتباع يتعرضون لهجمات الاستعمار كفكر وكمنهج ، وكأرض ، كأتبـاع الإسـلام ، منـذ الحروب الصّليبيّـة ؟! مروراً بـالغـزو المغـولي ، إلى الاستعمار الأوروبي ؟!!

فهو أولى المبادئ بشعار التّقدميّة ، لأنّـه حمل رايـة التّحرير ضـد الاستعمار ، وقاد حركات التّحرر ، وطرد الاستعمار من الأرض العربيّة ...

وإليك ـ أيُّها القارئ الكريم ـ الدّليل على صفحاتِ هذا الكتاب .

شوقي آبو خليل

دمشق : ٢ رجب ١٣٩٥ هـ .
الموافق ١٠ تموز ١٩٧٥ م .

خطة البحث

صُنِّف البحثُ بحسب التَّرتيب الزَّمني لسنوات الثَّورات وبدء المقـاومـة ، على النَّحو التَّالي :

١ ـ مصر	١٧٩٨ م
٢ ـ الجزائر	١٨٣٢ م
٣ ـ تونس	١٨٨١ م
٤ ـ السُّودان	١٨٨١ م
٥ ـ الصُّومال	١٩٠٢ م
٦ ـ ليبيا	١٩١١ م
٧ ـ سوريَّة	١٩٢٠ م
٨ ـ المغرب	١٩٢٥ م
٩ ـ فلسطين	١٩٣٥ م
١٠ ـ العراق	١٩٤١ م

☆ وفي نهاية البحث مصوَّر الوطن العربي حيث أهمُّ المدن ، ومناطق الثَّورات



مِصْر

« العِلْمُ في الإسلام لا يباع » .

الشيخ محمد بخيت المطيعي .

[مفتي الديار المصرية] .

الاحتلال

كلفت حكومة الثَّورة الفرنسيَّة الجنرال نابليون بونابرت[1] ، بتهيئة حملة لغزو انجلترة ، بعد أن انتصرت الثَّورة في حروب طاحنة مع الدول الأوروبيَّة المتحالفة ضدها . ولم يبق أمامها معارض للثَّورة وأفكارها سوى انجلترة ..

غير أن نابليون وجد صعوبة في تحقيق هذا الغزو للجزر البريطانية بالنسبة إلى قدرة فرنسا البحريَّة ، واقترح غزو مصر ، لتهديد انجلترة في طرق مواصلاتها مع درة التَّاج البريطاني (الهند) ، كما تعوض فرنسة باحتلال مصر ، ماخسرته من مستعمرات ، وتنطلق إلى البلاد العربيَّة والآسيويّة .

وفي ١٩ أيار « مايو » عام ١٧٩٨ م ، غادر الأسطول الفرنسي بقيادة نابليون ميناء طولون[2] سراً ، وعليه أربعون ألف جندي ، لاحتلال مصر ، فوصل شواطئ الاسكندرية في ١٨ المحرم ١٢١٣ هـ/٣ تموز ١٧٩٨ م .

ووطئت قدم الاحتلال أرض الكنانة ، فمن للمقاومة ؟!

---

(١) نابليون بونابرت Napoléon : [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] ولد في أجاكسيو (جزيرة كورسيكة) ، اشتهر في حملة إيطالية الأولى سنة ١٧٩٤ م ، والثَّانية سنة ١٧٩٦ م ، وقاد حملة على مصر سنة ١٧٩٨ م وحتَّى سنة ١٧٩٩ م ، وأصبح إمبراطور فرنسة مابين سنة ١٨٠٤ م وسنة ١٨١٥ م ، مات في منفاه في جزيرة القدّيسة هيلانة ، في المحيط الأطلسي ، جنوبي خط الاستواء .

(٢) طولون Toulon : مرفأ فرنسي حربي - تجاري ، جنوبي فرنسة على البحر المتوسِّط ، فيه مصانع للسُّفن الحربيَّة .

دِيوَانُ فَصْلِ الحُكُومَاتِ

« ليس الباطل إلا كالطلاء ،
يزول مع الزمن » .

لما دخل نابليون القاهرة شكل ديواناً وطنياً لمعاونته في إدارة البلاد ، من عدد من العلماء هم : الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ خليل البكري ، والشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ موسى الرسي ، والشيخ مصطفى الدمنهوري ، والشيخ أحمد العريشي ، والشيخ محمد الدواخلي »[٣] .

واتّخذ بعض المعادين للإسلام والمسلمين من هذا المجلس دليلاً للغمز واللّمز ، وبخاصة بحق رئيس المجلس الشيخ عبد الله الشرقاوي ، فالمجلس عند هؤلاء دليل على ممالأة الإسلام لنابليون ، فهل هذه حقيقة !؟!

لنقرأ معاً ماقاله الجبرتي[٤] في يومياته بتاريخ : ٢٠ ربيع الأول ١٢١٣ هـ/أول سبتمبر « ايلول » ١٧٩٨ م : « طلب **صاري عسكر بونابرته** المشايخ ، فلما استقروا عنده ، نهض بونابرته من المجلس ، ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طيلسان ثلاثة عروض : أبيض وأحمر وكحلي ، فوضع منها واحداً على كتب الشيخ الشرقاوي ، فرمى به إلى الأرض ، واستعفى ، وتغير مزاجه ، وامتقع لونه ، واحتدّ طبعه » واغتاظ نابليون وقال : إنّ الشّرقاوي لا يصلح للرّياسة ونحو ذلك »[٥] !!

---

(٣) (المختار من تاريخ الجبرتي) ، كتاب الشعب ٢٧ ، ص : ٢٥٤ و ٢٥٥

(٤) عبد الرحمن الجبرتي : [١٧٥٤ ـ ١٨٢٢ م] ، مؤرِّخ مصري ، ولد في القاهرة ، له : (عجائب الآثار في التّراجم والأخبار) ، وهو تاريخ مصر بين ١٦٩٠ م و ١٨٢١ م .

(٥) المختار من تاريخ الجبرتي ، ص : ٢٦٢

وقال الجبرتي المؤرِّخ المعاصر للأحداث بتاريخ ١٢ المحرم ١٢١٣ هـ/٢٦ يوليه « تموز » ١٧٩٨ م : « تشفَّع أرباب الديوان في أسرى المماليك ، فقبلت شفاعتهم وأطلقوهم »[٦] .

ونجد في « الأعلام » : « عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي (١١٥٠ ـ ١٢٢٧ هـ/١٧٣٧ ـ ١٨١٢ م) أزهري ، فقيه من علماء مصر ، ولد في الطويلة (من قرى الشرقية بمصر) وتعلم في الأزهر ، وولي مشيخته سنة ١٢٠٨ هـ » . ثم ذكر الكتاب مؤلفاته وقال : « وهو أحد الذين أُكرِهُوا ، في عهد الاحتلال الفرنسيس لمصر ، على توقيع بيان بالتحذير من معارضتهم »[٧] .

ويقول الجبرتي في يوميات (جمادى الآخرة مستهله ١٠ نوفمبر « تشرين الثاني » ١٧٩٨ م : « كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد ، وألصقوا منها نسخاً بالأسواق والشَّوارع .. » وعبارة « **على لسان المشايخ** » لا يفهم منها أن المشايخ قد كتبوها حقاً ، أو أقرُّوها ..

وبعد هذه النُّصوص التَّاريخيَّة : من الملاحظ أن زملاء الشيخ الشرقاوي ما وجهوا إليه اتهاماً ، بل كانت الانتقادات من بعض أفراد الشعب وعامته الَّذين لم يمتد نظرهم بعيداً !

فالشيخ الشرقاوي حاول الفرنسيون التماس سبب للتنكيل به في أول فرصة أو مناسبة ، وعندما رمى الشرقاوي العلم الفرنسي إلى الأرض واستعفى ، قال نابليون بصريح العبارة : « إنّ الشرقاوي لا يصلح للرياسة !! » .

إذن في الأمر شيء ، فهو في (ديوان فصل الحكومات) ومع ذلك يريد الفرنسيون الإساءة إليه والوقيعة به ، ففي الأمر شيء دقيق ، تشفعاته كثيرة ،

---

(٦) المرجع السَّابق ، ص : ٢٥٧

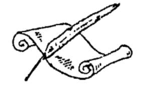
(٧) الأعلام ٤/٢٠٦

ورد في « حلية البشر » بالحرف الواحد : « فاستشفعوا بالمشايخ فتشفعوا عندهم »[8] . فهو دفع الضر عن مئات المواطنين .. فماذا يلوح في طيات هذا الكلام ، قبل أن نحكم على إنسان بالخيانة والمالأة بدل الأمانة والوطنية ؟!

الشرقاوي وقد عرف بإيمانه ، وعفته وتقواه ، ووطنيته ، ومواقفه المشهورة أمام نابليون ، رضي بعضوية الديوان ورئاسته لمصلحة الشعب ، فهو يعلم أنَّ هذا الشعب وقد دخل الفرنسيون أرض الوطن ، لاقبل له بقوة فرنسة الحديثة ، وهذا طبعاً من أخطاء هذه الأمة ، وسبب تأخرها ، وهو عدم مواكبة ركب التقدم العلمي الحديث ، فقبوله بهذا الأمر أقل ضرراً من أن يبقى في منزله منزوياً في معزل يترك نابليون يتصرف دون التزام أدبي مع أعضاء الديوان .

فوظيفة الشرقاوي لاتحتاج إلى دلائل أكثر مما سبق ، لقد قاوم الفرنسيين قبل دخولهم ، أي خروج للجهاد ، رفض العلم الفرنسي ورماه أرضاً أمام نابليون ، ثم تشفعه بالمواطنين الشرفاء المجاهدين ، وعدم مهاجمته من علماء زمانه وأقرانه ، يجعلنا نقول : لقد اجتهد الشرقاوي ، قاوم وجاهد ، ثم عمل لصالح مصر إلى آخر لحظة في حياته .





---

(٨) حلية البشر : ١١٨/١

الشيخ محمد السادات

رئيس اللجنة الثورية
في ثورة القاهرة الأولى .

ذكر الجبرتي أن تقرير الضرائب الفادحة التي فرضها الفرنسيون في : ٢١ تشرين الأول « اكتوبر » ١٧٩٨ م ، هو الَّذي أدَّى إلى نشوب ثورة القاهرة الأُولى ، علماً أن الشعب كان مهيأ للثورة لتحرير بلاده ... .

ـ يقول الجبرتي : « لما أشيع ذلك (أي الضرائب) في النَّاس ، كثر لغطهم واستعظموا ذلك .. » .

ـ ويقرر نقولا الترك[٩] : « وفي ذات يوم نهار الأحد في ٢٠ ربيع الأول/٢١ تشرين الأول ١٧٩٨ م نزل أحد المشايخ الصغار وكان من مشايخ الأزهر ، وبدأ ينادي في المدينة إنَّ كلَّ مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي في الكفار .. »[١٠] .

وقد بدأت أحداث القاهرة في السَّادسة صباحاً حين ردد المؤذنون من فوق المآذن نداءات الثَّورة ، وانطلق بعض الثوار في الشوارع يعلنون الثورة ويطالبون الناس بالتوجه إلى الأزهر الَّذي تحول إلى مقر قيادة الثَّورة .

أقيمت المتاريس في الشَّوارع ، وبدأت مجموعات من الثوار تهاجم مراكز

(٩) نقولا بن يوسف التُّرك [١٧٦٣ ـ ١٨٢٨ م] : يقال له الإسطمبولي ، شاعر له عناية بالتاريخ ، مولده ووفاته في دير القمر (بلبنان) ، سافر إلى مصر ، واستُخْدِمَ كاتباً في حملة نابليون ، وعاد إلى لبنان ، فخدم الأمير بشير الشهابي ، من كتبه : تاريخ نابليون ، تاريخ أحمد باشا الجزَّار ، مذكرات ، ديوان شعر ، حوادث الزَّمان في جبل لبنان .

(١٠) راجع لهذا البحث (الهلال) ، العدد الخاص عن (مصر المحاربة) ، عدد شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٧٠ م ، من ص : ٦٢ إلى ص : ٧٠

الفرنسيين وخصوصاً مقر قيادتهم في الأزبكية ، ومهاجمة باقي المراكز والدوريات ..

عندها تعمد نابليون قصف الأزهر ، مقر القيادة ، بالمدفعية والقنابل ، لقد دفع الثوّار ثمناً غالياً ، تمثل في مقتل أربعة آلاف وتدمير أقسام كبيرة من أحياء الثورة ، لكنهم في الوقت نفسه جعلوا الفرنسيين ينزفون كثيراً . وحتى نتبين ضراوة القتال ، رغم عدم تكافئه ، يكفي أن نعرف أن الفرنسيين خسروا في موقعة أمبابة[11] تسعة وعشرين قتيلاً وحوالي مئة وعشرين جريحاً ، بينما خسروا في قتال الشوارع حوالي خمس مئة جندي .

إن الجبرتي وكريستوفر هيرولد ... يؤكدان أن العناصر الّتي قامت بالثورة هي العناصر المجاهدة ، المتديّنة كالأئمة ، وطلاب الأزهر ، والأولياء ، والعلماء .

وهكذا يحفظ التاريخ للأزهر الشريف ، وللشيخ محمد السادات ، مواقفه الخالدة أمام الاستعمار الفرنسي ، ويسجل التاريخ للشيخ محمد السادات كيف اعتقل في حجرة كان ينام فيها على التراب ، ويرفع رأسه على حجر ، وكيف كان يُضرب مرة في الصباح ، وأخرى في المساء أمام زوجته وولده ، فما ركع ولا رجع ، بل ألهب الشعور بسجنه وتعذيبه بأكثر مما كان في حريته وتكريمه[12] .



(١١) أمبابة : أو معركة الأهرام ، على مشارف القاهرة .

(١٢) (المسلم) مجلة العشيرة المحمّديّة ، عدد ذي القعدة ١٣٧٥ هـ ، يونيه (حزيران) ١٩٥٦ م ، العدد ٤ ، السّنة ٦ ، ص ٧



الشيخ محمد كريم :
قاوم الاستعمار الفرنسي ، ورفض التعاون مع الفرنسيين .

ولقد اعترف نابليون ذاته في مذكراته التي أملاها في سجنه بجزيرة سانت هيلانة[١٣] ، بأنه كانت توجد لجنة عليا للثورة ، مكونة من ثلاثين عضواً هي الّتي دبرت ثورة القاهرة ، في ٢٤ أكتوبر « تشرين الأول » ١٧٩٨ م ، وبعد قيام الثورة بثلاثة أيام ، يذكر الجبرتي أن نابليون طلب الشيخ سليمان الجوسقي ، والشيخ أحمد الشرقاوي ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي ، والشيخ يوسف المصيلحي ، والشيخ إسماعيل البراوي ، كمتهمين في إثارة الفتنة[١٤] .

هذا هو موقف الأزهر وعلمائه ، ومن المؤسف أن تتعاون أُمور أُخرى على طمسها وإخفائها ، هذا هو موقف الأزهر وعلمائه من الفرنسيين ونحن ندع الحكم عليه للقارئ الكريم .

---

(١٣) في المحيط الأطلسي ، جنوبي خط الاستواء .

(١٤) (المختار من تاريخ الجبرتي) ص : ٢٧٦ ، وممّا يذكر هنا ، أن محمّد فضل الله المهدي ، المولود عام ١٧٣٧ م ، وأصله مسيحي ثمّ أسلم ، مالأ الفرنسيين في هذه الفترة ، على الرّغم من أنّه دخل الأزهر ، وتخرّج منه ، ولبس لباس العلماء . انظر للتّوسُّع في حياة هذا الإنسان القلقة ص ١٨٩ و ١٩٠ من كتاب السيد (عمر مكرم) ، طبعة كتاب الهلال ، العدد ٧ ، عام ١٩٥١ م .

الشيخ عُمر مَكْرَم

(نقيب الأشراف ، روح حركة المقاومة ، ومدير ثورتها ، وقائد الشعب الّذي لا يسكن) .

عمر مكرم بن حسين السيوطي ، ولد حوالي ١١٦٨ هـ/١٧٥٥ م[١٥] . تخرج من الأزهر ، وحصل على قسط وافر من العلوم ، اقتنى مكتبة كبيرة في الدّين والفقه ، لا يزال جزء منها محفوظاً في دار الكتب المصرية يحمل اسمه ، لم يتفرغ للتّأليف ولا للتّصنيف ، إذ كان اهتمامه منصباً على الأمور العامة في المجتمع .

كان أثيراً عند الناس ، ذا مكانة سامية في نفوسهم ، لدماثة خلقه ، وكرم نفسه ، وعفته عن المال ، لذلك لم يرتفع صوت ينكر عليه توليه (نقابة الأشراف) .

وصلت حملة نابليون بتجهيزها الحديث ، وقيادتها المجربة ، فخرج (مراد بك) و (إبراهيم بك)[١٦] لملاقاة نابليون وعمر مكرم يعلم أن أولئك الأفراد لن يستطيعوا حماية الشعب ، فنادى الشعب أن يهب لحماية نفسه بما استطاع ، وكان جواب الشعب باهراً نبيلاً ، إذ لبى جميعه نداء الواجب الّذي هتفه (نقيب الأشراف) الشيخ عمر مكرم ، فخرج كل من في القاهرة وضواحيها للجهاد ، ونشر عمر مكرم علماً كان العامة يسمونه (البيرق النبوي) ، ونزل من القلعة إلى

---

(١٥) الأعلام ٢٢٩/٥ و ٢٣٠ ، وحلية البشر ١٠٩/١ ، و (زعيم مصر الأوّل السيد عمر مكرم) ، لمحمد فريد أبو حديد .. سُمّي عمر (بالسّيّد) ، ولم يعرف بلقب (الشّيخ) لاشتغاله بالحالة العامّة للشّعب وانصرافه عن التّأليف والتّدريس ، ص : ٥٥ (السيد عمر مكرم) .

(١٦) عند مجيء الحملة الفرنسيّة إلى مصر ، كان يقتسم حكمها اثنان من المماليك ، هما : إبراهيم بك وبيده السُّلطة الإداريّة ، ومراد بك وبيده السُّلطة الحربيّة .

بولاق[17] ، والنـاس حولـه ألوف مؤلفـه يحملـون السِّلاح البسيـط ، وهم يهللـون ويكبرون .

وفي ٢١ تموز « يوليو » كانت معركة أمبـابـة ، ولم تمض إلا سـاعـات قليلـة ، حتى قتل من الجيش المصري ست مئـة ، وغرق نحو الألف ، وأصبـح نظـامـه أثراً بعد عين ، وانهزم مراد ناجياً بنفسه إلى الجنوب قاصداً الجيزة[18] . كما أسرع إبراهيم إلى الهرب ، وعمر مكرم ينظر ، فإن صدقت عزيمته في الجهاد ، فقد خانته المقدرة في السِّلاح ، وعصته الحيلة ، وعزت عليه الوسيلة .

لقد صحت فيه عزيمة الجهاد ، ولكن الخطأ ، خطأ التَّصنيع واللحـاق بركب الحضارة !



الشيخ عمر مكرم :
نقيب الأشراف في مصر .. قـــاوم نابليون .. وخاض معركة أمبابـة .. ثم تزعم ثورة القاهرة الثانية عام ١٨٠٠ .

---

(١٧) بُولاق : قصبة صغيرة كانت مينـاء القـاهرة على النِّيل في عهـد المماليـك والعثـمانيين ، وهي اليوم حيٌّ من أحياء العاصمة المصرية (القاهرة) ، اشتهرت (بولاق) بمطبعتها الَّتي جاء بهـا نـابليون إبان حملته على مصر سنة ١٧٩٨ م .

(١٨) الجيزة : عاصمة محافظة الجيزة اليوم ، بالقرب من الأهرام (القاهرة) .

ولمـا دخـل نـابليـون القـاهرة ، خرج منهـا عمر مكرم ، واستقر في « العريش »[١٩] ثم في « يافا »[٢٠] ، وأغـار نـابليون في السنـة نفسهـا على يـافـا ، فاحتلها وقتل من أهلها نحو ستة آلاف كانوا قد استسلموا ، ولكنـه أكرم من وجـد فيها من المصريين ، وبينهم عمر مكرم ، فعاد إلى القاهرة بعد غياب ثمانيـة أشهر . ثم عـاد نـابليون إلى بلاده بعـد فشلـه على أسوار عكا[٢١] ، وتـولى الجنرال كليبر[٢٢] حكم مصر .

ثورة آذار ١٨٠٠ :

فـاوض كليبر الإنجليز[٢٣] في الشروط التي يستطيـع بهـا أن يخرج من مصر ، وكان الجيش العثماني قد بدأ يزحف نحو مصر من ناحية الشام ، فوقع معهم اتفاقية العريش في ٢٤ كانون الثاني « ينـاير » ١٨٠٠ م ، الَّتي نصَّت على إعلان الهدنة لمـدة ثلاثة أشهر ينسحب خلالها الفرنسيون من المدن المصرية ويتجمعون على السـاحل لنقلهم على سفن إنكليزية إلى فرنسة على نفقة الدَّولة العثمانيَّة .

لكن إنكلترة تراجعت عن هذا الاتفـاق ، بعـد أن اطلعت على ضعف الجيش الفرنسي ، فـاعتبر الفرنسيـون ذلـك إهـانـة لشرفهم العسكري ، إذ اشترط الإنجليز

---

(١٩) العَريش : مـدينـة على المتوسِّـط ، شمالي سينـاء ، فيهـا وقَّـع الفرنسيـون معـاهـدة الجـلاء سنـة ١٨٠٠ م .

(٢٠) يافا : مرفأ ومدينة في فلسطين ، على البحر المتوسِّط .

(٢١) عكا : مـدينـة في فلسطين على البحر المتوسـط ، ازدهرت أيَّـام ظـاهر العمر ، وأحمـد الجـزَّار في القرن الثَّامن عشر ، حاصرها نابليون ، ولم يفلح في اقتحامها لمتانة أسوارها .

(٢٢) كليبر Kléber : [١٧٥٣ ـ ١٨٠٠ م] ، تـولَّى الحكم في مصر ، وقيـادة الحملـة الفرنسيَّـة بعـد نابليون .

(٢٣) أغرق الأُسطـولُ الإنكليزي نظيرَه الفرنسي ، واعتقـد (كليبر) أن بقـاء الفرنسيين في مصر ـ بعـد ذهاب نابليون ـ أصبح ضرباً من المحال ، وبدأ يكتب التَّقارير لحكومتـه ، يصوِّر فيهـا مستقبل الحملة تصويراً قاتماً ، فالإنكليز يحاصرونها من البحر ، والشَّعب في مصر ضدها ..

على الفرنسيين تسليم أسلحتهم ومعداتهم واعتبارهم أسرى حرب .

تسربت أخبار هذه الحوادث إلى القاهرة ، وبخاصة لما اشتبك الجيش الفرنسي مع جيش عثماني في القاهرة ، فإذا هم يرون الآمال الَّتي كانوا يتطلعون إلى تحقيقها توشك أن تتبدد ، فيعود إليهم الأجنبي ، بعد أن علَّلوا النفس بقرب انصرافه عنهم ، فهاجوا واضطربوا ، واشتعلت في صدورهم الكراهية والكبرياء ، وانفجرت حفيظتهم انفجاراً لم يسبق له مثيل ، واتجهت أنظارهم إلى زعماء يثقون بهم ويتيمنون برأيهم ، فكان الشيخ عمر مكرم كبير هؤلاء الزعماء وأعظمهم في أعين الناس ، فنادوه وهتفوا باسمه ، ولم يكن لينتظر دعوة ولا هتافاً ، بل سارع إلى الخروج ، إذ رأى الواجب يناديه إلى العمل وإلى مكافحة العدو .

لقد تزعم عمر مكرم ثورة القاهرة الثانية ، وبث من قلبه ما يفيض منه من إيمان وقوة في نفوس الشعب ، فقاتل الفرنسيين سبعة وثلاثين يوماً ، وهو ينتظر المدد من جيش عثماني ، أو تلوح له جنود مراد بك . ولكن أمله في كل ذلك كان خائباً ، وبخاصة عندما أصلى كليبر القاهرة وابلاً من قذائف المدفعيَّة . فتوقف القتال بوساطة بعض العلماء لوقف نزيف الدم غير المتكافئ .

ولقي الشيخ عمر مكرم نقمة كبرى من الفرنسيين ، فنهبوا بيته وما عاد إلى القاهرة إلاَّ بعد اغتيال كليبر[(٢٤)] . توفي الشيخ عمر مكرم عام ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢ م[(٢٥)] ، بعد أن أبعده محمد علي باشا إلى طنطا[(٢٦)] بعد دمياط[(٢٧)] .

---

(٢٤) في القاهرة سنة ١٨٠٠ م ، على يد سليمان الحلبي ، كما سيمر تفصيله على صفحات تالية .

(٢٥) الأعلام ٢٣٠/٥

(٢٦) طنطا : مدينة في دلتا مصر ، عاصمة محافظة الغربيَّة ، منها تنطلق جميع خطوط السِّكك الحديديَّة إلى الوجه البحري ، تشتهر بمقام السيد أحمد البدوي ، وبالصِّناعة والنَّسيج ، والزُّيوت النباتيَّة .

(٢٧) دمياط : مدينة في شمالي الدلتا ، على مصبِّ فرع نهر النيل الشَّرقي في البحر المتوسط ، تشتهر بنسيج الحرير ، وصناعة الأثاث .

قال الرافعي : « لم يعرف فضله ، ولا كوفئ على جهاده ، بل كان نصيبه النفي والحرمان والإقصاء من ميدان العمل ونكران الجميل » .

رحم الله الشيخ الجليل ، والعالم العامل ، الَّذي وقف في وجه الاستعمار الفرنسي لما دخل مصر ، وقام في وجهه في ثورة القاهرة الثانية ، ليثبت للعالم أجمع أن إسلامه وإيمانه دفعاه إلى الجهاد ، وإلى الذود عن أرض الوطن .

رحم الله عمر مكرم فلو كان ضعيف الإيمان في جهاده ، متردداً في إسلامه ، لكان ماشهده من مناظر الحرب ، وما قاساه في حياته كافياً لأن يخلع قلبه ويحمله على النكوص والرجوع . ولكن نفس ذلك الرجل العظيم الشيخ الفاضل المجاهد ، لم تكن من النُّفوس التي تلتمس الأعذار رياء الناس ، أو تريد النَّجاة من تحمل الواجب ، فتسلك إلى ذلك ما يتهيأ لها من السبل . ولهذا نجد أنه بقي على مسلكه وعقيدته ، واستمر طيلة حياته يترقب فرص الجهاد ليبرهن على الإسلام العمل النضالي ، حتَّى إذا سنحت له انتهزها مبادراً(٢٨) .

وهكذا .. كان الإسلام أوَّل قوة وقفت في وجه الغزو الفرنسي متمثلاً في شخص عمر مكرم سيد مصر الأوَّل .





(٢٨) (زعيم مصر الأوَّل : السيد عمر مكرم) ، ص : ٦٩ و ٧٠ بتصرُّف ، وفي ثورة القاهرة الثَّانية عام ١٨٠٠ م ، قاد الجهاد في (بولاق) الحاج مصطفى البشتيلي ، وقتل من الفرنسيين ومن معه الكثير .

مقتل كليبر

جاء في يوميات الجبرتي الخميس ٥ المحرم ١٢١٥ هـ / ٢٩ مايو « أيار » ١٨٠٠ م ما يلي :

ـ أصعدوا الشيخ محمد السادات إلى القلعة ، ورأى نابليون الإبقاء على حياته ، لما اعتقده من أنَّ الحكم بإعدامه يضرّ بمركز الفرنسيين أكثر مما ينفعهم ، وعقب إخماد الثورة ، سأل كليبر نابليون : كيف لا يقضي بإعدامه وهو زعيم الثورة ؟ فأجابه نابليون : إن إعدام هذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين ، بل يؤدي إلى عواقب وخيمة .

لذلك حقد كليبر على الشيخ السادات ، وهو الذي أمر بتعذيبه وضربه ، وكان هذا من الأسباب التي أدت إلى مقتل كليبر[٢٩] ، بعد ثورة القاهرة الثانية .

وقاتِلُ كليبر Kleber هو سليمان بن محمد أمين الحلبي ، ولد بحلب : ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م ، وأقام في الأزهر ثلاث سنوات يتعلم ، وعاد إلى حلب وحجَّ مرتين ، وزار القدس وغزة ، فعاهد بعض أصدقائه على قتل كليبر بعد عودة نابليون إلى فرنسا ، وحمل من علماء غزة رسائل إلى بعض علماء الأزهر ، يوصونهم بمساعدته ، وفي القاهرة ترصد كليبر واحداً وثلاثين يوماً حتى ظفر به يتمشى مع فرنسي آخر ، فطعنه بخنجر كان يخفيه في ثيابه ، عدة طعنات ، مات كليبر على أثرها .

اتجهت أنظار الفرنسيين في بادئ الأمر إلى اتهام العلماء الذين عرفوا بالتحريض على الثَّورة الأخيرة ، والحضِّ على كراهية الجنس الفرنسي .. ففتّشت

---

(٢٩) (تاريخ الحركة القوميّة) لعبد الرحمن الرّافعي : ١٨٩/٢

بيوتهم ، ولكن لم يجدوا ما يـدينهم أو يبعث على الاشتبـاه فيهم . وكان الفرنسيون يوجهون التحقيق إلى جمع البينات لإثبات عِلْم الشيخ الشرقاوي بِنِيَّة القـاتل قبل ارتكابه الجناية ، ولكن التَّحقيق لم يسفر عن إدانة الشيخ الشرقـاوي ، أو غيره من كبار العلماء ...

وفي التحقيق قال سليمان الحلبي : إنني من مِلَّة محمَّد ، وبعـد تعـذيب شـديـد اعترف بتحريض ثـلاثـة من العلمـاء هم : الشيـخ محمـد الغـزي ، الشيـخ عبـد الله الغزي ، والشيخ أحمد الوالي[٣٠] .

وسئـل سليـان الحلبي عن عـلاقتـه بـالشيـخ الشرقـاوي ، وعن تردُّده مرات عديدة ليبيت عند الشيخ الشرقاوي ، فنفى ذلـك بعـد أن أقره بـالأمس ، وسئل الشيخ الغزي : هل أخبر بالذي أقدم عليه سليمان لأحد من المدينة وخصوصـاً إلى الشيخ الشرقاوي ؟

فقال الشيخ الغزي الَّذي ضُرِبَ بشكل لا يُطاق : إنَّ سليمان أخبره أنه سيقتل كليبر ، وقـال : إنَّ سليمـان قـد قـال لـه ، إنـه حضر من غَزَّة لأجل أن يغـازي في سبيل الله ، بقتل الكفرة الفرنسويَّة .

وسئل المدرس التركي (مصطفى أفندي بروسـه) في التحقيق : « هل يعرف بأن سليمان راح عند ناس من البلد ، وخصوصاً عند أحد من المشايخ الكبـار » ؟ فجاوب : « إنه لا يعرف شيئاً ، لأنه ما شافه إلاَّ قليلاً ، وأنـه لم يقـدر يخرج كثيراً بسبب ضعفه وكبره »[٣١] .

لقد حكمت المحكمة الفرنسيَّة على المجاهد المسلم سليمان الحلبي بإعدامه صلباً على

(٣٠) الأعلام ١٩٧/٣ ، والمختار من تاريخ الجبرتي ص : ٣٧٧ ، والرَّافعي ٢٠١/٢

(٣١) النَّص حرفيّاً كما ورد من مذكرات الجبرتي ، ص ٣٨٥

(الخازُوق ! ، بعـد أن تُحْرَقَ يَـدُهُ اليمنى ، ثم يترك طعمـة للعقبـان ، ونفـذ فيـه ذلـك ، في (تل العقـارب) يـوم ١٧ يـونيـه « حـزيران » ١٨٠٠ م ، وعلقت إلى جانبه رؤوس ثلاثة من علماء الأزهر ، كان قـد أفضى إليهم بعزمـه على القتـل ، ولم يفشوا سرّه ، وهم : الشيخ عبـد الله الغزي ، والشيخ محمـد الغزي ، والشيـخ أحمـد الوالي .

واحتفظ الفرنسيس بـالهيكل العظمي من جسم سليـمان ، فوضعوه في متحف حديقة الحيوانـات والنبـاتـات في بـاريز ، كما حفظوا جمجمتـه في غرفـة التَّشريح بمدرسة الطب بباريز . وما زال الخنجر الـذي طعن بـه كليبر محفوظـاً في مـدينـة كاركاسون Caracasson بفرنسة[٣٢] .

وهكذا قدم سليمان الحلبي روحه بدافع من إيمانه وإسلامه ، للثأر للشيخ محمد السَّادات ، وقدم الأزهر الشريف ثلاثة من علمائه في سبيل قتل كليبر الـذي عرف بعدائه للمسلمين !!



الشيخ الكيلاني

تواترت الأخبار إلى الحجـاز ، أنَّ الفرنسيين نزلوا مصر . فـأزعج ذلـك أهل الحرمين الشريفين ، وضجوا في الحرم ، وأخـذ الشيخ محمـد الكيـلاني المغربي يعـظ النـاس ، ويـدعوهم إلى الجهـاد ، ويحرضهم على نصرة الـدِّين والحقّ ، وقرأ بـالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك ، فـاتعـظ جملـة من النـاس ، وبـذلوا أموالهم وأنفسهم ، واجتمع نحو ست مئة من المجاهدين وركبوا البحر إلى مدينة القُصَيْر ، على سـاحل البحر الأحمر في مصر ، مع من انضم إليهم من أهل ميناء يَنْبُع في الحجـاز ... فورد

(٣٢) الأعلام ٣/١٩٦ و ١٩٧

الخبر إلى القاهرة ، أنه انضم إليهم حملة من أهل الصعيد ، وبعض أتراك ومغاربة .. وحاربوا الفرنسيس ، فلم تثبت فرقة البدو الَّتي انضمت إلى الشيخ ، وثبت الحجازيون ، ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب بعدة مواضع ، وانفصل الفريقان دون طائل[٣٣] .. وبقيت الحال فترة طويلة سجالاً ...

لقد تمثلت في الشيخ محمد الكيلاني ، روح التَّضامن الإسلامي فنفر من الحجاز (وهو مغربي الأصل) لنجدة مصر في محنتها ، عندما دنَّس أرضها الفرنسيون .

وتمثلت فيه مبادئ الإسلام عملياً فقام يحرض الجند على الجهاد ، وكان في مقدمتهم عند اللقاء .

☆ ☆ ☆

الشيخ سُليمَانْ ٱلفيُّوميّ المالِكي الأزهَريّ

كريم النفس جداً ، يجود وما لديه قليل ، مع حسن المعاشرة ، والبشاشة والتواضع ، والمواساة للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، وطعامه مبذول للواردين ، فكل من دخل عليه لابدَّ أن يقدم له طعاماً ، مع كونه نافذ الكلمة ، مقبول الشفاعة ، ولا يقبل من أحد شيئاً مكافأة على فعله ، فمالت إليه القلوب ، ووفدت عليه الناس من كل جانب ، وطارت شهرته في البلاد والأماكن ، وكان إذا نزل عنده ذو حاجة ، فلا يخرج من داره حتى تقضى حاجته ، فيودعه ويزوده ما يكفيه إلى وطنه[٣٤] .

---

(٣٣) المختار من تاريخ الجبرتي ، ص : ٢٩٥ ، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر : ١١٨/١

(٣٤) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٦٦٦/٢

هذا العالم الجليل ، بهذه الصفات الّتي وردت في (حلية البشر) كان في (ديوان فصل الحكومات) وقال عنه مؤلف المرجع المذكور : « ولما أخذ الفرنساويون مصر عام ثلاثة عشر ، كانت داره ملجأ القاصدين ، ومنهل الواردين من الناس ، لأنه كان عند الفرنساويين من المقدمين على غيره » .

فهو بذلك يذكرنا بالشيخ عبد الله الشرقاوي ، رئيس (ديوان فصل السلطات) . ويذكرنا بالملاحظات التي أوردناها في حينها ، وأبينا أن يكون من أعضاء الديوان لمصلحة شخصية ، أو حباً بالفرنسيين ؟!

☆ ☆ ☆

البَكريّون

الأُسرة البكريَّة ، أُسرة عريقة ، قدمت في كلِّ جيل عَلَماً من الأعلام ، يهمنا في هذه الفترة ذكر السيد علي البكري الصديقي والد السيد محمد توفيق البكري .

إنَّ حياة علي البكري لا تختلف عن حياة آبائه في الجهاد ، إنَّها حياة عريضة ، بمعنى أنَّها صورة مكبرة لحياة أجداده ، وصورة مصغرة لحياة أُمَّة كلها . فهو المرجع الأعلى في الشؤون الدينية ، وهو نقيب الأشراف **وشيخ مشايخ الطُّرق الصُّوفيَّة . وفي بيته كانت تعقد أخطر الاجتماعات الدِّينيَّة والسِّياسيَّة .**

والتَّاريخ يخبرنا ، أنَّ الخديوي إسماعيل(٣٥) رتب على مصر ديوناً طائلة ، بسبب تبذيره وإسرافه ، لقد مدَّ يده إلى الأسواق المالية البريطانيَّة والفرنسيَّة ليستدين منها بفوائد فاحشة ، ولم يلبث أن عجز عن قضاء هذه الفوائد ، وعندئذ

---

(٣٥) إسماعيل بن إبراهيم باشا [١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] : تولَّى حكم مصر سنة ١٨٦٣ م ، افتتحت في عهده قناة السُّويس سنة ١٨٦٩ م ، بالغ في إسراف المال ، فوقعت مصر في عجز ، وازداد دين الأجانب عليها ، مما أدّى إلى تدخُّل الدُّول الأُوربيَّة ، وإلى ثورة عرابي ، وعزل إسماعيل سنة ١٨٧٩ م ، الّذي توفي في اسطنبول سنة ١٨٩٥ م .

عرض حصة مصر من أسهم قناة السويس للبيع فأسرعت بريطانية لشرائها عام ١٨٧٥ م . هذه الأحداث جعلت أعيان الأُمة ، يجتمعون في دار السيد علي البكري ، ليضعوا اللائحة الوطنية الَّتي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوروبة ، حتَّى لا تتدخل أصابع الدول الأجنبية في شؤون مصر ، وكان هذا مْن أكبر الاجتماعات التي شهدتها الدار ، فقد أحدث في الناس شعوراً بالقوة لم يلمسوه في أنفسهم من قبل ، وأحسُّوا أنَّهم يستطيعون أن يعتمدوا على قوتهم ، وأن يوجهوا أمورهم كما يقول الشيخ محمد عبده ، ومن هنا لقبته الجرائد بشيخ الأمة[٣٦] .

وزاره الخديوي إسماعيل بعد ذلك في داره شاكراً له مسعاه ، طالباً منه أن يسعى مرة أخرى في إنقاص نسبة الفائدة على الدُّيون المصريَّة ، فتوجه إلى السّير بارنج - لورد كرومر[٣٧] فيما بعد - وأكبر الرجل هذه الزيارة من عالم الدِّين الكبير وشيخ الأمة ، ورفض السيد علي البكْري ، أن يذوق شيئاً قبل أن يسمع رأي السير بارنج في إنقاص نسبة الفائدة الكبيرة ، فأجيب إلى طلبه في الحال ، وخرج يملأ القلوب والأفواه كما كان يقال عنه .

هذا الرجل ، **شيخ الأُمَّة** ، **السيد علي البكري** ، الَّذي جعله إسلامه يتحسس أُمور زمانه السياسية ويتدخل لوضع حلول لصالح شعبه ، وقد استشف في الأُفق خطر تدخل أُوروبي بسبب ديون الخديوي ، هذا الرجل ربَّى ابنه الشيخ محمد توفيق تربية هيأته ليتابع مصلحة الأُمَّة من بعد أبيه ، فجمع الابن العلوم العصريَّة المدنية مع العلوم الدِّينيَّة ، لقد حمل شهادة من الأزهر ، ولبس جبة وعمامة ، على ملامح لطيفة ، أكسبته سمة العلماء ووقارهم في ريعان شبابه وعنفوانه .

---

(٣٦) (محمد توفيق البكري) ، د . ماهر حسين فهمي ، ص : ٢٤ و ٢٥ ، ورأي الشيخ محمد عبده في (تاريخ الإمام) : ١٦١/١

(٣٧) (محمد توفيق البكري) ص : ٦٩ ، عن كتاب : (مصر والسُّودان في أوائل عهد الاحتلال) ، ص : ١٧٥

كما تسلم من بعد أبيه مشيخة الطرق الصُّوفيَّة ، ونقابة الأشراف ...

من ملامح شخصية الشيخ توفيق في معترك السِّياسة ، الَّتي ألقى بنفسه فيها منذ وقت مبكر ، أنَّ الاحتلال في ذلك الوقت كان يحاول أن يئد روح الوطنيَّة في النفوس بعسفه وطغيانه . فصار عدم الاكتراث بالوطنية شعار هذا الجيل ، والجيل الذي تلاه ، وأصبح سبيل النجاح سواء في مناصب الحكم ، أو في الحياة الاجتماعية عامة هو الولاء للاحتلال الأجنبي ، والزراية بالمبادئ الوطنية وقلة الإخلاص للبلاد ، ودرج الناس على هذه الحالة حتَّى ألفوها ، وحتَّى عدوها حالة عادية ، وكأن الخروج عليها ضرب من السُّخف أو الجنون ، وهكذا يمسخ الحكم الأجنبي نفسية الأُمة ، ويفقدها روح القومية والكرامة ، وينشئ نفوساً مريضة يروضها على التفريط في حقوق الوطن والتضحية بمصالحه ، وألغى الاحتلال النظام الدستوري الَّذي نالته البلاد من قبل . والذي كان أداة لمقاومة التدخل الأجنبي والحدّ من سلطة الفرد ، وكان يقرر سلطة الأُمَّة ويجعل الوزارة مسؤولة أمام مجلس نيابي كامل السلطة ، وأنشأ بدلاً منه نظاماً صورياً قوامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وهما هيئتان محرومتان كل سلطة ونفوذ ، وبذلك فقدت البلاد في وقت واحد استقلالها ودستورها وفقد الناس الطمأنينة على حياتهم وحريتهم[٣٧] .

لقد قام الشيخ محمد توفيق البكري أمام هذا الواقع ينادي : مصر للمصريين ، وأنا ضدّ أي احتلال فرنسي ، أو إيطالي ، أو بريطاني ، إنَّ البلاد قادرة على حكم نفسها بنفسها . لقد جاهر بعدائه للاستعمار البريطاني ، وبدأ يبث الرُّوح الوطنيَّة بمفهومها الذي ساد في نهاية القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين

(٣٧) (محمد توفيق البكري) ص : ٦٩ ، عن كتاب : (مصر والسُّودان في أوائل عهد الاحتلال) ، ص : ١٧٥

في مصر ، وهي اهتمام المصري بوطنه ، والتمسك بدعوة الجامعة الإسلامية فكريّاً وعمليّاً[٣٨] .

ولما زار ولي عهد بريطانية[٣٩] مصر ، خطا البكري خطوة أخرى ، فكتب إليه كتاباً مفتوحاً نشر في (المؤيد) طالب فيه بريطانية بوفاء وعدها بالدستور والاستقلال . ونشرت الأهرام والمُقَطَّم والجوائب وكثير من الصحف الأجنبية الكتاب ، فأثار ضجة كبيرة في الرَّأي العام .

وللحقيقة نقول : لم يكن البكري ، ولا غيره ، يملك أن يصنع أكثر من محاولة تكتيل الرأي العام نحو هدف معين ، وأكثر من تكريس المصري و « فعل بمصر في النفوس والعقول ما تفعله شعلة النار ألقيت في بحر من البترول »[٤٠] .

جرّد قلمه في سبيل محاربة المستعمر ، وإيقاظ أبناء وطنه ، وبثّ روح المسؤولية فيهم .

هذه الشَّخصيَّة الوطنيَّة ، الَّتي أتقن صاحبها الفرنسيَّة والتُّركيَّة والإنكليزيَّة إلى جانب العربيَّة ، وزار أُوروبة مرتين ، فاطّلع وفهم المدنية الحديثة ؛ فعَلَت شهرته في مجابهة الاستعمار البريطاني لبلاده ، وتحسس آلام الشعب المصري في حينها ، فهو الَّذي نادى بالقضاء على ويلات الإنسان في ظل التَّفرقة الطَّبقيَّة وقال : « فبينما ترى قصوراً وثراء ، وحبوراً وسراء ، وعربات تترى ، يعدو أمامها السُّلَيْك والشَّنفري[٤١] ، وخراج قرية أو قريتين ، يذهب في لهو ليلة أو

---

(٣٨) (محمد توفيق البكري) ، ص : ٧٣

(٣٩) ولي العهد (جورج الخامس) : [١٨٦٥ - ١٩٣٦ م] ، خلف أباه (إدوارد السَّابع) سنة ١٩١٠ م .

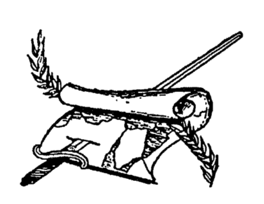
(٤٠) (المؤيد) عدد : ١٩٠٦/٤/٣ م ، انظر : محمد توفيق البكري ص : ٧٥

(٤١) السُّلَيْك : في [اللّسان : سلك] سُلَيْك السّعدي : من العَدَّائين ، وفي [اللّسان : شنفر] ناقة شِنْفارة : أي ذات نشاط ، والشِّنفار : الخفيف .

ليلتين ، نجد أرامل صناعاً ، وأيتاماً جياعاً ، وشيخاً يعمل ، أو مريضاً عاجزاً عن العلاج ... حال تطرف العيون ، وتثير الشجون »[٤٢] .

هذه الشخصية تغير عليها الخديوي عباس عام ١٣٢٧ هـ ، فطارده ، ثم رماه بالجنون تخلصاً منه ، ونقل إلى مصح في بيروت عام ١٣٣٠ هـ ، فبقي فيها ستة عشر عاماً يقابل الناس بشكل طبيعي ، ثم عاد إلى القاهرة بعد أن ضجّ الأدباء فيها . توفي عام ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م[٤٣] .





(٤٢) محمد توفيق البكري ، ص : ٤٤ ، عن (صهاريج اللؤلؤ) ص : ١٥٨

(٤٣) الأعلام ٢٩١/٦

ثورة أحمد عرابي

« لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لاإله إلاَّ هو إنَّنا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم » .

(عرابي للخديوي توفيق في ١٨٨١/٩/٩ م)

أحمد عرابي بن محمد عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم : (١٢٥٧ ـ ١٣٢٩ هـ / ١٨٤١ ـ ١٩١١ م) ، ولد في قرية « هرية رزنة » من قرى الزَّقازيق بمصر ، وجاور في الأزهر سنتين ، ثم انتظم جندياً في الجيش سنة ١٣٧١ هـ ، وبلغ رتبة (أميرالاي) في أيَّام الخديوي توفيق[٤٤] .

ازداد التَّدخل الأجنبي في شؤون مصر ، وحنق رجال الجيش لاضطهاد الأحرار الوطنيين ، ناهيك عن عدم السَّماح لضباط الجيش المصريين أن يتجاوزوا في التَّرقية رتباً معينة .. فتولى زعامة الوطنيين في الجيش أحمد عرابي ، وتوثقت العلاقة بينه وبين الزعماء السياسيين ، فاعتمدوا عليه في تحقيق مطالبهم الَّتي تتلخص في إقامة الحياة النِّيابيَّة في البلاد ، ووقف التَّدخل الأجنبي .

سار عرابي بمظاهرة سلمية إلى ميدان عابدين (أيلول عام ١٨٨١ م) مع فِرَق الجيش ، يحيط بهم آلاف من أفراد الشَّعب ، وقدم للخديوي ، ومستشاريه ، ورئيس الوزراء ، والمندوب الإنكليزي ، مطالب الشَّعب والجيش ، وتتلخص بعزل رئيس الوزراء ، وتأليف مجلس نواب ، وزيادة عدد الجيش وتقويته ليصبح قادراً على الدفاع عن البلاد .

اضطر الخديوي إلى الإذعان ، فعهد إلى شريف باشا بتأليف الوزارة ،

---

(٤٤) الأعلام ١٦١/١ و ١٦٢ ، ورتبة (أميرالاي) تعادل رتبة عميد حالياً .

وبإعداد الدستور الذي رفع إلى مجلس النواب ، فأصر المجلس على مناقشة الميزانية ، وأعلن احترامه لالتزامات الحكومة ، بما يتعلق بشأن الديون .

إلاّ أن أوروبة ، وبخاصة فرنسة وإنجلترة ، فزعت من هذا الخبر الّذي يمس مصالحها الاستعمارية ، فأرسلت إنجلترة وفرنسة مذكرة مشتركة إلى الحكومة المصرية (كانون الثاني ١٨٨٢) تعارضان فيها حق المجلس في مناقشة ميزانية الدولة وإقرارها ، وتهددان بالتدخل لتأييد سلطة الخديوي .

وفكر الخديوي أن يستغل هذه المذكرة لقلب الحكومة وحل المجلس النيابي وإعادة السُّلطة المطلقة ، لكن النواب وقادة الجيش لم تزدهم المذكرة إلا تكتلاً وإصراراً على موقفهم ، وإعلان حق المجلس في مناقشة الميزانيَّة .

فخالفهم شريف باشا رئيس الوزراء ، ورأى تأجيل هذا الأمر حتى يفاوض الدَّولتين ، لإقناعهما بوجهة النظر المصرية ، تلافياً للأزمة ، ولكن مجلس النواب رفض اقتراح شريف باشا ، فلم يجد بُدّاً من الاستقالة .

تألفت وزارة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي(٤٥) ، فسلم فيها أحمد عرابي وزارة الحربية والبحرية ، فبدأت الوزارة عملها بتقديم مشروع إصلاحي لمختلف نواحي البلاد ، وتعديل الفقرة الخاصة بالميزانية من مشروع الدستور ، بحيث يصبح للمجلس حق النظر في الميزانية ، باستثناء الجزء الخاص بالحصة الّتي تدفع للباب العالي ، وبنفقات الدَّين العام ، وذلك كي لا يفسح المجال أمام الدُّول للتَّدخل في شؤون مصر . وأقر مجلس النواب مشروع الدستور الجديد ، واضطر الخديوي توفيق في ٧ شباط ١٨٨٢ م . إلى إصدار مرسوم بالدستور وتحقق أول أمل للشعب في عهد الوزارة الجديدة .

---

(٤٥) محمود سامي البارودي [١٨٤٠ ـ ١٩٠٤ م] ، ولد في القاهرة وتوفي فيها ، سياسي وشاعر امتاز بالسهولة والبلاغة .

إلاَّ أن إنكلترة ، الَّتي كانت تتحين الفرص لاحتلال مصر ، وجدت في هذا التدبير عملاً يجعل مصر تفلت من يدها ، وأخذت تدبر الخطط لإثارة الفتنة والانقسام بين صفوف المواطنين ، ووجدت في شخصية الخديوي أداة طيعة لتحقيق مآربها .

ولما اشتد الخلاف بين الخديوي والوزارة ، ولاحت بوادر الثَّورة ادعت إنجلترة أنَّ الحالة خطيرة ، يخشى منها على أرواح الرعايا الأجانب ، وتحفزت للتدخل المسلح ، فأرسلت أسطولاً إلى مياه الإسكندرية ، وطالبت مع فرنسة بإسقاط الوزارة وإبعاد عرابي عن مصر ، فاستقال محمود سامي البارودي ، على حين أصر عرابي على الاحتفاظ بمنصبه ، فحاكت بريطانية والخديوي في (١١ حزيران ١٨٨٢ م) حادث الإسكندرية ، الذي تسبب بفتنة عندما اشتبك أحد رعايا الإنكليز مع عامل مصري ، وتطور إلى تبادل إطلاق الرَّصاص بين الأهلين والأوربيين ... أطلق البريطانيون قنابلهم على الإسكندرية ، ونزلت قواتهم إلى البر ، وأقرَّ الخديوي عمل بريطانية ، وأمر بعزل عرابي ، لكن الشَّعب التف حول عرابي ولقبه : (حامي البلاد) ، فأعد العدة للمقاومة ، وعزم على ردم مدخل القناة[٤٦] ، ليمنع الأسطول الإنجليزي من إنزال جنوده في الجبهة الشَّرقية ، ولم يثنه عن عمله سوى تدخل ديليسبس[٤٧] ، الذي وعده بمنع الأسطول من المرور في القنال اعتماداً على حيادها[٤٨] .

إلا أن القوات الإنجليزية نزلت عند الإسماعيلية ، وزحفت منها نحو القاهرة ، والتقت بقوات أحمد عرابي في معركة (التَّل الكبير) ، ودخل الإنجليز

---

(٤٦) من الشمال على البحر المتوسِّط ، من جهة بورسعيد وبورفؤاد .

(٤٧) فردينان دي ليسبس Lesseps : [١٨٠٥ ـ ١٨٩٤ م] ، مهندس فرنسي ، شقَّ قناة السُّويس مابين : [١٨٥٩ ـ ١٨٦٩ م] ، فوصل بذلك البحر الأحمر بالبحر المتوسط .

(٤٨) تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص : ١٢٢ ـ ١٢٦

القاهرة في ١٤ أيلول ١٨٨٢ م ، فحلوا الجيش المصري ، ونفوا عرابي إلى جزيرة سيلان ، حيث مكث تسعة عشر عاماً ، وأطلق في أيام الخديوي عباس[٤٩] فعاد إلى مصر ، وتوفي بالقاهرة .

تلك هي باختصار أحداث الثَّورة العُرابية ، من الناحية العسكرية ، فلننظر إلى المبادئ والأفكار الَّتي وجهتها ، وإلى مكانة رجالها في المجتمع آنذاك !!

☆ ☆ ☆

أحمد عرابي :

مسلم ملتزم ، جاور في الأزهر عامين ، اتصاله وثيق مع العلماء كما سنرى ، لذلك نظر إليه رئيس الوزارة الفرنسي « ليون جمبتا Leon-Gambetta » على أنه يقود عصياناً ثورياً ، وتعصباً إسلامياً[٥٠] .

لقد طبقت شهرة عرابي الآفاق في العالم الإسلامي ، لنجاحه في تحدي الاستعمار ، حتَّى سُمِّي (بطل الإسلام) ، والمدافع عنه في وجه إنجلترة وفرنسة ، وكان رجوعه إلى وزارة الحربية قد قوبل بالفرح ، في تونس ، وسورية ، ومَرَّاكُش ، والجزائر وغيرها ، باعتباره هزيمة لإنجلترة وفرنسة ، مما أدى إلى ازدياد ثقة المسلمين بأنفسهم ، وأصدر علماء الأزهر فتوى مضمونها أنَّهم لن يطيعوا السلطان ، إذا ما انضم إلى الأوربيين ضدّ عرابي ، وأخذوا يوثقون علاقتهم بعلماء طرابلس وتونس ، وحاول علماء البلدان الثلاثة أن يقنعوا (أحمد أسعد) سادن

---

(٤٩) عبَّاس حلمي الثَّاني [١٨٧٤ ـ ١٩١٤ م] ، ابن إسماعيل ، وُلِدَ في القاهرة ، وتوفي في جنيف ، وهو خديوي مصر من ١٨٩٢ م إلى ١٩١٤ م ، عزله الإنكليز ، فخلفه السُّلطان حسين كامل مع بدء الحرب العالمية الأُولى .

(٥٠) الثَّورة العرابية ، د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ص ٧٧

الحرمين الشَّريفَيْن ، بأن نجاح قضية الإسلام في شمال إفريقيـة ـ بل وجود الإسلام على الإطلاق ـ يتوقف على بقاء عرابي في الحكم[٥١] .

كتب عرابي إلى إنجلترة في ٢ تمـوز ١٨٨٢ م : « لتتـأكـد إنجلترة ، أنَّ أوَّل بندقيَّة تطلقها على مصر ، ستحرر المصريين من كل المعاهدات والاتفاقيات ، ومعنى ذلك انتهاء الديون والمراقبة ، سندمر قنواتنا ونقطع مواصلاتنا ، ونستغل الحماسة الدينية الإسلامية ، لإعلان الجهاد المقدس في سوريَّة والجزيرة العربيَّة والهند ... » وقد ألقيت الخطب بهذا المعنى في مساجد دمشق ، وتمّ الاتفاق مع الزعماء المدنيين في كل بلد في سائر العالم الإسلامي[٥٢] ...

وفي تقرير أرسله قنصل إنجلترة في دمشق ، بتاريخ ١٤ و ٢٠ حزيران « يونيو » ١٨٨٢ م إلى دولته والدولة العثمانية ، ذكر فيهما القنصل : تجمع علماء وأعيان دمشق ، وكثير من النَّاس ، لمقابلة مندوب عرابي ، وهو أحد مشايخ الأزهر ، واجتمعوا به في المسجد الأموي . وقال لهم : إنَّ مصر باب الكعبة ، وبيضة الإسلام ، **وأن هدف الإنجليز هو القضاء على الإسلام** ، وأن على كل مسلم أن يهب لمساعدة عرابي بقواه وماله .. وكان لهذه الخطبة أثر بالغ في النَّاس .

وأرسل عرابي خطابات إلى والي الحجاز ورعيته ، يذكر لهم أنه قد حمل السِّلاح للدفاع عن البلاد ، وطلب منه ومن رعيته أن يدعوا الله في صلواتهم أن يكلل جهودهم بالنصر .

وأرسل كذلك رسله إلى الهند وتونس وطرابلس ، لاكتساب عطف الرَّأي العام الإسلامي والإعداد للجهاد .

---

(٥١) المرجع السَّابق ، ص ١٠٢

(٥٢) المرجع السَّابق ، ص ١٠٧

« أرسل القنصل البريطاني في (سالونيك)[٥٣] في ٨ أغسطس (آب) ١٨٨٢ م ، يذكر أن السكان بوجه عام يعتبرون إنجلترة وفرنسة عدوَّتَيْن لدينهم ولكيانهم ، وأن هذا الشعور لا يقتصر على العوام ، بل إنه يوجد كذلك لدى ضباط في الجيش متحمسون ضدَّ إنجلترة ، وأنهم يعتبرون عرابي بطل الإسلام ، ومن ثم عطف السكان عليه وعلى الثورة المصرية »[٥٤] .

كيف يعتبر عرابي بطل الإسلام في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ؟[٥٥] هل هذه التَّسمية مصادفة ؟ أَمْ أنَّها حرب صليبية ، **أرادتها بريطانية ضدَّ مصر ، فتصدى لها بطل مسلم متمسك بدينه وإسلامه هو أحمد عرابي ؟!**

وجُنْدُ عرابي مؤمنون يقضون اللَّيل في الاستماع إلى تلاوة آيات القرآن الكريم ، وفي حلقات الذكر[٥٦] ، وعرابي في مذكراته يذكر تمسكه بواجباته الدينية كالصَّلاة وغيرها ، لذلك كان أول ما طلبه في سجنه « سجادة للصلاة وقرآن كريم »[٥٧] .

☆ ☆ ☆

(٥٣) سالونيك : أقصى الشَّمال الشَّرقي من اليونان حالياً ، وهي مقاطعة مشرفة على بحر إيجة .

(٥٤) الثَّورة العرابية ، د . أحمد عبد الرَّحيم مصطفى ، وانظر لثورة عرابي ، الكتب التَّالية أيضاً :
- مؤسِّسو مصر الحديثة ، ماري رولات .
- (الهلال) ، عدد أيلول ١٩٧١ م ، عدد خاص عن الثَّورة العرابية بعد ٩٠ سنة .

(٥٥) في الهند والمغرب ، وفي بلاد الشَّام والسُّودان .

(٥٦) مؤسِّسو مصر الحديثة ، ص ٨٦

(٥٧) المرجع السَّابق ، ص ٩٧

الشّيخ محمّد عبده

من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام ، لا يهمنا تلخيص أفكاره في التّجديد والإصلاح ، والّذي يهمنا دوره في ثورة عرابي .

يذكر (الأعلام) : « ولما احتل الإنجليز مصر ناوأهم وشارك في مناصرة الثورة العرابية ، فسجن ثلاثة أشهر للتحقيق ، ونفي إلى بلاد الشام »[(٥٨)] .

لقد كان محمّد عبده ، مستشار الثّورة العرابيّة ، وما قامت الثورة إلا بإذنه وتوجيهه : « وفي أحد الأيام ، اجتمع الضباط في ثكنات عابدين ، وأقسموا يمين الولاء لمصر على المصحف الشريف ، الّذي كان يحمله محمد عبده ، وكفَّ الضباط عن الجدال معه ، وراحوا يستشيرونه في أمورهم »[(٥٩)] .

لقد أدى الشيخ محمد دوره كاملاً في ثورة عرابي ، وبخاصة حين أفتى مع إخوانه في الأزهر ، بخلع توفيق[(٦٠)] لتعاونه مع الإنجليز ، وفي هذه خطوة لا يقدر

---

(٥٨) الأعلام ١٣٠/٧ ، والشيخ محمد عبده بن حسن خير الله : [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] ، مفتي الدّيار المصريّة ، ومن كبار رجال الإصلاح والتّجديد في الإسلام ، ولما احتل الإنكليز مصر ناوأهم ، وشارك في مناصرة الثّورة العرابيّة ، فسجن ثلاثة أشهر للتّحقيق ، ونفي إلى بلاد الشّام سنة ١٢٩٩ هـ = ١٨٨١ م ، وسافر إلى باريس ، فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدّين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى) ، عاد إلى مصر سنة ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م ، وتولّى منصب القضاء ، ثمّ جعل مستشاراً في محكمة الاستئناف ، فمفتياً للدّيار المصريّة سنة ١٣١٧ هـ ، واستمر إلى أن توفي بالإسكندريّة ، ودفن في القاهرة .
له : (تفسير القرآن الكريم) لم يتمه ، و (رسالة التّوحيد) ، و (الرّدُّ على هانوتو) ، و (شرح نهج البلاغة) ، و (الإسلام والرّدُّ على منتقديه) ، و (الإسلام والنّصرانيّة مع العلم والمدنيّة) .. وغيرها ، وللسيد محمد رشيد رضا كتاب جمع فيه آثاره وأخباره ، وما قيل في رثائه سمّاه : (تاريخ الأُستاذ الإمام) في ثلاثة أجزاء كبيرة .

(٥٩) مؤسّسو مصر الحديثة ، ص ٤١

(٦٠) توفيق بن إسماعيل : [١٨٥٢ ـ ١٨٩٢ م] ، خديوي مصر : [١٨٧٩ ـ ١٨٩٢ م] ، ولد وتوفي في القاهرة .

عليها ، ولا يقدم عليها ، إلا صاحب عقيدة أحس واقعه وآلام شعبه ، وعرف أنّ بريطانية تكيد بحقد صليبي على شعب عربي مسلم .

☆ ☆ ☆

عبد الله النديم

عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحسني ، ولد في الإسكندرية (١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م) وأنشأ فيها الجمعية الخيرية الإسلامية ، أصدر جريدة (التنكيت والتبكيت) مدة ، واستعاض عنها بجريدة سماها (الطائف) أعلن بها جهاده الوطني ، وحدثت في أيامه الثورة العرابية ، فكان من كبار خطبائها فطلبته حكومة مصر ، فاستتر عشر سنين ، ثم قبض عليه سنة ١٣٠٩ هـ ، فحبس أياماً وأطلق على أن يخرج من مصر ، فبارحها إلى فلسطين ، وأقام في يافا نحو سنة ، وسمح له بالعودة إلى بلاده ، فعاد واستوطن القاهرة وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٣١٠ هـ . ونفاه الإنجليز ثانية إلى يافا ، ثم إلى الأستانة فاستخدم في ديوان المعارف ، واستمر إلى أن توفي فيها سنة ١٨٩٦ م[٦١] .

رحم الله عبد الله النديم ، لقد عاش منفياً معذباً ، ولكن في سبيل الله مالاقاه ، لقد دفعه دينه إلى استعمال قلمه ولسانه في سبيل خدمة أمته ، فسجل له التاريخ هذا الموقف الإسلامي المجيد في ثورة عرابي .



(٦١) الأعلام ٢٨١/٤

الشيخان حسن العدوي ومحمد عليش

« ثم جاءت الثَّورة العرابيَّة ، فكان قائدها أحمد عرابي المسلم الملتزم ، المحب لأهل البيت ، وكذلك كان أصحابه كما هو معروف من تاريخهم ، وكان في مجلس القيادة الأعلى الشيخان الجليلان المعروفان : الشيخ حسن العدوي ، والشيخ محمد عليش ، كان الأول من أقدر خطباء الثورة وأشهرهم ، وكان الثاني من أمهر كتابها وأقدرهم ، ثم انتهى الأمر بنفي الشيخ العدوي إلى بلدته حتى مات ، واعتقال الشيخ عليش حتى انتهى الأمر »[٦٢] .

وكان تلميذهما المجاهد الشيخ محمود أبو عليان الشاذلي البصيلي ، قد ملأ مصر دعوة وجهاداً[٦٣] .

« وكذلك كان من كبار الصوفية المسهمين في الثورة العرابية الشيخ محمد القاياتي ، والد المرحوم العارف بالله الشيخ عبد العظيم ، ومعه الشيخ أحمد القاياتي والد المرحوم الشيخ مصطفى عضو الوفد ، وغير متروك موقف السيد حسن العقاد ، الذي كان أوّل ثائر على ظلم الخديوي توفيق واستبداده ، فأوذي في نفسه وماله وأهله ، ونفي إلى السودان »[٦٤] .

« السيد علي الغاياتي صاحب (منبر الشرق) ، اشترك في كل كفاح وطني وديني من بعد الثورة العرابية ، وخرج من مصر متخفياً في سبيل حق وطنه ودينه ، فأقام بجنيف في سويسرة يصدر (منبر الشرق) بلغة الغرب ينافح عن

---

(٦٢) (المسلم) مجلّة العشيرة المحمّديّة ، السّنة ٦ ، العدد ٤ ، ذي القعدة ١٣٧٥ هـ ، ١٠ حزيران ١٩٥٦ م .

(٦٣) (المسلم) ، ذي الحجة ١٣٧٤ هـ ، ٢١ تموز ١٩٥٥ م ، ص : ٧

(٦٤) (المسلم) السّنة ٦ ، العدد ٤ ، ص ٧ و ٨

قضايا الوطن والعروبة والإسلام . وينفق من صحته وأعصابه ، وذات نفسه حتى عاد إلى القاهرة فأصدر (المنبر) ووهبه كل حياته وأمانيه »[٦٥] .

ولا يغرب عن البال الشيخ الجليل طنطاوي جوهري ، صاحب تفسير الجواهر ، الذي ناصر الحركة الوطنية ووضع كتاباً في (نهضة الأمة وحياتها)[٦٦] .





(٦٥) (المسلم) السّنة ٦ ، العدد ٧ ، غرّة صفر ١٣٧٦ هـ ، ٦ أيلول ١٩٥٦ م .

(٦٦) الأعلام ٣/٣٣٣

مصطفى كامل

١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م

« من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه » .

مصطفى كامل[٦٧]

يلقب المؤرخون (مصطفى كامل) باعث الحركة الوطنية ، فتبادر إلى الذهن معنى هذا اللقب الحالي كما نفهمه في عصرنا . والحقيقة التاريخية الثابتة ، أن الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل في مطلع هذا القرن كانت تعني بلا ريب : **« الالتزام الدِّيني »** .

هذا الكلام ، مع صدقه تاريخياً ، نـدلل عليه بمقتطفات من آثار مصطفى كامل .

جاء في خطابه إلى جلادستون[٦٨] (رئيس وزراء بريطانية) بشأن الجلاء بتاريخ ٢ يناير « كانون الثاني » ١٨٩٦ م : « وفضلاً عن ذلك فإنَّ تصريحاً منكم في مسألة مصر ، يكون له أعظم قيمة في هذه الأيَّام ، الَّتي يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين ، أنَّكم أكبر عدو رآه الإسلام ، وإني مع انتظاري الجواب على كتابي هذا ، أرجو منكم أيها السيد المبجل ، أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامي »[٦٩] .

---

(٦٧) مرجع هذا البحث كتاب : (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنيَّة) ، لعبد الرحمن الرَّافعي ، ط ٣ ، سنة ١٩٥٠ م ، والنَّص ص : ٤٩٣

(٦٨) وليم غلادستون Gladstone : [١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م] ، زعيم حزب الأحرار البريطاني .

(٦٩) مصطفى كامل ، ص : ٦٣

إن مصطفى كامل يتحدث باسم مسلمي مصر ، وسكان مصر **يرون في احتلال بريطانية لمصر عملاً موجهاً ضدّ الإسلام** : « يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين ، أنكم أكبر عدو رآه الإسلام » !!

وفي خطابه الثاني إلى جلادستون بشأن الجلاء بتاريخ ٢٧ فبراير « شباط » ١٨٩٦ م جاء ما يلي :

« ... هل مسلمو مصر أقل استحقاقاً لرعايتك العالية من مسيحيي الأرض ، أو هل أنت كما أشاعوا في بلاد الشرق عدو الإسلام ؟ ... ولقد قلت في خطبتك التي ألقيتها في شهر أغسطس (آب) الماضي : إنك لا تبغض المسلمين البتة ، فهاهم المسلمون يأتونك اليوم ، حيث جاءهم الدور يسألونك أن تدافع عن مصر »[(٧٠)] .

وفي خطابه الثالث إلى جلادستون ، بتاريخ ٢٨ سبتمبر « أيلول » ١٨٩٦ م ، قال مصطفى كامل : « اليوم أرى مع الأسف أنكم لا تميلون إلاَّ إلى المسيحيين من بني الإنسان ، أو ليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين ، في دعواكم المؤثرة ونداءكم القوي ؟ ... وإن اليوم الذي تدافعون فيه عن مصر ، تستميلون إليكم لا محالة كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن ، إنما هو تحيز للمسيحية ، ودفاع عنها ، لا عن الإنسانية »[(٧١)] .

وفي خطبته بالقاهرة بتاريخ ٢٣ ديسمبر « كانون الأول » ١٨٩٨ م ، بعنوان (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) ، دعا إلى قيام كل مصري بواجباته الوطنية ، وإلى نشر التعليم القومي ، وتربية النشء تربية وطنية دينية[(٧٢)] .

وفي خطبته بالقاهرة بتاريخ ١٨ ديسمبر « كانون الأول » ١٨٩٩ م ، دعا إلى

---

(٧٠) مصطفى كامل ، ص : ٦٥

(٧١) مصطفى كامل ، ص : ٧٦

(٧٢) مصطفى كامل ، ص : ١٢٩

تعميم التربية والتعليم ، وجعل الدِّين أساس التربية الصالحة[٧٣] .

ومما قاله في الرَّدِّ على حملات الصحف الأوربيَّة على الإسلام لمناسبة مقالات المسيو هانوتو[٧٤] :

« قد نطق بعض النَّاس أن الدِّين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكني أرى أنَّ الدِّين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرَّجل الَّذي يتمكن الدين من فؤاده ، يحب وطنه حباً صادقاً ، ويفديه بروحه وما تملك يداه ... »[٧٥] .

واستشهد بعد ذلك بالقول : « لو نزعتم العقيدة ـ الدِّين ـ من فؤادي لنزعتم محبة الوطن معها » ! .

ولما وقعت حادثة دِنْشَواي في ١٣ يونيه « حزيران » ١٩٠٦ م ، شرح مصطفى كامل القضية كما جرت بخطاب وجهه إلى الأُمَّة الإنجليزية والعالم المتمدن فقال : « ترك ضباط من الإنجليز في ١٣ يونيه الماضي معسكرهم بالقرب من دِنْشَواي بمدينة المنوفية ، وقصدوا صيد الحمام في الأملاك الخصوصية للأهالي ، فأنذر شيخ فلاح المرافق لهم بأن الأهالي قد استاؤوا في العام الماضي من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم ، وأنهم ربما ازدادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد في هذا العام !

وعلى الرغم من هذا الإنذار ، فإن الضباط أخذوا يصطادون وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة[٧٦] ، وحرق جرن فاجتمع الفلاحون من كل مكان ، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من

---

(٧٣) مصطفى كامل ، ص : ١٤٢

(٧٤) وزير خارجيَّة فرنسة منذ مئة سنة تقريباً .

(٧٥) مصطفى كامل ، ص ١٤٦ و ١٤٧

(٧٦) المرأة اسمها : أُمُّ محمَّد ، زوجة محمد عبد النَّبي ، مؤذِّن القرية .

المصريين ، وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز ، وقد تخلص أحد المجروحين وهو الكابتن « بول » من المعركة وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات ، حيث كانت حرارة الشمس بالغة اثنتين وأربعين درجة ، وسقط بعد ذلك ميتاً بضربة الشمس ! وما أن علم العساكر الإنكليز بما وقع لضباطهم ، حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي ، وقتلوا فلاحاً بدق رأسه » .

وفي يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين[٧٧] ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس لمدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ... » .

هذه الحادثة استغلتها الحكومة البريطانية وأظهرتها على أنها تعصب إسلامي ضدّ الجنود البريطانيين المسيحيين ، فقام السير إدوارد جراي (وزير خارجية إنجلترة وقتئذ) ، في مجلس العموم البريطاني وتكلم عن التعصب الإسلامي في مصر ، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ، ألا يشتغلوا بمسائل مصر ، ويتركوا الأمر إلى اللورد كرومر .

ولكن مصطفى كامل قال موضحاً باسم مسلمي مصر : « وإني أؤكد بحق أقدس شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر ، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى ، ولكن الإسلام شيء ، والتعصب شيء آخر ، لقد انخدع السير ادوارد جراي في هذه المسألة ! وإني أرجوه أن يفكر لحظة فيا

(٧٧) مع أن أطباء الإنكليز ، ومن بينهم الدكتور (نولن) الطّبيب الشّرعي ، اعترفوا بأنّ الكابتن (بول) مات بضربة شمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة ، ومما يذكر أن صحيفة (المُقَطَّم) نشرت في ١٨ يونيه (حزيران) ١٩٠٦ م ، قبل أن ينتهي التّحقيق ، أنّ الأوامر صدرت بإعداد المشانق وإرسالها إلى مكان الواقعة ، فدهش الجمهور لهذا النّبأ الّذي يحمل (العدالة المزعومة) بين طيّاته ، (مصطفى كامل ص ١٩٩) .

يـأتي : هل كان في مصر تعصب حقيقـة ؟ أكانت تستطيـع إنجلترة أن تحـاكم اثنين وخمسين مسلماً أمـام محكمـة استثنـائيـة مؤلفـة من أربعـة قضـاة مسيحيين وواحـد مسلم ؟ »[٧٨] .

لقد أوضح مصطفى كامل تمسك الشعب بإسلامه ، ولا يعاب عليه تعـاطفـه مـع الشعـوب الإسـلاميـة الأخرى ، فهـذا أمر طبيعي في كل عقيـدة ، أن يفرح أبناؤها معاً ، ويتألم أبنـاؤهـا معـاً ، وليس التعـاطف تعصبـاً : (إن عطفنـا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعي ولا تعصب فيه)[٧٩] .

فمصطفى كامل مسلم يتحدث باسم المسلمين ، يغار عليهم ، ويتعـاطف معهم بشكل طبيعي ، فوطنيته التزام ديني وحب للوطن .

ولمـا استقـال اللـورد كرومر بسبب نتـائـج (دِنْشَـواي) ، وبسبب نجـاح مصطفى كامـل في إثـارة الرأي العـام ضـده ، كتب مصطفى كامـل في عـدد ١٢ إبريل « نيسـان » ١٩٠٧ م من (اللـواء) يعيب على كرومر حرمـانـه الفقراء من التعليم في مدارس الحكومـة ، ومحـاربـة اللغـة العربيـة وذكّر الشعب أنـه الطـاعن بـالـدين الإسلامي في تقـاريره ذلـك الطعن الـذي هـاجت لـه عـواطف المسلمين والمسيحيين أيضاً[٨٠] .

فهو يعيب على كرومر تهجمه على الدين الإسلامي دين الأكثرية السـاحقـة بمصر ، ويذكر المصريين بذلك ، ليذهب إلى بلاده غير مأسوف عليه .

---

(٧٨) في ٢٠ يونية (حزيران) ١٩٠٦ م ، شكّل وزير الحقّـانيّـة بـالوكالـة ، بطرس بـاشـا غـالي قراراً بتشكيل المحكمة ، لمحاكمة المتّهمين برئاسة بطرس بـاشـا غـالي ذاتـه رئيسـاً ، وعضويّـة المستر هيتر نائب المستشار القضائي ، والمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الأهليّة ، والقائمقام لادلو ، وأحمد فتحي زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائيّة !!

(٧٩) مصطفى كامل ، ص : ٢١١

(٨٠) مصطفى كامل ، ص : ٢٣٧

ويبدو اتجاهه الإسلامي ، وحبه لتقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية من إصداره جريدة أسبوعية باسم : (العالم الإسلامي) عام ١٩٠٥ م ، كان ينشر بها كل ما يهمّ الإسلام من المقالات والأنباء[٨١] . وبخاصة ما تكتب الصحف والمجلات العالمية عن العالم الإسلامي[٨٢] .

إن ما سبق من مقتطفات ، تدل دون شك على معنى الوطنية الّذي حمله مصطفى كامل ، وهو لا يخلط بين الإسلام والوطنية ، ويكره أن يعاب عليه تمسكه بإسلامه ودعوته إلى تضامن إسلامي في إطار (جامعة إسلامية) . فهو يقول في ردّ تهمة التّعصب الديني :

« قال أعداؤنا أيضاً : إننا نخلط الإسلام بالوطنية ، ونتكلم دائماً عن المسلمين ، ونطلب إدخال الدّين في التعليم ، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم[٨٣] .

فكيف لا تكون إنجلترة وألمانية متعصّبَتَيْن ، وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الديني في مدارسها ونتهم نحن بالتعصب الديني ؟ لماذا يكون الإنجليزي وطنياً بروتستانتياً في آن واحد ، ولا يكون المصري المسلم وطنياً ومسلماً ؟ ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحبته ؟

---

(٨١) مصطفى كامل ، ص : ٤٢٣

(٨٢) مصطفى كامل ، ص : ١٤٥

(٨٣) وهكذا نرى أن كُلّ حركة إصلاح أو تحرر إسلاميّة تقوم ، توصم بالتّعصُّب ، لماذا ؟ لأنّ التّعصُّب يعمي عيون الصّليبيّة الأوربيّة . وصف (فِشَر) في كتابه : (تاريخ أوربة في العصر الحديث) ، ص ٤١٤ ، حركة محمد أحمد المهدي في السُّودان ، بأنّها حركة من تلك الحركات « الشّرسة من التّعصُّب الدّيني العنيف ، الّذي يروج بين آونة وأخرى في العالم الإسلامي » ، هكذا يكتب التّاريخ : حركة تحرُّر السُّودان من الاستعمار البريطاني تعصُّب ديني ، وبقاء الاستعمار على أرض الوطن : تسامح ديني !؟! وتحرُّر مصر تعصُّب ديني ، وعدم التّحرُّر تسامح ديني !؟!، هكذا كتبوا تاريخنا ، فهل نردّد نحن ما يقولون كالببغاوات ؟؟!!

إلا أن الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها أنّ **الوطنية والدّين يتفقان** ، بل وقد يكونان متلازمين .

نحن إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية ، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التي راجت بين العامة باسم الدّين قلبت حقيقة هذا الدين ، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب إليه والدين منه براء .

لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه .

على أن بثّ الحقيقة الإسلامية بين المسلمين ، من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ، ولا نفرة مع نور ورشاد ، فمن معرفة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته »[٨٤] .

هذا هو مصطفى كامل من خلال كلماته وخطبه ورسائله ... لن نعلق عليها ، وندع الحقيقة تفرض نفسها على كل منصف .

لذلك ... عندما شكل مصطفى كامل (الحزب الوطني) ، كان أكثر مشاهيره من أهل البيت ، ومن خواص المسلمين الفاقهين[٨٥] .

☆ ☆ ☆

---

(٨٤) المقتطفات السّابقة ، ص : ٤٩٢ و ٤٩٣ من (مصطفى كامل) .

(٨٥) (المسلم) ، مجلّة العشيرة المحمّديّة ، العدد ٤ ، السّنة ٦ ، ذي القعدة ١٣٧٥ هـ ، ١٠ يونية (حزيران) ١٩٥٦ م .

سعد زغلول

« ١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ / ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م » : سعد بن إبراهيم زغلول ، توفي أبوه وهو في الخامسة ، فتعلم في كتاب القرية ، ودخل الأزهر سنة ١٢٩٠ هـ ، فمكث نحو أربع سنوات ، واتصل بالشيخ جمال الدين الأفغاني ، فلازمه مُدَّة ، واشتغل في جريدة (الوقائع) المصرية مع الإمام الشيخ محمد عبده سنة ١٢٩٨ هـ . ولما نشبت ثورة عرابي كان ممَّن اشتركوا فيها[٨٦] .

انفرد بقيادة الحركة الوطنية وتنظيمها ما بين سنتي ١٩١٩ م و ١٩٢٧ م ، فكان رجل مصر ، ولسانها وموضع ثقتها ، وقبلة أنظارها ، وعمل المحتلون البريطانيون على إبعاد الجمهور المصري عنه ، ففشلوا ، وهو أول سياسي هدَّد الإنكليز بتزعم مصر للعالم العربي الإسلامي فقال : « إنَّ مصر تملك زراً كهربائياً ، إذا ضغطت عليه لبتها بلاد العروبة جميعاً » .

ألف في شبابه كتاباً في « فقه الشافعية » وهو مطبوع .

فإيمان سعد دفعه للعمل والسعي للجلاء واستقلال مصر .

☆ ☆ ☆

طال بنا الحديث عن دور الإسلام في حركة التحرر في مصر ، ونختم الحقائق التاريخية السابقة ببعض المواقف الخالدة لعلماء الأزهر :

مصطفى لطفي المنفلوطي : القائل في حق الاحتلال الإنجليزي لبلاده مصر :

ألا رايــة للعــدلِ في مصرَ تَخْفِـقُ   لعـل مسـاعي دولـة الظُّلم تُخْفِـقُ

(٨٦) الأعلام ١٣١/٣

وفي أثناء دراسته في الأزهر ، هجا الخديوي عباس حلمي ، بقصيدة نشرت بإحدى الصحف الأسبوعية ، فحكم عليه من أجلها بالحبس ، وقضى في السجن مدة العقوبة ، وقد دفعته روح الكفاح إلى أن يكتب في صحف عصره مقالات عديدة ، تدل على تأثره بأسلوب وطريقة أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده .

وانضم المنفلوطي إلى سعد زغلول ، وانخرط بحزب الوفد بزعامة سعد . وهو أيضاً تلميذ من تلاميذ الأفغاني ...

لقد انخرط المنفلوطي الأزهري ، المعتنق لفكرة الإصلاح ، كما جاء فيها الأفغاني وتلميذه محمد عبده ، في السياسة بمعناها في ذلك العصر ، ألا وهي العمل بكل الطاقات لتحقيق الاستقلال والجلاء ، وطرد الاستعمار البريطاني من مصر .

رحمه الله ، توفي في ١٢ تموز ١٩٢٤ م قبل أن يرى حلمه يتحقق .

نعود قليلاً إلى العالم الأزهري (**عبد الرحمن الجبرتي**) ، الّذي أرّخ لنا فترة الحملة الفرنسية وما بعدها . الجبرتي أول من سجل على محمد علي باشا نوائبه ، وأحصى عليه أخطاءه ونواقصه ، فأخذ يتنقل بين المدن والقرى فاراً من عذاب أليم يتهدده ، وقد تعرضت أسرته للاغتيال والحبس والإهانة ، وظل المؤرخ الكبير يخط للأجيال المقبلة كلمة سافرة حميدة ، دون أن يقعد به تحرش أو إرهاب ، وقد اختلفت الآراء في خاتمة حياته ، وأرجحها أنه لقي مصرعه مستشهداً في سبيل الرأي الصريح[٨٧] .

حسن العدوي : مرَّ ذكره في الثورة العرابية ، وهو عالم أزهري ، شهد له الزعيم المسلم أحمد عرابي في مذكراته السياسية ، شهادة تزن ما على الأرض من ثروة ومتاع ! فقد كان وزملاءه الأزهريين ، في طليعة رجال المؤتمر الوطني ، الّذي

(٨٧) علماء في وجه الطُّغيان ، ص ١٥٥ ، عن (العدالة الاجتماعيَّة في الإسلام) ، ص : ١٦٨

أصدر قراره التاريخي بعزل توفيق ، وتكليف الزعيم أحمد عرابي بالدفاع عن الوطن ، بعد أن قرئت على المجتمعين فتوى أزهرية إسلامية ، بمروق الخديوي وخيانته فكان لها أكبر الأثر في هيجان الشعور المصري ضدّ الحاكم الخائن .

وحين انتهت الثورة إلى خاتمتها الأليمة(٨٨) ، تقدم الشيخ العدوي إلى المحاكمة بجنان ثابت ووقار مهيب ، فسأله الرئيس : هل أفتيت بعزل جناب الخديوي ؟ فأجاب من فوره : لم تصدر مني فتوى بذلك ومع هذا ، فإذا تقدمتم إليَّ بمنشور يتضمن هذه الفتوى فسأوقعه ، وما في وسعكم وأنتم مسلمون ، أن تنكروا أن الخديوي يستحق العزل ، لمروقه عن الوطن والدِّين ! يقول هذا وقد شحذ الباطل أسنته وحرابه لينكل بالأحرار الباسلين ، فتتضاءل في تقديره كلُّ عقوبة ظالمة تتخيلها الأذهان ، ويرفع هامته في ساحة المحاكمة عالية شماء !

هذا العالم الأزهري الورع طلب منه في أثناء زيارة السلطان عبد العزيز(٨٩) لمصر ، ضيفاً على إسماعيل ، أن يقوم بتقليد رسمي كَريه ، فينحني إلى الأرض ثلاث مرات ، يأخذ فيها السلام إلى رأسه ، ثم إلى فمه ، ثم إلى صدره ، ويخرج موجهاً صدره إلى السلطان . ولكنه دخل مرفوع الرأس قائلاً : السَّلام عليكم ، ثم ابتدره بالنَّصيحة ، ودعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه ، وهاج الخديوي . واضطرم الغيظ في صدره ، ولكن السلطان يعجب بما يرى ، ويخلع على الشيخ العدوي حلة ثمينة ويقول للحاضرين : « ليس لديكم عالم سواه »(٩٠) .

وهناك العالم الجليل (**حسن الطويل**) العالم الأزهري ، فقد كان من عزَّة النَّفس ، والثقة بالله ، على جانب رفيع ممتاز ، دخل عليه رياض باشا وهو يدرس طلابه بدار العلوم ، فما غير موقفه ، أو بدل جلسته ، وحين هم الزائر

(٨٨) « إنَّ من جاهد جهاداً شريفاً في سبيل غاية شريفة ، لا يُعَدُّ فاشلاً إن أخفق » .

(٨٩) السُّلطان عبد العزيز : [١٨٣٠ ـ ١٨٧٦ م] ، تولَّى الحكم سنة ١٨٦١ م .

(٩٠) علماء في وجه الطُّغيان ، ص : ١٥٥ ، عن (العدالة الاجتماعيَّة في الإسلام) ، ص : ١٦٨

بالخروج ، قال له الأستاذ الشيخ : لماذا لاأكون وزيراً معكم يا باشا ؟ فدهش الزائر وقال : أي وزارة تريد ؟ فقال : وزارة المالية لأستبيح من أموالها ماتستبيحون[٩١] !! وكانت لطمة قوية أليمة توجه إلى حاكم ظالم أرستقراطي لم يألف في حياته التهكم والاستخفاف !!

الشيخ النَّواوي ، شيخ الجامع الأزهر ، « أرادت حكومة مصطفى فهمي أن **تضعف القضاء الشرعي إجابة لرغبة المعتمد البريطاني** ، فدعت إلى تعديل اللائحة الشَّرعية مستندة إلى نفوذ المستعمر ، ولكن الشيخ النَّواوي يحمل على المشروع بكلمة موجزة ، فتطير في الأُمَّة كل مطير ، ويتأهب الكتاب لنقده نقداً جارحاً ، فتتخاذل الحكومة وتؤثر الانسحاب بمشروعها الخطير »[٩٢] .

وأخيراً ... تعالوا بنا إلى العهد القريب لتعلموا ماصنع مفتي الديار المصرية السابق الشيخ **محمد بخيت المطيعي** رحمه الله ، فقد لطم الاستعمار لطمة قاسية ، حين أصدر فتوى دينية وطنية في مقاطعة الإنكليز ، فسرت مسرى النار في الهشيم ، وبددت مانسج من الأحلام والأمنيات ، ولقد كان الشيخ بخيت أكبر مفت للإسلام في عصره ، ورفض ثروة مغرية قُدِّمت إليه حين أصدر فتوى إسلامية في وقف من الأوقاف قائلاً كلمته الجليلة : « العلم في الإسلام لا يباع » ، ولعمري إن هذه الجملة الصغيرة على إيجازها العجيب ، قانون إسلامي خالد ، يجب أن يتردد ويذاع ليؤمن به المسلمون ويعملوا به .

هذه بعض المواقف الرَّائعة في تاريخ الأزهر ، ومن المؤسف أن يتعاون المأجورون على طمسها وإخفائها[٩٣] .

---

(٩١) عن (أخلاق العلماء) للأستاذ محمد سليمان ، ص : ١٨١

(٩٢) علماء في وجه الطُّغيان ، ص : ١١٦ ، عن مجلة (الرِّسالة) ص : ١١٦٣ ، السَّنة ١٥ ، نقلاً عن فضيلة الأُستاذ فرج السَّنهوري .

(٩٣) علماء في وجه الطُّغيان ، ص : ١١٧ و ١١٨

وبعـد ... ألا تغني الحقـائق التـاريخيـة عن التعليق ؟ ألا تغني الأحـداث كما حدثت ، عن (تحليل علمي) نلفّق به الوثائق ونحرفهـا حسب الأهواء ؟ ألا تغني سيرة هؤلاء الرجـال بـدءاً بعمر مكرم ، والشيـخ محمـد السـادات ، ومروراً بـأحمـد عرابي ، والإمام محمد عبده ، وعبد الله النَّديم ، والشيخ العدوي ، والشيخ عليش ، ومصطفى كامل ، والشيخ حسن الطويل ، والشيخ النَّواوي ، والشيخ محمـد بخيت المطيعي .. ألا تغني سير هؤلاء عن التعليق لإظهار دور الإسلام في حركـة التَّحرر بمصر ؟

ولكن نقول : ضـاعف الله أجر وثـواب مئـات من العلمـاء الأحرار ، الَّـذين جـاهـدوا واستشهـدوا دون أن يـدوّن التَّـاريخ أسماءهم !! أنت أعلم بهم يـا رب ، وحسبهم شرفاً رضاك في جنة الخلد ..

☆ ☆ ☆



الجَـزَائِرُ

« بالإسلام قاومنا ، وبه انتصرنا »[1] .

مولود قاسم

الاحتلال :

فقدت فرنسة مستعمراتها إبّان حروب الثورة ونابليون ، وتنازلت لإنجلترة عن بعضها نهائياً سنة ١٨١٥ م. لذلك يجمع مؤرخو فرنسة على أن الاستيلاء على الجزائر ، يعد نقطة بداية لإحياء السّياسة التّوسعيّة ، وتأسيس إمبراطورية استعمارية ثانية .

والسبب الحقيقي للنزاع الفرنسي ـ الجزائري ، هو استمرار التّعصب الدّيني ، وبعث ذكريات عهد القراصنة والجهاد في البحر ، كلما وقع حادث ولو بسيطاً من بحارة الجزائر ، ضدّ أي دولة أُوربيّة .

« وبينما كانت الجزائر تتزعم دول المغرب في هذا الصّراع ، كانت فرنسة تشعر أنّها زعيمة الدول الكاثوليكية في المتوسط ، وقد تأكد هذا الاتجاه في عهد شارل العاشر [١٨٢٤ ـ ١٨٣٠ م] ، وهو معروف بتأييده المطلق لحزب الكنيسة ، ولهذا الدّافع الدّيني شواهد عدة : منها أن فريق الوزراء الذين تحمسوا لفكرة الاحتلال ، كانوا في الغالب من الحزب اليميني ، فمثلاً عندما انقسم مجلس الوزراء على نفسه سنة ١٨١٢ م بخصوص أهداف الحصار ، دافع كليرمون دي تونير وزير الحربية عن وجهة النظر اليمينيّة في الاحتلال في تقرير ننقل منه الفقرة التالية :

---

(١) انظر مجلّة (الجيش) الجزائريّة ، العدد ١٠٢ ، السّنة التّاسعة ، رجب ١٣٩٢ هـ ، أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ م ، في ص : ٦ وما بعدها ، حيث حديث وزير التّعليم الأهلي والشؤون الدّينيّة ، الأخ (مولود قاسم) ، بمناسبة انعقاد الملتقى السّادس ، للتّعرُّف على الفكر الإسلامي ، بنادي (الصّنوبر) بمدينة الجزائر .

« لقد أرادت العناية الإلهية ، أن تثار حمية جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم على يد ألدّ أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب المصادفة ، أن يُدعى ابن لويس التّقي ، لكي ينتقم للدين وللإنسانية ، ولإهانته الشخصية في نفس الوقت . وربما يسعدنا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدنية بين السكان الأصليين **وندخلهم في النَّصرانيَّة** » . وعندما أقام بورمون قائد الحملة صلاة الشكر في فناء القصبة بمناسبة الانتصار ، بعث بوصف لهذا الاحتفال قال في نهايته : « مولاي ، لقد فتحت بهذا العمل باباً للمسيحية على شاطئ إفريقية ، ورجاؤنا أن يكون هذا العمل بداية لازدهار الحضارة التي اندثرت في تلك البلاد » . ولم يخف المؤرخون المعاصرون هذه الحقيقة ، فوصف إدوار دريو المؤرخ الفرنسي المعروف بدراساته عن الشرق حادث الاستيلاء على الجزائر ، « **بأنَّه كان أوَّل إسفين دُقَّ في ظهر الإسلام** »[٢] .

وفي عام ١٨١٥ م أرسلت فرنسة « بيير ديفال » قنصلاً إلى الجزائر ، يحمل معه تسوية مسألة الدُّيون المترتبة على فرنسة للجزائر ، مقابل صفقات القمح الجزائري . وتمَّ الاتفاق على تخفيض الدُّيون الفرنسية من أربعة وعشرين مليون إلى سبعة مليون فرنك . وقبل الدَّاي[٣] وطلب من فرنسة عدم التدخل بينه وبين الوسطاء بعد سداد ديونها ، مقابل تعهده بتسوية جميع مطالبهم . وأرسل في آب « أغسطس » ١٨٢٦ م عرضاً بذلك إلى فرنسة . ولكنه لم يتلق جواباً ، وإنما أرسلت فرنسة تعليمات إلى قنصلها « ديفال » لإبلاغ الدَّاي شفهياً بأن الإجراءات الفرنسية معقدة ويجب عليه الانتظار ، فكان هذا سبباً لإثارة الداي حسين باشا ، فطلب من « داماس » وزير خارجية فرنسة سحب القنصل الفرنسي من الجزائر .

---

(٢) المغرب العربي ، د . صلاح عقاد ، ص : ٨٦ ، والجزائر أرض المعارك ، د . بهي الدّين زيان ، ص : ٥٤ و ٥٥

(٣) الدَّاي : لقب (عثماني) لحاكم الجزائر .

« وفي هذه الأثناء ، وقع حادث آخر زاد من حدة التوتر ، وهو اشتباك بين السفن الجزائرية وبعض سفن البابا الَّتي وقعت في أسرها »[٤] .

وبينما كان الداي يتوقع ردَّ وزير خارجية فرنسة على طلب سحب ديفال ، إذ بسفينة احتجاج تصل إلى شواطئ الجزائر ، ويأتي ردُّ الوزير مطالباً بردّ مسلوبات سفن البابا ، والتعهد بعدم التعدي في المستقبل ، وأتبعت فرنسة الخطاب ببعض السفن الحربية ، لتهديد الجزائر وإلزام الدَّاي بالتَّعويض ، فكأن فكرة استخدام القوة قد سبقت حادثة لطمة المروحة .

صدر الأمر في أوائل نيسان (أبريل) ١٨٢٧ م إلى قاعدة (طولون) البحرية بإرسال أربع سفن حربية إلى الجزائر ، ويبدو أن (ديفال) قد تلقى الرسالة الخاصة بتحرك السفن في أواخر هذا الشهر ، وعلم الدَّاي بتلقيه رسالة من حكومته ، فظن أنها تتعلق بالدَّين . ولم يكن باستطاعة القنصل ، أن يبرز الرسالة قبل وصول القطع البحرية ، وفي هذا الجوِّ تمت المقابلة التاريخية ، بين (ديفال) والداي حسين باشا ، في ٣٠ أبريل « نيسان » سنة ١٨٢٧ م ، وسنورد فيما يلي ملخصاً للحوار الذي دار بين الرجلين حسب رواية (ديفال) :

بدأ الدَّاي بالسؤال عن صحة الأنباء بوقوع حرب بين إنجلترة وفرنسة بسبب البرتغال ، فأجاب ديفال بالنَّفي ، قائلاً : « بأن حكومته لن تتدخل بشؤون البرتغال » .

- أهكذا تعطي فرنسة لإنجلترة كلَّ ماتشاء ، ولا تعطيني شيئاً ؟

- سيدي أعتقد أن حكومة جلالته أعطتك دائماً كلَّ ماأردت .

- لماذا إذن لم يرد عليَّ وزيرُ الخارجية ؟

---

(٤) المغرب العربي ، ص : ٨٨

ـ لقد حملت إليك ردَّه الشفوي بمجرد أن تلقيته .

ـ ولكن لماذا لم يكتب إليّ مباشرة ؟ هل أنا شخص تافه ، أم أنا رجل حافي القدمين ؟ إنك أنت الذي تسبَّبت في عدم الرَّد ، لأنك وشيت بي عند حكومتك ، أنت شرير كافر .

ـ إن حكومتي لن تكتب إليك أبداً .

حينئذ نَهَر الدَّاي القنصلَ طالباً منه الخروج ، وأشاح بمروحة كانت في يده ، فمست وجه القنصل .

وتختلف المصادر الجزائرية اختلافاً أساسياً عن تقرير (ديفال) ، وترميه بتزييف الحقائق ، بسبب بغضه الشَّخصي للدَّاي ، فقد نفى الدَّاي في رسائله بعد ذلك للحكومة الفرنسية واقعة الضربة ، وأن الأمر لم يتجاوز التهديد بالكلام »[(٥)] .

وهكذا تعللت فرنسة بالحادثة ، وحاصرت سفنها الشواطئ الجزائرية ، وطلب القائد الفرنسي ، صعود وزير البحرية الجزائري إلى السفن الفرنسية ، لتقديم الاعتذار ، وإعادة مسلوبات السفن البابوية ، والاعتراف لفرنسة بحقّ الدولة الأولى بالرعاية في الجزائر ، وأخيراً ولعله الأهم ، هو تخلي الدَّاي عما له من ديون .

وفي ٣٠ يناير « كانون الثاني » ١٨٣٠ م اتخذ مجلس الوزراء في باريس ، إرسال حملة برية لتفرض شروط فرنسة على الجزائر ، إذا استمر الدَّاي في موقفه العنيد ، وكان قد مضى على ضرب الحصار أكثر من سنتين ونصف .

وفي ١٢ مايو « أيار » ١٨٣٠ م أوضح (مارتيناك) رئيس الوزراء الفرنسي ، هدفَ الحملة بنقطتين :

---

(٥) المرجع السَّابق ، ص : ٩١ ، ونصُّ المقابلة عن : Esquen chap. 3 .

١ ـ الثأر للكرامة الفرنسية وحماية مصالح المؤسسات الفرنسيَّة .

٢ ـ إذا سقطت حكومة الدَّاي ، فإن فرنسة مستعدة لدعوة حلفائها ، لعقد مؤتمر دولي ، يناقش الوضع الجديد الذي يمكن إقامته في الجزائر **لخير المسيحيَّة جمعاء .**

خرجت الحملة من قاعدة طولون البحرية في ٢٥ مايو « أيار » ١٨٣٠ م ، وقد ضمت سبعة وثلاثين ألف مقاتل ، علاوة على عشرين ألفاً من رجال البحرية وكان الأسطول يتألف من أكثر من مئة سفينة حربيَّة ، بالإضافة إلى عدد أكبر من السفن التي استؤجرت للمساعدة . وقد عين الأميرال (دي بيريه) قائداً للأسطول ، ولكن التعليمات تقضي بخضوعه (لبورمون) القائد العام في حالة الخلاف .

لم تنجح مقاومة الدَّاي ، خصوصاً أنه لم يلقَ الفرنسيين عند النزول إلى البر ، بل انتظرهم في الحصون الَّتي تحمي مدينة الجزائر ، اعتقاداً بأنها لا تقهر .

سقطت حصون المدينة ، وأُمليت على الدَّاي شروط التَّسليم . وفي صباح ٥ تموز « يوليو » ١٨٣٠ م ، دخلت القواتُ الفرنسيَّة المدينةَ العتيدة ، **ولم يراع البند الخاص باحترام الشَّعائر الدِّينيَّة كما نصَّت المعاهدة ، حينما حوَّل الفرنسيون المسجد الكبير إلى كتدرائية .**

وهكذا انتهى عهد النيابة العثمانية ، الَّتي عاشت نحو ثلاثة قرون ، تشهد بقوة المسلمين في الحوض الغربي من البحر المتوسط[٦] .

لقد تمَّ الاحتلال الفرنسي الصَّليبي للجزائر ، فَمَنْ للمقاومة والتَّحرير ؟!

---

(٦) المرجع السَّابق ، ص : ١٠٣

وَمَنْ لتثبيت الشَّخصيَّة العربيَّة الإسلاميَّة ، وعدم انصهارها بالفَرْنَسَةِ والاندماج ؟!

قبل أن نتكلم عن **المقاومة** ، **الَّتي وقعت كلُّها على عاتق الإسلام** نتساءل : ماهي سياسة فرنسة بعد الاحتلال ؟!

« كان الاستعمار الفرنسي في الجزائر بدعاً في تاريخ الاستعمار كلِّه ، إذ جاءت فرنسا تقول : إنَّ أُمَّة[7] عربية إسلامية جزء منها ، وإنَّ أرضاً عربية إسلامية في إفريقية جزء من فرنسة الأوربية .. وسارت فرنسة على هذه السياسة الَّتي أعلنتها ، وهي إدماج الجزائر فيها ، والاستيلاء على أرض الجزائر ، وهدم الدين الإسلامي ، وكانت القوة هي السبيل لتحقيق هذه الأشياء جميعاً »[8] .

الدِّين الإسلامي هدف كبير أمام الفرنسيين ، إذ كان الاستعمار الفرنسي استعماراً صليبياً ، كما أعلنوا ، ومن ثمة كانت **أُولى أعمالهم هدم المساجد الأثرية الرائعة وتحويلها إلى كنائس** ... وقف الجنرال روفيجو يشير إلى الفرنسيين باختيار مسجد من مساجد الجزائر ليصير كنيسة ، فأشاروا عليه بجامع « القشاوة » وهو من أجمل مساجد البلاد وأروعها ، وكان في المسجد أربعة آلاف مسلم ، هجم عليهم الفرنسيون وذبحوهم عن آخرهم وهم يعتصمون ببيت من بيوت الله ، وفي ١٨ كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨٣٢ م ، كان المسجد كاتدرائية الجزائر ! .. ولقد حوَّلوا غير هذا المسجد مساجد أخرى كنائس ، مثل مسجد « القَصَبَة » وهو من المساجد الَّتي ترتبط بها ذكريات إسلامية مجيدة ، وهكذا تفعل الصَّليبيَّة العمياء !

---

(٧) كثيراً ماكانت تستعمل كلمة (أُمَّة) في الشَّمال الإفريقي بدل كلمة (شعب) ، وسيتكرَّر معنا ذلك في هذا البحث .

(٨) الجزائر أرض المعارك ، د . بهي الدِّين زيان ، ص : ٤٩

وفي خلال هذه الحملة الصَّليبيَّة على أماكن العبادة الإسلامية ، قام أحد القسس المسيحيين ، وهو القس (شوسيه) يتزعم هذه الحملة الباغية ويسرف على نفسه وعلى المسيحية ، فيكتب إلى ملك فرنسة عام ١٨٣٩ م منوهاً بأعمال الحاكم الفرنسي الصليبي[٩] .

إنَّه يريد أن يضاعف عدد الصُّلبان والكنائس بالجزائر ، إن مولاي لا يستطيع أن يفعل ما يشاء ، مع رجل مثل المسيو فاليه ، الذي اختار أجمل مسجد في قسنطينة ، ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة ، وكانت مكافأة هذا القس الصليبي ، أن يصير أول راع لهذه الكنيسة ، الَّتي قامت على أنقاض مسجد من مساجد المسلمين !

ويبلغ الحمق والحقد حداً كبيراً بأحد الفرنسيين ، وهو سكرتير الحاكم (بوجو) فيقول في الكنيسة التي قامت وسط دماء أربعة آلاف شهيد مسلم : « إنَّ آخر أيَّام الإسلام قد دنت ، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسة ، فلا يمكننا أن نشك في أنَّها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسة إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً ! » .

« ومن أجل هذه الصَّليبيَّة في بلد إسلامي ، بذل المبشرون جهوداً كبيرة وشجعت الإدارة الفرنسية بناء المعابد اليهودية والكنائس المسيحية حتى صار في الجزائر ٣٢٧ كنيسة للمسيحيين ، ٤٥ معبداً لليهود بجانب ١٦٦ مسجداً للمسلمين ليس غير ! » .

وفي مجال التعليم ، فقد كان الاحتلال الفرنسي قاضياً على نهضة البلاد في هذه الناحية ، فقد حرم أهل البلاد من الثقافة والتعليم ، فلا تعليم ولا مدارس ،

---

(٩) المرجع السَّابق ، ص : ٧٤

بل محاربة للغة العربية ، وإنشاء المدارس للتبشير ، ولقد بلغت نسبة التَّعليم بين أبناء المسيحيين ١٠٠ ٪ ، بينما بلغت هذه النسبة بين أبناء المسلمين ١٠ ٪ ، وتشرد مليونان وأربعمئة ألف طفل من أبناء المسلمين في الشَّوارع والطُّرقات ، يعمل أكثرهم ماسح أحذية ، أو حمالاً ، أو بائعاً جوالاً .. ويكفينا القول إنَّه في آذار « مارس » ١٨٣٨ م أصدر الفرنسيون قانوناً جعلوا به اللغة العربية لغة أجنبية ! .

« هذه الصورة لبعض مافعل الاستعمار الصليبي في أرض الجزائر ، الَّتي ادعى الفرنسيون أنَّهم جاؤوا لينشروا فيها مدنيَّتهم ... وهي صورة دالة على قبح ما يصنع الاستعمار في الأرض الَّتي يحتلها ، وعلى جرائم الاستعمار في البلاد الَّتي يدنسها ... ولكن أهل الجزائر .. أحفاد الأبطال الذين بنوا دعائم المجتمع العربي الإسلامي ، كان لابد لهم من أن يلقنوا الفرنسيين أعداء الحرية دروساً ، وأن يردوا عليهم أعمالهم » .

فإلى أبطال المقاومة .

☆ ☆ ☆



الأمير عبد القادر الجزائري

« لا يوجد الآن أحد في العالم يستحق أن يلقب بالأكبر إلاَّ ثلاثة أشخاص كلهم مسلمون ، وهم : الأمير عبد القادر ، ومحمد علي باشا ، والشيخ شامل » .

المارشال الفرنسي (سوليت) ١٨٤٠ م

عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري ، مولده في قرية القيطنة ، من قرى إيالة وهران ، في ٢٣ رجب ١٢٢٢ هـ / أيار ١٨٠٧ م . وتعلم في وهران وحجَّ مع أبيه سنة ١٢٤١ هـ ، فزار المدينة المنورة ودمشق وبغداد(١٠) .

ولما دق ناقوس الخطر يهدد الجزائر المسلمة كلَّها ، فكر أهالي الإيالة الوهرانية وعلماؤها في الأمر ، وتداولوا الحديث حول الشخصية الَّتي يسندون إليها أمور البلاد ، ويبايعونها بالإمارة عليهم لتقيهم شرّ الاحتلال الفرنسي ، وترد عنهم غائلة العدو الغاصب ، ولم يكن هناك من يستحق هذا الأمر العظيم ، غير أسرة الأمير وعلى رأسها والده (محيي الدين) ، فاختاروه أميراً عليهم ، على الرَّغم من تقدمه في السِّن ، وزاد إلحاحهم عليه ، لسطوته الدينية عليهم ، إذ هو سيد الطريقة الشاذلية في المنطقة .

اعتذر الشيخ (محيي الدين) والد عبد القادر لكبر سنه ، فاتفق الوجهاء ومنهم محيي الدين ، على تولية الفتى الَّذي برزت شجاعته في واقعتي (خنق النطاح) ، وفي الثانية بالخصوص ، حيث قسم جيشه إلى خمسة فرق : فرقتان

---

(١٠) راجع : ـ الأعلام ٤/١٧٠

ـ بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري ، يحي بوعزيز .

ـ الجزائر أرض المعارك ، د. بهي الدِّين زيان .

ـ المغرب العربي ، د . صلاح عقاد .

للقتال ، وفرقتان للدفاع ، وخامسة كمنت وراء العدو ، فاجأته عند تقهقره وأبادته عن آخره ، واستولت على كل السلاح والذخيرة دون أن يصيبها أيُّ أذى ، وكان عبد القادر في هاتين الواقعتين بطل المعركة بالمعنى الصحيح ، وأعجب به فرسانه ، حيث كان في طليعة الخطوط الأمامية غير مبالٍ بشيء حتى أن فرسه أصيبت بثماني رصاصات في الأولى ، كما أصيبت بطعنة قاتلة في موقعة (بوج رأس العيون) بعدهما .

قُدّم الفتى البطل لمنصب الإمارة والقيادة ، وعقدت له في ١٣ رجب ١٢٤٨ هـ / ٢٧ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٨٣٢ م ، ولقبه والده (ناصر الدين) .

ومما قاله الأمير في خطبة البيعة في مسجد مدينة (معسكر) : « وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه ، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ... فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعاً ، واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد المِلَّة المحمَّديَّة ، والقيام بالشَّعائر الأحمديَّة ، وعلى الله الاتكال في ذلك كله »[11] .

لقد أقام الأمير البطل إمارة إسلامية ، لتقف في وجه الغزو الصليبي الفرنسي ، وإن كنا هنا لا يهمنا سير معاركه المظفرة ضدّ أعدائه ، فهذه لها مجال غير هذا المجال ، بل يهمنا تنظيمه لإمارته ، والفكر الَّذي قاد مقاومة الاحتلال الفرنسي !

لقد كان لواء الأمير عبارة عن قطعة من الكتان الحريري ، أعلاها وأسفلها خضراوان ، ووسطها مرسوم عليه بالذهب المزركش في صورة دائرة تامة : (نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ـ ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين) . وفي وسط الدَّائرة صورة يد مبسوطة مطرزة بالذَّهب .

---

(١١) تحفة الزَّائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر : ١٠١/١

أما خاتم الأمير الذي كان يمهر به كتبه ، فقد نقش عليه في دائرته :

(وَمَنْ تَكُن بِرَسُـولِ اللهِ نُصْرَتُـهُ   إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ في آسادِها تَجِمِ)

وفي جوانبه : (الله ، محمد ، أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي) .

وفي وسط الدائرة : (الواثق بالقوي المتين ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين) . والتاريخ سنة ١٢٤٨ هـ .

ضرب الأمير السكة (النقود) على ثلاثة أجناس ، كلها من الفضة والنحاس وهي : الفرنكان ، الفرنك ، نصف الفرنك .

كتب على وجهي الأول بالتوالي : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ، (ضرب في تاكدمت سنة ١٢٥٥ هـ) ، وعلى وجهي الثاني بالتَّوالي : (إن الدِّين عند الله الإسلام) ، (ضرب في تاكدمت سنة ١٢٥٥ هـ) ، وعلى وجهي الثالث بالتوالي : ﴿ رَبَّنا أَفْرِغ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّت أَقْدامَنا ﴾ ، (ضرب في تاكدمت سنة ١٢٥٥ هـ) .

أمَّا جيش الأمير فقد كان منظماً على غرار الجيوش الأُوربية الحديثة آنذاك ، بلغ عدده في أحد الأوقات خمسة عشر ألفاً وثلاث مئة جندي ، مزودين بأحسن الآلات الحربية ، وأحدث الأسلحة العصريَّة[١٢] . وقد قسمه إلى أصناف ثلاثة : الراكبون وسماهم (الخيالة) ، المدفعيون وسماهم (الرُّماة) ، والمشاة وسماهم : (العسكر المحمَّدي) .

لقد تمت البيعة ، تحت تأثير فكرة الجهاد الدِّيني ، لذلك جاء جنده (عسكراً محمدياً) ، وتحت تأييد من رجال الطرق الصوفية ، فكانت حكومة

---

(١٢) بطل الكفاح ، ص : ١١٨ ـ ١٤٣ (التَّنظيمات العسكريَّة عند الأمير) .

عربية إسلامية ، عاصمتها مدينة (معسكر) تارة ، ومدينة (تاكدمت) تارة أخرى .

فبوازع ديني إسلامي بدأت المقاومة ، وأذاع الأمير المسلم فتوى يقول فيها : « إن كل من ساعد الفرنسيين ، ارتد عن دينه »(١٣) . **لذلك لاحظ الفرنسيون أن الدعاية الدِّينيَّة الَّتي بنى الأمير عليها حكمه ، كانت تهددهم** ، وتمنع اتصالهم بالقبائل .

مرَّ كفاح الأمير وجهاده الإسلامي بفترة أُولى امتدت من عام ١٨٣٢ ـ ١٨٣٩ م ، وفيها احتل (تِلِمْسان) ، واعترف له الفرنسيون بحكم غربي الجزائر ، عدا مدن الساحل : وهران ومستغانم ، ثم تجددت الحرب ، وتجدد له النصر ، فعقدت فرنسة معه معاهدة تفنا Tafna في ٢٩ أيار « مايس » ١٨٣٨ م(١٤) ، وتخلت له عن حكم منطقة وهران .



الأمير عبد القادر الجزائري
أقام إمارة إسلاميَّة ، لتقف في وجه الغزو الصَّليبي الفرنسي .

(١٣) المغرب العربي ، ص : ١٠٩ و ١١٠ ، أُطلق على القبائل الخاضعة للفرنسيين المتنصِّرة .
(١٤) معاهدة (تفنا) : ٦ ربيع الأوَّل ١٢٥٤ هـ ، غُرَّة أيار ١٨٣٨ م ، ص : ٦٠ في (بطل الكفاح) .

فنظم الأمير جيشه ، وجهزه بالأسلحة الحديثة ، فلم يَرُق ذلك للفرنسيين فنقضوها عام ١٨٣٩ م . فبدأت بذلك المرحلة الثانية ، عندما حشدت فرنسة تحت قيادة (بوجو) : مئتي ألف جندي ، و (بوجو) هذا معروف بصليبيته ، وببغضه الشديد للمسلمين وديار الإسلام ، فكانت الأعمال الوحشية في سياسة (**الأرض المحروقة**) ، ولا يهمنا في معرضنا هذا تفاصيلها ، ويهمنا رأي (المنصفين) فيها !!!

وصف أحد معاوني (بوجو) في مذكراته وهو (سنت أرنو) بعض الأعمال الوحشية ، مع كثير من الإعجاب، والسُّخرية في الوقت نفسه فقال في خطاب بتاريخ ٤ أيار « مايو » ١٨٤٢ م : « لقد كانت حملتنا تدميراً منظماً أكثر منها عملاً عسكرياً ، ونحن اليوم في وسط جبال (مليانة) ، لا نطلق إلاَّ قليلاً من الرصاص ، وإنما نقضي وقتنا في **حرق جميع القرى والأكواخ** .. » .

وفي خطاب آخر يقول : « إن بلاد (بن مناصر) بديعة جداً ، لقد أحرقناها كلها . آه أيتها الحرب ، كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلوج ، فماتوا هناك من الجوع والبرد ، وليس في جيشنا سوى خمسة من القتلى وأربعين جريحاً »[(١٥)] .

وقد أثار بعض النواب في المجلس الفرنسي مسألة هذه الحرب الوحشية ، وذلك على أثر حادثة (ولد رياح) الَّتي ذهب ضحيتها ألف من الأنفس ، وكانوا قد التجؤوا إلى بعض الكهوف فراراً من جند الغزو ، فانقض (بلسييه) عليهم ، وأوقد النار على أفواه الكهوف ، فمات جميع من فيها اختناقاً . وكان جواب رئيس الحكومة المارشال (سولت) على هذا النقد ، هو أن هذه الأعمال قد تكون وحشية ، لو أن الحرب كانت في أُوربة ، أمَّا في إفريقية فهذه هي الحرب بعينها .

---

(١٥) المغرب العربي ، ص : ١٢٧ ، عن : Saint - Arnoud - Souvenir de L'armée d'Afrique

وهنا نقول : **أين هذه الوحشية ، وهذه الإبادة ، من آداب الجهاد والحروب الإسلامية** ؟ أين هذا من آداب الجهاد التي رسمها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لجيش أُسامة بن زيد[16] ؟؟!!

وأمام حرب الإبادة ، والوحشية التي انتهجها الجيش الفرنسي الكثيف ، وأمام حقد وعنف (بوجو) ، وأمام موت النساء والأطفال والعُزَّل كان لابد من التفكير بإيقاف الحرب ، لقد تناقص عدد سكان الجزائر من أربعة ملايين إلى مليونَيْن في مدى السبع سنوات الأُولى من الاحتلال .

كان لابد من إيقاف الحرب ، بعد أن هادن سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام[17] الفرنسيين ، عندما هددوه باستعمال القوة ، فتعهد أن يتخلى عن مناصرة الأمير ، وإخراجه من بلاده الّتي لجأ إليها ، فعاد الأمير إلى الجزائر ، وعادت المقاومة ، ولما ضعف أمر الأمير ، اشترط شروطاً للاستسلام رضي بها الفرنسيون ، واستسلم سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م ، فنفي إلى (تطوان) ، ومنها إلى (أنبواز) حيث أقام نيفاً وأربع سنين ، وزاره نابليون الثالث[18] فسرحه ، مشترطاً ألاّ

---

(١٦) « ياأيُّها النَّاس ، قفوا أُوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لاتخونوا ولا تغلُّوا ، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطَّعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله » ، [الكامل في التاريخ ٢٢٧/٢ ، والطَّبري ٢٢٦/٣] .

(١٧) عبد الرحمن بن هشام : [١٧٧٨ - ١٨٥٩ م] ، سلطان المغرب ، وسَّع حدود بلاده بعد سقوط الدَّولة العثمانيَّة في الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، فاجتاح (تِلِمْسَان) ، وناصر عبد القادر الجزائري .

(١٨) نابليون الثالث : [١٨٠٨ - ١٨٧٣ م] ، إمبراطور فرنسة من ١٨٥٢ م ، وحتَّى ١٨٧٠ م ، خُلِعَ عن العرش بعد فشله في الحرب ضدّ ألمانية ، فاعتزل في إنكلترة حيث توفي فيها .

يعود إلى الجزائر ، فزار باريس والأستانة ، واستقر في دمشق سنة ١٢٧١ هـ وتوفي فيها عام ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م[١٩] .

☆ ☆ ☆

إنَّ حرب التَّحرير لم تقف بعد استسلام الأمير . إذ حمل الرَّاية رجال صادقون أيضاً ، وظلت مرفوعة في أيديهم :

لقد سجلت واحة (الزعاطشة) صفحة مجيدة في تاريخ المقاومة الإسلامية ، خلال هذه الحقبة ، وتقع هذه الواحة على بعد عشرين كيلومتراً جنوب (بسكرة) ، وكان يحكمها أحد رجال الطرق الصوفية ، ويدعى (**بوزيان**) . أقفل الواحة في وجه الفرنسيين ، واستطاعت هذه الواحة الصغيرة ردَّ الطوابير التي أُرسلت إليها حتَّى اضطرت السُّلطات إلى حشد سبعة آلاف جندي ، في حملة كبيرة تحت قيادة الجنرال (دي هربيون) ، لمحاصرة الواحة الَّتي لا يزيد سكانها على ثلاثة آلاف .

وبعد حصار دام أربعة أشهر ، استطاع الفرنسيون اقتحام أسوارها الحصينة ، واستمات السُّكان في الدِّفاع عن مساكنهم ، مما أثار القائد الفرنسي فأمر بإحراق المنازل بعد إقفالها على السكان ، وبهذه الطريقة ، فقد ألف وخمس مئة شخص حياتهم في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ م[٢٠] .

وفي واحتي (ورغلة) و (الأغواط) ، ظهر زعيم ديني آخر يدعى **محمد بن عبد الله** ، أتى من طرابلس ، وطلب إلى سكان الواحتين أن يتبعوه ، باعتباره أحد الأشراف ، وقد قضت فرنسة عليه ، عندما بدأت تدرك أهمية الصحراء

---

(١٩) الأعلام ٤/١٧٠

(٢٠) المغرب العربي ، ص : ١٣٤

الكبرى من الناحية الاقتصادية ، وباعتبارها طريق التجارة بين السودان والبحر المتوسط .

وفي عام ١٨٦٤ م قامت ثورة (**أولاد سيدي الشيخ**) ، ثم ثورة **الحاج محمد المقراني والشيخ محمد الحدّاد** في جبال (الجرجرة) ، وشملت هذه الثورة بلاد (زوادة) ، ومقاطعة (قسنطينة) ، و (الجزائر) . وذلك عام ١٨٧١ م .

وسبب الثورة ، تردد أنباء هزيمة فرنسة أمام ألمانية في حرب عام ١٨٧١ م ، فاستغل الحاج محمد بن أحمد المقراني الظروف ووجدت الثورة لها أنصاراً من بين أتباع الطَّريقة الرَّحمانية ، وقد انتشرت هذه الطَّريقة في بلاد القبائل في الخمسينات من القرن التاسع عشر ، على يد الشيخ علي الحدَّاد ، ويعزى انتشارها إلى أنَّها كانت ردَّ فعل لنشاط المبشرين ، الَّذين ركزوا جهودهم في بلاد القبائل ، ظناً منهم أنَّ إسلام البربر ما زال سطحياً ، وأنَّهم بالتالي بيئة أصلح للتبشير من البيئة العربيَّة . « وقد نجح الحدَّاد في التأثير على أتباعه الَّذين عرفوا بالإخوان ، إلى حد أن رابطة الطريقة أصبحت مقدمة على رابطة القبيلة ، وإذن كان الدين من بين عناصر الثورة الأولى »[٢١] .

---

(٢١) المغرب العربي ، ص ١٣٧ ، عن (Rinn) ، المرجع التَّقليدي لثورة ١٨٧١ م ، مع كتاب أحد الضباط الَّذين اشتركوا في قمع الثَّورة وهو : Robin .
ومما يذكر أن الجزائر شهدت خلال عامي ١٨٦٧ و ١٨٦٨ م مجاعة مخيفة ، راح ضحيَّتها ثلاث مئة ألف جزائري مسلم حسب التَّقدير الرَّسمي الفرنسي ، وهو أقل بكثير من الحقيقة والواقع ، ومما يثبت صحَّة هذا الاستنتاج ، هو أن معظم الَّذين ماتوا جوعاً ، لقوا حتفهم أثناء محاولة العودة من الأقاليم المجدبة إلى السُّهول الشَّماليَّة الخصيبة ، الَّتي طُردُوا منها ، وكان قد سبق هذه المجاعة ببضع سنين ، انتشار وباء الكوليرا ، الَّذي أصاب عدداً كبيراً من السُّكان الأصليِّين ، وهم المنتجون الحقيقيُّون في الجزائر .
ويرتبط بهذا الحادث المؤسف ، ازدياد نشاط الحركة التَّبشيريَّة ، الَّتي تحمَّس لها الأب (لافيجيري) أسقف الجزائر في ذلك الوقت ، فقد انتهز الفرصة ، وجمع الأطفال الَّذين فقدوا عائليهم ، وجعلهم يشبُّون على دين آخر غير الَّذي كان عليه دين آبائهم ، ومن هؤلاء الجزائريين =

سيطرت هـذه الثـورة على ثلثي أراضي الجـزائر ، وعـزلت جميـع الحـاميـات الفرنسية في المنطقة ، وقدر عدد الذين اشتركوا في هـذه الثورة بنحو مئـة وخمسين ألفاً ، منهم مئة وعشرون ألفاً من الإخوان الرحمانية .

ومع أن هـذه الثـورة صـادفت ظروفـاً سيئـة في فرنسـة ، إلاَّ أن عمرهـا كان قصيراً ، ذلـك أن بسمارك ـ لسيـاسـة عليـا أوربيـة ـ رأى أن يخفف الهـزيمـة عن فرنسـة ، فـأطلق عـدداً كبيراً من الأسرى ، ليسـاعـدهـا على قمع ثـورة الجـزائر . ولسوء حظ الثورة الجزائرية ، وقع الحاج محمد المقراني صريعاً في المعـارك الأولى ٢ أيار « مايو » ١٨٧١ م ، ولم ينتهِ هذا الشهر ، حتَّى كان زعماء القبـائل يفـاوضون في التَّسليم .

أمـا (**بو مرزاق المقراني**) الَّـذي خلف أخـاه في زعـامـة الثورة فكان أشـد مراساً ، ظل يناضل حتى كانون الثاني « ينـاير » ١٨٧٢ م ، فبعـد أن تَمَّ إخضـاع القبائل ، انتقل إلى الواحـات الجنوبيـة ، فلمـا تبعـه الفرنسيون إليهـا ، خرج إلى الصحراء مع من بقي من أتبـاعـه ، واستمروا يتجولون فيهـا إلى أن أهلكهم الجـوع والعطش ، حتى التقطتهم دورية فرنسية .

وكان لهـذه الثورة نتـائج بعيـدة بـالنسبـة للجزائر عـامـة ، وبـلاد القبـائـل خاصة . فقد شهدت أكبر محاكمة من نوعها في ظل الاحتلال ، نظرت فيهـا المحـاكم الجديدة الَّتي لعب فيها المستوطنون دور المحلفين ، مما أبرز صفتها الانتقامية ، وقد هـدفت الأحكام ضرب مثل رادع للوطنيين ، حتَّى لا تحـدثهم أنفسهم بـأيَّـة ثـورة أُخرى ، فصـدرت **أحكام الإعـدام على ستـة آلاف من الثَّـائرين** ، ثم خفف الحكم

= الكاثوليـك ، كوَّن الأب (لافيجيري) طبقـة جـديـدة من المبشِّرين ، عُرِفَت بـالآبـاء البيض ، وانتشرت في بلاد البربر ، أمَّا الحكومة الفرنسيَّة ، فإنَّها بدل أن تقوم بعمل حاسم ، وهو إرسـال المؤن لتجنُّب الكارثة ، بعثت بلجنة من مجلس الشُّيوخ للتحقيق في أسباب المجـاعـة !!، [المغرب العربي : ١٥٦] .

على بعضهم بـالنّفي إلى جـزيرة (كاليـدونيـا الجـديـدة)[٢٢] . ومن بين هـؤلاء (بومرزاق) وأسرة الشيخ الحدّاد .

كما فرضت فرنسة على الثوار غرامـة قـدرهـا سـتـة وثلاثون مليون فرنـك ، فلما عجزوا عن دفعها صادرت أملاكهم وأجلتهم عن أرضهم ، وأعطتهـا لمهـاجرين من (الألزاس واللوريين)[٢٣] !!

☆ ☆ ☆

ومن أحـداث عـامي ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ م ، وصـول محيي الـدين بن الأمير عبد القادر الجزائري إلى الجزائر سِرّاً ، وقيامه بثورة هناك ، ولوصولـه إلى الجزائر قصة ، نعرّفه قبل ذكرها :

هو محيي الدين بن الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري الحسني ، ولـد في ٣ ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ بإقليم الجزائر ، حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو ابن ثمـان سنين وشهور ، وأقبل على حفـظ المتون في أنواع العلوم ، مـا بين منظوم ومنثور ، ثم قرأ الفقه المالكي على الشيخ محمد بن عبد الله الخـالـدي المغربي ، وعلى غيره من العلماء الأخيار ، وقرأ جملة من الفنون على الفاضل الدمشقي الشيخ محمـد الجوخـدار ، وقرأ على الشيـخ محمـد الطنطـاوي الأزهري الكتب الكثيرة في أنـواع العلوم ، وحضر على والده الأمير عبد القادر الحديث والتوحيد ، وأجـازوه جميعـاً بما تجوز له روايته من منثور ومنظوم[٢٤] .

---

(٢٢) وهي مستعمرة فرنسيّة في جنوبي المحيط الهادي ، وكان عـدد المنفيّين إليهـا خمس مئـة من كبـار الثُّوار .

(٢٣) الجزائر أرض المعارك ، ص : ٨٩ ، د . يهي الدِّين زيَّان ، والإلزاس واللُّورين : مقـاطعتـان في شرقي فرنسة ، على الحدود الألمانيَّة .

(٢٤) حليـة البشر في تـاريـخ القرن الثَّـالث عشر ، ص : ١٤٢٣ ، للشيـخ عبـد الرَّزاق البيطـار ، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق ، حقَّقه ونسَّقه وعلَّق عليه حفيده الأُستاذ الشَّيخ محَّد بهجـة البيطار ، طبع ١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م .

وفي سنة ١٢٨٩ هـ/١٨٧١ م ، وقع بين فرنسة وألمانية قتال ، ولما آل النَّصر لألمانية في الأشهر الأولى خطر ببال الشيخ محيي الدين بن عبد القادر ، أن الحرب ستطول بين الدولتين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة لتخليص وطنه الجزائر من يد فرنسة ويزيل عن الوطن الكدر وظلم الاحتلال ؟ فتوجه بقصد الزيارة إلى الديار المصرية . وحينما وصل إلى مدينة الاسكندرية ، توجه منها إلى تونس ، ولم يعلم أحد نيَّته الخفيَّة . فأكرمه حاكمها صادق باشا ، ولما شاع ذكره في ذلك القطر ، لم يتمكن من التوجه إلى الجزائر ، فحرر لرؤساء الجزائر نحو مائتي كتاب ، لكي يتهيؤوا لمحاربة فرنسة عند قدومه . وأرسلها من تونس مع الرُّسل خفية . ثم ودع الباشا مظهراً له قصد الرُّجوع إلى الدِّيار الشَّاميَّة ، فتوجّه إلى (مالطا)[٢٥] ، وحين وصوله إليها أخفى نفسه وتنكر ، ولبس لباس الدراويش ، وظهر في غير ذلك المظهر المعهود ، وتوجه إلى طرابلس الغرب ، فحينما وصلها أرسل ثقله مع بعض الناس إلى مدينة (قابس)[٢٦] ، وتوجّه هو برّاً متكبداً المشقات لم يكن على مثلها بممارس ، إلى أن وصل إلى (بلاد الجريد) ، قرب حدود الجزائر ، وهناك أظهر نفسه للناس ، ولم يخش على نفسه من بأس .

لما وصلت كتب الشيخ محيي الدين بن الأمير عبد القادر إلى رؤساء الجزائر من تونس ، استبشروا ولم يعد لهم صبر لانتظار قدومه ، فتراسلوا واتفقوا على إظهار الثورة ضد المستعمر الفرنسي . وبالفعل نشب القتال في كلّ مكان ، فلما وصل إليهم بايعوه على السمع والطاعة ، ووقعت بينه وبين الجيش الفرنسي معارك عديدة ماعدا التي وقعت بأمره في عدة أماكن ولم يحضرها . وحقق نصراً في عدة مواقع في شرق الجزائر وقرب الحدود التونسية .

---

(٢٥) مالطا : جزيرة صغيرة جنوبي جزيرة صِقِلِّيَّة . (في البحر المتوسّط) .

(٢٦) قابس : مدينة على ساحل تونس الشَّرقي .

ولكن الحرب الفرنسية الألمانية ، انتهت ، وتصالح الطرفان ، فركزت فرنسة جهودها لأحداث الجزائر ، ونقلت الجيوش الفرنسية التي شغلت في أُوربة بحرب ألمانية ، إلى الجزائر ، فاستطاعت إنهاء ثورة الشيخ محيي الدين بن عبد القادر ، فانسحب إلى الشّام ثانية .

☆ ☆ ☆



العلامة الثائر

الإمام عبد الحميد بن باديس

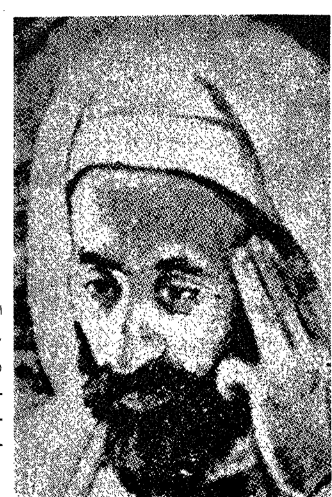
شَعْبُ الجـــزائرِ مُسْلِمٌ	وَإلى العُروبةِ يَنْتَسِبْ
مَن قالَ: حادَ عن أصْلِه	أوْ قالَ: ماتَ، لَقَدْ كَذَبْ
أمْ رامَ إدْماجـاً لَـهُ	رامَ المُحَالَ مِنَ الطَّلَبْ
فَـإذا هَلَكْتُ فَصَيْحَتي	تَحْيَا الْجَزَائرُ وَالعَرَبْ

ابن باديس

أرادت فرنسا أن تصير الجزائر جزءاً منها ، وأن تمسخ شخصيتها العربية الإسلامية ، وتحولها إلى مقاطعة من المقاطعات الفرنسية .. وفي سبيل ذلك أخذ الفرنسيون يشرِّعون .. فأصدروا عام ١٨٣٤ م قانوناً جعلوا بموجبه الجزائر أرضاً فرنسيَّة ، يعين عليها حاكم فرنسي عسكري ، يخضع لوزير الحربية الفرنسي مباشرة .

وفي عام ١٨٤٨ م أصدروا قانوناً صيروا به الجزائر جزءاً مكملاً لفرنسة ، وفي عام ١٨٦٥ م صدر قرار من مجلس الشيوخ الفرنسي يجعل الجزائريين المسلمين فرنسيين ، وفي عام ١٨٧٠ م صدر قانون جعلوا به الجزائر مؤلفة من ثلاث مقاطعات فرنسيَّة ، وفي عام ١٨٧١ م صدر قانون تعين بمقتضاه فرنسة حاكماً مدنياً يخضع لسلطة وزير الداخلية الفرنسي .

لقد هدفت هذه التشريعات إلى محو الشَّخصيَّة العربيَّة الإسلاميَّة الجزائريَّة بالقوة ، وجعلها مقاطعة فرنسيَّة دون أي نظر لرأي أهلها فيما صدر من تشريعات ..



العلامة الثائر
عبد الحميد بن باديس
رئيس جمعية العلماء المسلمين
- أحيا الشخصية الإسلامية في الجزائر .
- أنقذ الجزائر ، وصنع مصيرها .
- وحدّد سير تاريخها المعاصر .

لذلك ، كانت الجزائر تنتظر شخصيَّة كشخصيّة ابن باديس[٢٧] ، تقوم بدور ثوري ، يعبر عما يختلج في النفوس من قلق وأمل ، ويضيء الطريق أمام الحائرين ، ويجمع الشتات ، ويوجه الطاقات ، ويحيي الشّخصية الإسلامية الّتي أتاها البلاء من كل مكان ، وأصابها القرح وتكالبت عليها ذئاب الغرب ، وهكذا جاءت الأيام بالمولود الجديد ، منقذ الأمة وقائدها ، لصنع مصيرها ، وخلق تاريخها .

---

(٢٧) مرجعنا لهذا العلاّمة الثّائر ، والمصلح الكبير ، كتاب : (ابن باديس : حياته وآثاره) ، في أربعة أجزاء ، طبع دار اليقظة العربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر ، إعداد وتصنيف الأُستاذ عمار الطّالبي .

ولد عبد الحميد بن مصطفى بن مكي بن باديس في سنة ١٣٠٨ هـ/ كانون الأول « ديسمبر » ١٨٨٩ م .

من أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء والجاه ، كانت منذ القدم ذات نفوذ ، ومسيِّرة للسياسة والحكم في المغرب الإسلامي ، وتنتمي هذه الأسرة إلى الطريقة القادرية .

حفظ القرآن الكريم على الشيخ محمد المداسي ، وأتم حفظه في السنة الثالثة عشرة من عمره ، فانتقى له والده الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي المنتمي إلى الطريقة التيجانية ، فعلمه العربية ، والمعارف الإسلامية ، ووجهه وجهة علميَّة أخلاقيَّة .

انتسب إلى جامع الزيتونة عام ١٩٠٨ م ، وعمره إذ ذاك تسعة عشر عاماً ، فأخذ عن كبار العلماء الثَّقافة الإسلاميَّة ، أمثال الشيخ محمد النخلي القيرواني ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور[٢٨] ، والشيخ الخضر بن الحسين ، والشيخ أبو محمد بلحسن ابن الشيخ المفتي محمد النجار ، والشيخ محمد الصادق النيفر ، وسعد الفياض السطايفي المصلح المجدد ، ومحمد بن القاضي ، والبشير صفر المؤرخ المجدد ... وغيرهم كثير .

كان اتصاله شديداً قوياً وعميقاً ومؤثراً بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، والشيخ محمد النخلي ، اللَّذين كانا زعيمي النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية في الحاضرة التونسية ، لأنهما كانا من أنصار أفكار جمال الدين ومحمد عبده الإصلاحية .

---

(٢٨) ولد بتونس سنة ١٢٩٦ هـ/١٨٧٩ م ، تولَّى منصب قاضي القضاة سنة ١٣٥١ هـ/١٩٣١ م ، ومشيخة الجامع الأعظم ، فرفع من شأن الجامعة الزَّيتونيَّة ، وأقام بها نهضة علميَّة ، استفادت منها كثير من البلدان الإفريقيَّة ، وهو عضو مجمع اللُّغة العربيَّة ، والمجمع العلمي بدمشق ، من كتبه : أُصول النِّظام الاجتماعي في الإسلام .

ومن زملائه العلماء الأفاضل : الشيخ الشهيد : العربي التبسي ، الّذي اختطفه المستعمرون الفرنسيون في آذار « مارس » ١٩٥٧ م أثناء الثورة ، وغاب عن الوجود من ذلك التاريخ رحمه الله ، والشيخ البشير الإبراهيمي(٢٩) ، والشيخ العقبي ، والشيخ مبارك الميلي .

وعوامل تكوين شخصية ابن باديس :

١ ـ أُسرته وأبوه بخاصة ، فهو من أُسرة ذوي فضل وخلق إسلامي ومن حملة القرآن الكريم .

٢ ـ المربون المعلمون الشيوخ الّذين نمّوا استعداده ، وتعهدوا توجيهه .

٣ ـ القرآن الكريم الّذي كرس له ربع قرن من حياته ، فهذب القرآن كيانه ، واستولى على قلبه ، فاستوحاه في منهجه طوال حياته ، وترسّم خطاه في دعوته ، وناجاه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ، ويتأمله فيعب منه ويستمد علاج أمراض القلوب ، وأدواء النفوس ويذيب نفسه ، ويبيد جسمه الهزيل في سبيل إرجاع الأمّة الجزائريّة إلى الحقيقة القرآنيّة ، ومنبع الهداية الأخلاقيّة ، والنهوض الحضاري وكان كلُّ همّه أن يُكوّن رجالاً قرآنيين ، يوجهون التّاريخ ويغيّرون الأمة ، ولذلك فإنه جعل القرآن قاعدة أساسيّة ، ترتكز عليها تربيته وتعليمه للجيل »(٣٠) .

وفي ٥ أيار ١٩٣١ م تأسست « **جمعية العلماء المسلمين** » في نادي الترقي بعاصمة الجزائر ، واتفق على أن يتولى عبد الحميد بن باديس رئاستها ، وهو غائب عن أول اجتماع لهذه الجمعية .

وفي ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤ م ، كانت تضم جمعية العلماء المسلمين في مجلسها : الشيخ

(٢٩) لنا حديث مفصّل عنه بعد صفحات .

(٣٠) ابن باديس : ٧٩/١ و ٨٠

عبد الحميد بن باديس (الرئيس) ، الشيخ البشير الإبراهيمي ، الشيخ عبد القادر بن زيان ، الشيخ العربي التبسي ، الشيخ الأمين العمودي ، الشيخ المبارك الميلي ، الشيخ الطيب العقبي ، الشيخ السعيد الزهراوي ، الشيخ محمد خير الدين ، الشيخ يحي حمودي ، الشيخ أبو اليقظة[٣١] .

أصدر الشيخ جريدة (المُنْتَقِد) ، حاربت بدع غلاة الصُّوفيَّة ، والمتصوفة السلبيين ، شعارها جريء ، خصوصاً في تلك الفترة العسيرة ، الَّتي أبغض ما كان فيها للاستعمار الفرنسي كلمة (الحق) وكلمة (الوطن) ، وهما الكلمتان الأساسيتان في الشعار : « الحق فوق كلِّ أحد ، والوطن قبل كلِّ شيء » . والحقيقة أن صدور مثل هذه الصحيفة ، في مثل تلك اللهجة الصريحة الصادقة العنيفة ، هي المغامرة في ذلك العهد القاسي الظالم[٣٢] .

كما أصدر الشيخ (الشِّهاب) بعد (المنتقد) ، حيث تغيّرت بعض الشعارات بسبب اليأس من فرنسة ، فأصبح شعار آخر يؤمن بأن الحقوق لاتعطى ، وإنما تؤخذ غلاباً . قال الشيخ : « فإزاء هذا ، رأينا أن من الواجب علينا ، أن نعلن لشعبنا ، أن لانعتمد إلاَّ على أنفسنا ونتكل على الله » .

هذا التغيير كان في سنة ١٣٥٦ هـ/١٩٣٧ م ، واستمر إلى أوَّل الحرب العالميَّة الثَّانية ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م .

لقد قامت (جمعية العلماء المسلمين) الجزائريين ، بنشاط صحفي ، فأسست « السُّنَّة » في ٨ ذي الحجة ١٣٥١ هـ/١٩٣٣ م . منعتها الحكومة الفرنسية في ١٠ ربيع الأول ١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م ، فخلفتها جريدة « **الشَّريعة** » بتاريخ ٢٤ ربيع

---

(٣١) وقد جمعتهم صورة واحدة في نادي التَّرقِّي ، (ابن باديس ٥٤٣/٢) .

(٣٢) والظَّريف أنَّه مهَّد لهذا الشِّعار ، بعبارة غير رسميَّة عنده ، وهي : (سعادة الأُمَّة الجزائريَّة ، بمساعدة فرنسة الدِّيمقراطيَّة) .

الأول ١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م . ولم تلبث أن صودرت . خلفتها جريدة « **الصّراط** » في ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٢ هـ/١١ سبتمبر « ايلول » ١٩٣٣ م . فَعُطِّلت ، فأسس العلماء « **البَصائِر** » في ١ شوال ١٣٥٤ هـ/٢٧ كانون الأول « ديسمبر » ١٩٣٥ م ، انقطعت بسبب الحرب العالمية الثانية ، ثم ظهرت في يوم الجمعة ٧ رمضان ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧ م ، واستمرت إلى أن توقفت أثناء الثورة الكبرى ، ثورة تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٩٥٤ م ، وذلك في ٦ نيسان « ابريل » ١٩٥٦ م .

ومن هنا تتبين لنا حقيقة ، وهي أن الشيخ عبدِ الحميد بن باديس جمع بين النَّهضة الثَّقافيَّة الاجتماعيَّة ، وبين النَّهضة السِّياسيَّة ، بين التَّربية الإسلاميَّة ، وبين الصحافة ، ومما يؤكد هذه الحقيقة ، أنه صرح في محاضرة ألقاها في تونس ، في ذكرى البشير صفر ، حيث قال : « لابد لنا من الجمع بين السياسة ، والعلم ، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض ، إلا إذا نهضت السياسة بحق »[٣٣] .

لقد اتخذ ابن باديس النَّشاط الصَّحفي وسيلة للسياسة والتهذيب ، كما اتخذ المؤسسات التَّربوية للتَّعليم والتَّربية ، وتكوين القادة وبثّ الوعي ، والواقع أنَّنا لانستطيع أن نفصل بين نشاطه العلمي والسياسي ، فهما متداخلان متكاملان في نظره وعمله .

وفي أوائل سنة ١٩٤٠ م ، صرح في اجتماع خاص مقسماً فقال : « والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأُمَّة الجزائريَّة يوافقونني على الثَّورة لأعلنتها » ، قال ذلك في سهرة في بيته ، بمبنى جمعية التَّربية والتَّعليم الإسلاميَّة ، بحضور الأُستاذ علي مرحوم ، وعبد الحفيظ جنان . وقال : « وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف ، وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال » .

وحينما حمي وطيس الحرب العالمية الثانية ، اجتمع به جماعة من أنصار

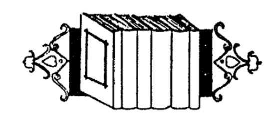
---

(٣٣) ابن باديس : ٨٨/١

حركته ومريدوه فقال : « عاهدوني » ، فلما أعطي له العهد بالمصافحة قال : « إني سأعلن الثورة على فرنسة ، عندما تشهر عليها إيطالية الحرب » .

وقال الشيخ أحمد حماني : « كان يريد الخروج على فرنسة إلى جبال أوراس ليعلنها ثورة على فرنسة لو وجد رجالاً يساعدونه ، وأعلن رأيه في الاستقلال وتنبأ به : « إن الاستقلال حقٌّ طبيعي لكل أُمَّة من أُمم الدُّنيا ، وقد استقلت أُمم كانت دوننا في القوة والعلم ، والمنعة والحضارة ، ولسنا من الذين يدّعون علم الغيب مع الله ، ويقولون إنَّ حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد ... ستصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً ، تعتمد عليها فرنسة اعتماد الْحُرِّ على الْحُرِّ » .





جَوانِبٌ مِنْ شَخْصِيَّتِه

لقد كان ابن باديس مناظراً مفحماً ، وعربياً بناءاً ، ومؤمناً متحمساً ، وصوفياً والهاً ، ومجتهداً يرجع إلى أُصول الإيمان المذهبية ، ويفكر في التوفيق بين هذه الأُصول توفيقاً غرب عن الأنظار ، إبان العصور الأخيرة للتفكير الإسلامي .

مالك بن نبي

إنَّ شخصية الأُستاذ عبد الحميد بن باديس غنية ومعبرة عن أزمة المجتمع الإسلامي ، لا تماثلها إلاَّ شخصية جمال الدين الأفغاني في تراثها ، وشمولها ، وجرأتها ، وتعبيرها عن جميع جوانب المشكلات الاجتماعيَّة ، والأخلاقيَّة ، والدِّينيَّة والسِّياسيَّة ، الَّتي يتخبط فيها العالم الإسلامي .

فهو مفسر راعى مقتضيات العصر ، محدث من الطِّراز العالي ، شاعر يفيض الشعر من قلبه ، خطيب لا يتلعثم ولا يتردد ، يستولي على النفوس ، ويملك العقول ، فقيه مطلع على مدراك المذاهب ، مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع ، ويدعو للنَّهضة والحضارة ، ويغرس الجد وأصول الأخلاق ، صحفي قدير يقضي ليله في إعداد المقالات والمطالعات بالعربية والفرنسية ، مؤرِّخ يحلل الحضارة ، صوفي زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهادتهم ، متأثر بالغزالي ، ويسمي كتابه (إحياء علوم الدين) بكتاب الفقه النفسي .

إن شخصيته عجيبة ، مجدد للنفوس البالية ، وباعث للضمائر الخامدة ، وللقلوب الخامدة ، باثٌّ العلم ، محرِّك العقول ، مرجِّح الثِّقة للناس ، زارع بذور الثَّورة ، مشيع فكرة الحريَّة ، مبيِّن المحجة البيضاء الَّتي ليلها كنهارها ،

فانكشفت به الغياهب الدكناء ، وانجابت الغيوم الكثيفة والضباب العاتم من سماء الجزائر ، واستمر يواصل النِّضال العلمي والاجتماعي والسِّياسي ، يعلِّم ، ويرشد ، ويعظ ، ويحرِّر ، ويتنقل ، ويتعبد ، ويتأمل ، ويحقق ، لا يهدأ له بال ، لا بالليل ولا بالنهار ، لم يشفق على نفسه ولا على جسمه ، ولم يبال بصحته في سبيل مبدأ أعظم ، وأمته يسوء حالها ، ويدفعه للبذل والسهر مآلها وآماله وآمالها ، أفنى ذاته في سبيل العقيدة ، وقضى من أجل رسالة ، فجاءه الأجل المحتوم وانتقل إلى الرَّفيق الأعلى مساء الثلاثاء ٨ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ/١٦ نيسان « ابريل » ١٩٤٠ م ، فتحركت قسنطينة بأكملها لتشييع جنازته ، وكان يوماً مشهوراً في ظروف قاسية وأزمة عالمية[٣٤] ، هي الحرب العالمية الثانية .

من آرائه :

« **لن يصلح المسلمون إلاّ إذا صَلَحَ علماؤهم** ، لأنَّهم بمثابة القلب للأمّة ، ولن يصلح العلماء إلاَّ إذا صلح تعليمهم ... ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله ، وموضوعه في مادته وصورته[٣٥] .

« **إنَّ التَّدهور الاجتماعي راجع إلى عدم تطبيق الإسلام** ، وإلى انفصال الإنسان المسلم عن الحقيقة القرآنية » .

« **العلم قبل العمل** ، ومن دخل العمل بغير علم ، لا يأمن على نفسه من الضلال » . ويرى أنه لاسبيل إلى محو البدع والضلالات إلاّ بالعلم والعمل ، وإظهار الإسلام بسلوكنا في الحياة ، أمام الناس في مظهره الصادق الصحيح ، ويرى أن المنهج الذي نجح به المسلمون الأولون في تغيير العالم ، إنما هو سلوكهم وتطبيقهم الإسلام على أنفسهم وغيرهم في الحياة .

---

(٣٤) ابن باديس : ٩٥/١

(٣٥) ابن باديس : ١٠١/١

غرس ابن باديس في نفوس النشء ، أن خدمة الوطن تأتي في الدرجة الأولى ، ثم تأتي خدمة الوطن المغربي ، ثم العربي الإسلامي ، ثم الإنسانية ... وخاطب من اجتمع عنده من الشباب المتعلمين تعليماً أوروبياً ناصحاً : « عليكم أن تلتفتوا إلى أُمتكم فتنتشلوها مما هي فيه ، بما عندكم من علم ، وبما اكتسبتم من خبرة ، محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية »[٣٦] .

رأيه في تعليم المرأة :

نصح العلامة ابن باديس ، بتكوين المرأة تكويناً يقوم على أساس العفة ، وحسن تدبير المنزل ، والنَّفقة والشَّفقة على الأولاد ، وحسن تربيتهم ، وحمَّل مسؤولية جهل المرأة الجزائرية أولياءها ، والعلماءَ الذين يجب عليهم أن يعلِّموا الأُمَّة رجالها ونساءها ، وقرر أنَّهم آثمون إثماً كبيراً إذا فرَّطوا في هذا الواجب ، واستدل على وجوب تعليم المرأة ، بالعموميات القرآنية الكثيرة الشاملة للرجال والنساء ، وبأحاديث شريفة ، ومذهبه أن الخطاب بصيغة التذكير ، شامل للنساء ، إلاَّ بمخصص من إجماع أو نص أو ضرورة طبيعية ، لأنَّ النساء شقائق الرِّجال ، ولا خلاف بين اللغويين والأصوليين ، في أنه إذا ما اجتمع النِّساء والرِّجال ، كان الخطاب بصيغة التَّذكير على طريقة التَّغليب[٣٧] .

مواقفه إزاء مقاومة الاستعمار للتعليم :

إنه لا يكفي لاستعراض تاريخ ابن باديس عن الحركة التعليمية ، وجهاده التَّربوي الَّذي وقف حياته كلها عليه . لقد تعرض لاضطهاد الاستعمار ومطاردته وعراقيله ، ولكنه ثبت ثبات الرِّجال أصحاب المبادئ ، لما يتسم به من التفاؤل واليقين بأن العاقبة له ، وللأمة الجزائرية ، معتقداً أنَّ كلَّ محاولة لحمل الجزائريين

---

(٣٦) ابن باديس : ١١٨/١

(٣٧) ابن باديس : ١١٩/١ وما بعدها .

على ترك لغتهم أو دينهم أو تاريخهم أو شيء من مقوماتهم محاولة فاشلة . وحين أراد الاستعمار منعه من التعليم ، كتب مقالاً تحت عنوان : (بعد عشرين سنة في التَّعليم نسأل هل عندنا رخصة) . وحين صدر قانون ٨ آذار « مارس » ١٩٣٨ م ، بمنع التعليم ، كتب مقالاً آخر تحت عنوان : (**يا لله للإسلام والعربية في الجزائر** ، كلُّ من يُعَلِّم بلا رخصة يُغَرَّم ، ثم يُغَرَّم ثم يُسْجَن) ، وأعلن فيه عزمه على المقاومة بكل قوة قائلاً :

« وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية : عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا ، وسنمضي بحول الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا ، ولن يصدنا عن ذلك شيء ، فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا ، وإننا على يقين من أن العاقبة - وإن طال البلاء - لنا ، وأن النصر سيكون حليفنا » .

ومن خطابه في الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي التَّرقي غرة شعبان ١٣٥٧ هـ / أكتوبر « تشرين الأول » ١٩٣٨ م :

« أما بعد ، فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين ، وسلام على مساجينكم في المساجين ، وسلام على متَّهَميكم في المتَّهمين ، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين . سجون واتهامات ونكبات ، ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها ، ولا تشاد الصُّروح السَّامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلاَّ على أسسها ، فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث ، أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها ، وسجلت في صحيفة الخلود رسمها ، ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها ، وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوماً متألقة تأخذ الأبصار .

هذا الأُستاذ العقبي ، برَّأته العدالة من التُّهمة الباطلة ، ثم أبت تلك النواحي المظلمة من الحياة الجزائرية ، إلاَّ أن تعود به إلى التهمة ، ولا نشك أنه إن لم تصر

مرة أخرى في تبرئته العدالة ، فستنفضح تلك النواحي في العالم شرّ فضيحة .

وهذا الأستاذ الإبراهيمي ، سيق إلى المحاكمة على حفلة علمية ، وقضي عليه بالغرامة ، فلم يكتف في حقه بذلك ، فرفعت القضية للإعادة ، وهو ينتظر ما يكون .

وهذا الشيخ عمر دردور ، سُجِنَ في سبيل نشر العلم والفضيلة ، ثم أنصفته العدالة فأطلقت سراحه ، فأبت تلك النواحي إلا أن تعود به إلى القضاء ، وهو ينتظر إلى يوم فصله .

وهذا الشيخ عبد الحفيظ الجنان ، عزل من وظيفة قَيِّمٍ بالجامع الأخضر ، لأنه من جمعية العلماء .

وهؤلاء أهل (سُوف) قد ذاقوا من التغريم والنفي والسجن ما ذاقوا ، ورُوِّعوا في ديارهم وأهليهم أفظع ترويع ، ثم لم يثبت عليهم شيء مما رموا به ، إلا رغبتهم في العلم وطرحهم لسربال الطُّرقيّة الوسخ الثَّقيل .

وهذا الشيخ عبد العزيز الهاشمي ، والشيخ علي بن سعد ، والشيخ عبد القادر الياجوري ، والسيد عبد الكامل في ظلمات السجن إلى اليوم ، وقد رمي الشيخ عبد العزيز بالثورة ضدّ أمن الدولة ، وبالصلة الأجنبية ، فلم يثبت لدى البحث النَّزيه إلاَّ أنَّه عقد مظاهرة بدون رخصة ، طلب النَّاس فيها حرية التَّعليم ، والإعانة بالخبز ، وشكوا من ظلم بعض القادة .

وهؤلاء رجال التَّعليم في (بجاية) و (باتنة) وغيرهما ، يساقون إلى المحاكمة المرَّة بعد الأخرى ، ويغرمون من أجل التعليم ، ويهدَّدون بالسجن .

وهذه مدرسة دار الحديث (بتِلِمْسان) مغلقة إلى اليوم ، وكم أذكر وكم أعدد ، فلقد هبت الأُمّة لتعلُّم دينها ، ولغة دينها في جد ونشاط فاق السنوات

المتقدمة ، فعولجت بهذه البلايا والمحن . حقاً ، لقد كانت سنتنا الماضية سنة عمل ، وسنة ابتلاء ، وأي عمل صادق في عمله ، مخلص فيه لا يبتلى ؟!

وفيم هذا كله ؟ على من ثرتم ؟ وإلى من ؟ وأي حدود تعديتم ؟ وما تبغون ؟

لا والله ماثرتم إلاَّ على الجهل والرذيلة ، وما أسأتم إلاَّ للأثرة والجبرية ، وما تخطيتم إلاَّ حدود الجمود والخرافة ، ولا تبغون إلاَّ الحق والخير والعدل والإحسان . ألا في سبيل الله مالقيتم ، ألا في سبيل الله ماأنتم لاقون .

أيُّها الإخوان ، إنَّ جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام ، ولغة الإسلام في هذه الديار ... »[٣٨] .

وفي خطبة قال : « أما بعد ، فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة . حوربت فيكم العروبة حتَّى أظن أن قد مات منكم عرقها ، ومسخ فيكم نطقها ، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها ، فتثير الشعور والمشاعر ، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها ، فتدك الحصون والمعاقل ، ويهز كتابكم أقلامها ، فتصيب الكلى والمفاصل[٣٩] .

وحورب فيكم الإسلام حتَّى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه ، وانتزعت منكم عقائده ، ومكارمه ، **فجئتم بعد قرن ترفعون علم التَّوحيد** ، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد ، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ ، وكما يرضى الله لا كما حرفه الجاهلون ، وشوهه الدجالون ، ورضيه أعداؤه .

---

(٣٨) ابن باديس : ٥٦١/٣ ، كما ذكر في خطابه كيف منعت فرنسة العلماء من الدُّخول إلى جنوبي الجزائر ، بينما أعطت الإعانات ، ومنحت التَّسهيلات للبعثات التَّبشيريَّة لتنصير أبناء وبنات المسلمين .

(٣٩) ابن باديس : ٥٥٥/٣ ، والشَّقاشق : الأصوات الهادرة .

وحورب فيكم العِلْم ، حتَّى ظن أن قد رضيتم بالجهالة ، وأخلدتم للنذالة ، ونسيتم كل علم إلاَّ ما يرشح به لكم ، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم ، فجئتم بعد قرن ترفعون للعالم بناءً شامخاً ، وتشيدون له صرحاً سامقاً ، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة ، والعلم والفضيلة ، جمعيتكم هذه ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وحوربت فيكم الفضيلة ، فسمتم الخسف .. حتَّى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنَّجدة ، وفارقتكم العزة والكرامة ، فرئمتم الضيم[٤٠] ، ورضيتم الحيف ، وأعطيتم بالمقادة[٤١] ، فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل ، وتهزهزون أسس الظلم ، وتهمهمون همهمة الكريم المحنق[٤٢] ، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان ، وتطالبون مطالبة من يعرف له حقاً ، لابد أن يعطاه أو يأخذه .

فبحق قلت : حياكم الله أبناء العروبة والإسلام ، وأنصار العلم والفضيلة .

نعم - أيُّها الإخوان - نهضنا بعد أن صهرتنا بنار الفتنة والابتلاء حوادث الزمان ، وقارعتنا وقارعناها الخطوب ، ودافعتنا ودافعناها الأيام : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلى العالَمينَ** ﴾ ، [البقرة ٢٥١/٢] .

نعم ، نهضنا بعد قرن ، بعدما متنا وقُبِرْنا ، أُحيينا وبُعِثْنا ، سُنَّة كونيَّة ، فقهناها من القرآن ، ونعمة ربَّانيَّة تلقيناها من الْمَلِكِ الدَّيان : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِم وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ**

---

(٤٠) رئمتم الضَّيم = جاء في [اللِّسان : رأم] : رَئِمَت النَّاقة ولدها = عطفت عليه ولزمته وأحبَّته ، فيكون المعنى : رضيتم وقبلتم الظُّلم .

(٤١) المقادة : في اللسان (قود) : قدت الفرس وغيره أقوده قوداً ومقادة .

(٤٢) المحنق : الْحَنَق : شدَّة الاغتياظ ، وأحنق الرّجل إذا حقد حقداً لا يَنْحَلُّ ، [اللِّسان : حنق] .

أحْيـاهُم إنَّ اللهَ لَـذُو فَضْـلٍ عَلى النَّـاسِ وَلكِنَّ أكْثَرَ النَّـاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ ، [البقرة ٢٤٣/٢] .

﴿ أوْ كالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأماتَهُ اللهُ مائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... ﴾ ، [البقرة ٢٥٩/٢] .

نعم نهضنا نهضة « بنينا على الدِّين أركانها ، فكانت سلاماً على البشريَّة » ، لا يخشاها والله النَّصراني لنصرانيته ، ولا اليهودي ليهوديته ، بل ولا المجوسي لمجوسيته ، ولكن يجب ـ والله ـ أن يخشاها الظالم لظلمه ، والدَّجال لدجله ، والخائن لخيانته .

العروبة والإسلام ، والعلم والفضيلة ، هذه أركان نهضتنا ، وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الَّتي هي مبعث حياتنا ، ورمز نهضتنا ، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدِّين ، وتعلمنا اللُّغة ، وتنيرنا بالعلم ، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية ، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا ، وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة ، ولم تزل كذلك بإذن الله ، ثم بإخلاص العاملين .

كانت جمعية العلماء ، فكانت نهضة الأُمَّة ، دوى صوت العلم فأيقظها من رقدتها ، وكذلك عرفت الأُمم من تاريخها ، لا تنهض إلاَّ على صوت علمائها ، فهو الذي يحل الأفكار من عقالها ، ويزيل عن الأبصار غشاواتها ، ويبعث الهمم من مراقدها ، ويرفع بالأُمم إلى التَّقدم في جميع نواحي الحياة . ولهذا ترى أعداء النهوض من كل عصر ومصر ، يبذلون لإخفات هذا الصوت كل جهودهم ، ويكيدون له كل كيد[٤٣] :

(٤٣) ابن باديس ٥٥٦/٣ ، والخطاب نُشِر في (البصائر) ، السَّنة ٢ ، العدد ٨٣ ، الجزائر ٢٥ رجب ١٣٥٦ هـ/ ٢٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٣٧ م ، ونُشِر في الشِّهاب أيضاً في غرَّة شعبان ١٣٥٦ هـ .

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالكافِرِينَ ... ﴾ ، [البقرة ١٩/٢] » .

ومن خطبة رئيس الجمعية « ابن باديس » ، الَّتي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة[٤٤] : « أيها الإخوان ، إن على كلِّ رئيس حقاً . وقد قال الأحنف بن قيس[٤٥] :

إنَّ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ حَقّا أَنْ يَخْضِبَ الصَّعْدَةَ أو تَنْدَقَّا

والصَّعْدَةُ هي الرمح[٤٦] ، يريد أنها تخضب بالدماء ، أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته للأعداء ، ولكن صعدتنا الَّتي نخضبها هي القلم ، (وخضابه الحبر) ، ولكنه لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل » . (تصفيق عال ، وهتاف بكلمة الله أكبر) .

وفي الاجتماع العام ، غرة جمادى الأولى ١٣٥٢ هـ ، أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣ م ، قال موضحاً موقف فرنسة من إحياء الإسلام والعربية في نفوس الجزائر : « فأما السَّنة الماضية ، فلقد كانت منشطرة إلى شطرين ، فأما شطرها الأوَّل ، فقد أوفدت الجمعية من رجالها للوعظ والإرشاد وفوداً لبلدان القطر في العَمالات الثلاث ، وقامت تلك الوفود بمهمتها خير قيام ، وكانت تتلقى من

---

(٤٤) الفضل في كتابتها للأُستاذ العقبي ، راجع ابن باديس ٥٥٢/٣

(٤٥) الأحنف بن قيس [٣ ق . هـ - ٧٢ هـ = ٦١٩ - ٦٩١ م] : أبو بحر ، سَيِّد تميم ، وأحد العظماء الدُّهاة الفصحاء الشُّجعان الفاتحين ، يضرب به المثل في الحلم ، وُلِدَ في البصرة ، أدرك النَّبيَّ ﷺ ولم يره ، ووفد على عمر رضي الله عنه حين آلت الخلافة إليه ، شهد الفتوح في خراسان ، واعتزل الفتنة يوم الجمل ، ثم شهد صِفِّين مع علي رضي الله عنه ، قيل عنه : « إذا غضب غضب له مئة ألف لا يدرون فيمَ غضب » .

(٤٦) الصَّعْدَةُ : القناة الَّتي تنبت مستقيمة ، [اللِّسان : صعد] .

رجال الحكومة ، كما تتلقى من الأمة ، بكل إكرام ، وأما الشطر الثاني منها وهو الَّذي يبتدئ بصدور قرار منع العلماء من الوعظ والإرشاد بالمساجد » .

☆ ☆ ☆

وفي ذكرى المولد النبوي الكريم ، في نادي التَّرقي بالعاصمة الجزائر ، قال يشعر شعب الجزائر كله ، أنه ليس وحده في معركته ضدّ الفَرْنَسَةِ والإدماج : « لسنا وحدنا في هذا الموقف الشَّريف لإحياء هذه الذكرى العظيمة ، بل يشاركنا فيها نحو خمس مئة مليون[٤٧] من البشر في أقطار المعمورة ، كلهم تخفق أفئدتهم فرحاً وسروراً ، وتخضع أرواحهم إجلالاً وتعظيماً لمولد سيد العالمين .

قلوب خمس مئة مليون ! هذه قوة كبيرة في هذا العالم ، مرتبطة بالحب ، متدرِّعة بالإيمان ، فلو شعرت حقيقة الشعور لأثمرت للإنسانية فوائد كبرى ، وعملت لها أعمالاً عظيمة »[٤٨] .

وقد كانت دعوته للتَّسامح الدِّيني واضحة جليَّة[٤٩] :

فبعد أن ذكر تسامح المسلم ، وكيف لا يكون إلاَّ نقي القلب من الحقد الديني ، واسع الصدر عظيم التسامح ، ذكر ما ورد في الصلاة اليومية التي نقلها عن الصدى الكنسي (لقسنطينة) ، و (بونة) حيث ورد : « **وأُقدم إليك صلواتي بصفة أخص من أجل اتحاد كلِّ الكاثوليك ، ومن أجل محاربة الإسلام** » .

وقال : « بهذا تغذي الكنيسة مؤمنيها وهم في وسط إسلامي ، لا تكمن

---

(٤٧) وهم اليوم نحو مليار مسلم .
(٤٨) ابن باديس : ٥٠٧/٣
(٤٩) ابن باديس : ٤٩٢/٣ و ٤٩٣

سعادته وهناؤه إلاّ بتعاون سكانه فيه بروح التسامح والتواد ، وتملأ صدورهم بهذا التّعصب الممقوت ضدّ قوم مسالمين ومستضعفين فلا يدري إلا الله ، كم أثمرت هذه التغذية الخبيثة من علقم ، كان وزر من جرعه ومن تجرعه على من بثّوه في النفوس ، ومكنوه من القلوب .

حاشا للأُصول الأُولى لتلك الملة أن تأمر بهذا ، فقد عرفوا ما جاء في [متى : ٤٤/٥] : « وأمّا أنا فأقولُ لكم أَحِبُّوا أعداءَكُم ، بارِكُوا لاعنيكُم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلُّوا لأَجلِ الَّذينَ يُسيئونَ إليكم ويطردونكُم » ، ولكن الرؤساء الذين يريدون المحافظة على مصالحهم ويرون أن محبة أتباعهم لهم تكون بقدر بغضهم للإسلام ، هم الذين يحملون مسؤولية هذا ويبوؤون بإثمه .

نكتب هذا ليطلع قراؤنا على حقائق واقعية ، تتصل بالحياة الاجتماعية بينهم وبين من يساكنوهم في وطنهم ، وليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله عليهم ، بما شرعه لهم من أصل التّسامح العظيم ، فيزدادوا به تمسكاً ، فيعيشوا سالمي الصدر من الحقد الديني ، والتعصب الممقوت ، وليعرف الذين يبثون تلك السّموم ، أن أعمالهم لا تخفى على غيرهم ، فعسى أن يقلعوا عنها ، ويرجعوا للعمل معنا على بث التّسامح بين عباد الله ، والله يهدي من يشاء إلى سداد السبيل »[٥٠] .

---

(٥٠) ابن باديس : ٤٩٣/٣ ، وقد نشر الكتاب في صفحة ٤٩١ وثيقة عن (صدى الكنسي لقسنطينة وبونة) ، تبيّن كلمات الصّلاة اليوميّة للأحد ٩ فبراير (شباط) ١٩٣٦ م ، وتبيّن الوثيقة أيضاً أن غاية التّبشير ، النّضال ضدّ الإسلام ، ويرى العلامة ابن باديس غرابة الأمر ، ففي العالم الإسلامي كثير من المجلاّت الّتي يصدرها رجال من أهل العلم الدّيني ، وفي مقدّمتها (مجلّة الأزهر) ، لا تجدها تعرض للبحث في النّصرانيّة ! إلاّ إذا اضطرت للدفاع عن المطاعن الّتي توجهها من حين إلى آخر أعداء الإسلام ، أمّا الهيئات الدّينيّة النّصرانيّة ، فإنّ لكلّ هيئة منها مجلّتها ، ويكاد لا يخلو عدد منها من الكلام عن الإسلام وتصويره بالصّورة المنفّرة البغيضة =

كما حاولت فرنسة الوقيعة بين البربر والعرب ، وتقطيع أواصر العقيدة بينهما . فقال في مقال بعنوان : (ماجمعته يد الله لاتفرقه يد الشيطان) : « إنَّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ (البربر) قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشر قرناً ، ثم دأبت القرون تمزج مابينهم في الشِّدَّة والرَّخاء ، وتؤلف بينهم في العسر واليسر ، وتوحدهم في السرَّاء والضرَّاء ، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً ، **أمُّه الجزائر ، وأبُوه الإسلام** ، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون ، بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف ، لإعلاء كلمة الله ، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدَّرس لخدمة العِلْم .

فأي قوة بعد هذا - يقول عاقل - تستطيع أن تفرقهم ؟ لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع ، يا عجباً ! لم يفترقوا وهم الأقوياء ، فكيف يفترقون وغيرهم القوي ؟ كلا والله ، بل لاتزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلاَّ شدة في اتحادهم ، وقوة لرابطتهم ، ذمتي ماأقول رهينة وأنا به زعيم ، والإسلام له حارس ، والله عليه وكيل » .

ولم يكن رحمه الله منفصلاً عن أحداث المشرق العربي ، فله مقالات ومقالات كثيرة ، توضح دون لبس ارتباطه ، **وارتباط جمعية العلماء المسلمين**

= المثيرة للأحقاد ، والحاملة على التَّعصب ، حتى إنَّهم قد يجعلون لأتباعهم دعوات تكرَّر في أوقات مخصوصة ضدّ الإسلام والمسلمين ، بدليل الوثيقة السَّابقة .

إنَّ دُور التَّبشير الَّتي تروِّج لهذا النَّوع من التَّعصُّب ، تشهد لها ضواحي (وهران) بقصة رجل وقف على باب إحدى هذه الدُّور ، يطلب لقمة يسدُّ بها رمقه عام المجاعة الكبرى : ١٨٦٧ - ١٨٦٨ م ، هشَّ له أحد المبشِّرين ، ورحَّب به ، وأدخله حجرة أُعدَّت بها مائدة حافلة بأنواع الطَّعام ، وقال له رجل الدِّين المبشِّر : « لا يأكل هذا الطَّعام الشَّهي ، إلاَّ من دخل الدِّين المسيحي » ، وعند ذلك انسحب الرَّجل ، ولم يكد يبتعد عن الكنيسة بضعة أمتار ، حتَّى سقط على الأرض جثَّة هامدة ، (من كتاب الجزائر ، ص : ٥٠) .

الجزائريين بفلسطين ، وهو يقرن بين الزوجين المشؤومين : (الصهيونية والاستعمار) ، ويحملهما البلاء الّذي حلّ في فلسطين . وبرقيته الّتي احتج بها على التّقسيم باسم شعب الجزائر المسلم ، أرسلها إلى وزير الخارجية الفرنسية ، نشرت في « البصائر » العدد ٧٩ ، الجمعة ١٢ جمادى الثانية ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

☆ ☆ ☆

هذه جوانب بسيطة من حياة وأفكار الشيخ العلامة ابن باديس ، تعطينا فكرة ، وخطوطاً عامة ، لهذا الرجل الّذي كان أُمّة وحده ، استطاع بمفرده أوّلاً ، وبمساعدة إخوانه من العلماء ثانياً ، أن يقوم بتربية جيل ، وتكوين أمة ، وتبصيرها بشخصيتها ومقوماتها ، وهو الّذي استطاع أن يضع **أُصول نهضة الجزائر الفكريّة ، والاجتماعيّة ، والأخلاقيّة ، والسّياسيّة ، على أساس الإسلام .**

إنّ الثّورة الجزائرية العظيمة في جوانبها النّفسيّة ، وقوتها المعنوية الّتي تتمثّل في كلمة (الجهاد) ترتد إلى عمله التّربوي الخاص والعام ، تربية الجيل في المدارس ، وتربية الأُمة في المساجد ، ورحلاته في مختلف أنحاء الجزائر . إن ابن باديس قام بعملية التّربية والتّوعية ، تلك العملية الّتي ترى أعمق نشاطه يؤديه الكائن البشري على الإطلاق ، لأنه به تصنع المادة البشرية الصالحة ، ويصوغ الذّات الاجتماعيّة النافعة ، ويبني الشخصية المتكاملة الشاعرة وذاتيتها وحريتها[٥١] .

لقد عاهد الشعب قائلاً : « إنّي أُعاهدكم على أن أقضي بياضي على العربية والإسلام ، كما قضيت سوادي عليهما ، وإنهما لواجبات ، وإني سأقصر حياتي على

(٥١) ابن باديس : ١٢٠/١ بتصرُّف .

الإسلام والقرآن ، ولغة الإسلام والقرآن هذا عهدي لكم ... أطلب منكم شيئاً واحداً ، وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ، ولغة الإسلام والقرآن » .

رحم الله ابن باديس العلامة الثَّائر ، رائد النهضة الحديثة بالمغرب العربي ، وقائد الحركة الإصلاحية ومؤسسها بالجزائر ، رحمه الله في الخالدين ، فقد عاش للإسلام والعروبة ، ونشَّأ جيلاً كان هتافه في مدارسه صباحاً أبياتاً من شعره ، يستهلون يومهم بها :

شَعْبُ الْجَزائِرِ مُسْلِمٌ	وَإِلى العُروبَةِ يَنْتَسِبْ
مَنْ قالَ: حادَ عَنْ أَصْلِهِ	أَوْ قالَ: ماتَ، لَقَدْ كَذَبْ
أَمْ رامَ إِدْماجاً لَهُ	رامَ الْمُحالَ مِنَ الطَّلَبْ
مَنْ كانَ يَبْغِي وُدَّنا	فَعَلى الكَرامَةِ وَالرَّحَبْ
أَوْ كانَ يَبْغِي ذُلَّنا	فَلَهُ الْمَهانَةُ وَالعَطَبْ
فَإِذا هَلَكْتُ فَصَيْحَتِي	تَحْيا الْجَزائِرُ وَالعَرَبْ

رحم الله ابن باديس فقد كان رجلاً طوى الاندماج والفَرْنَسَة ، وجعلها تاريخاً في كتب تدرس ، لقد حقق نصر ثورة الجزائر ، عندما حقق ذاتية الأمة بتمسكها بدينها وعروبتها .

☆ ☆ ☆

- ولإتمام البحث لابدَّ أن نذكر ، من علماء الجزائر الذين قادوا حركة الجهاد ضدَّ المستعمر :

الشيخ **صالح بن مهنا** ، (توفي في ربيع الأول ١٣٢٥ هـ وقبره معروف بمقبرة قسنطينة) .

الشيخ **عبد القادر المجاوي** ، الذي ألف كثيراً من الكتب المدرسيَّة والتَّربويَّة ، مما يدل على أنَّه ذو اهتمام بالغ بالتربية . ولد سنة ١٢٦٦ هـ[٥٢] /

(٥٢) أو في ١٢٦٧ هـ ، توفي سنة ١٣٣٢ هـ/١٩١٣ م .

١٨٤٨ م ، (بتلمسان) ، حفظ القرآن ، وأكمل دراسته بالقرويين . ومن أفكاره الرَّائعة : التَّعليم القديم غير نافع في زمـاننـا لنقصانـه . إن تعلم القرآن وحده على الكيفية المألوفة عندنا بهذه الأقطار ، لا يفيد المتعلم ولا أباه ، فلا بد من معرفة العلوم النافعة في الدِّين والدُّنيا ، أما إذا اقتصرنا على أحد العِلْمَيْن ، ضاع ما يفتقر لذلك العلم المجهول ، ولكن أهل زماننا تركوا العِلْمَيْن معاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[٥٣] .

ـ وتحدث الشيخ عن تعليم المرأة ، وضرورته لأنَّه أساس التَّربية .

ـ ولم يغفل الشيخ عبد القادر المجاوي عن جانب مهم من الحياة الاجتماعية ، وهو خطبة الجمعة ، فدعا لإصلاحها ، وأشار إلى الحضارة الإسلامية وتاريخها واستشهد بأقوال الأجانب ، مما يدل على اطلاعه على دراستهم .

ترك من بعده من يواصل رسالته كالشيخ **حمدان لونيسي** ، وهو أستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس ، والشيخ **أحمد لحبيباتي** ، والشيخ **المولود بن الموهوب** مفتي قسنطينة المالكي . ومن غريب المصادفات أنه في السنة نفسها التي توفي فيها الشيخ عبد القادر المجاوي ، ابتدأ عبد الحميد بن باديس حركته التعليمية بمدينة قسنطينة .

لقد لقي المجاوي في حياته إهانات وصعاباً من السلطة الاستعمارية ، الَّتي طفقت تنقله من مكان إلى آخر ، حتَّى قيل أنه مات مسموماً ، حسب رواية الشيخ **إبراهيم اطفيش** ، وهو من تلامذته .

وتدلنا وثيقة عثر عليها في آثاره ، أنَّه كان يبغض اليهود ، ويقاوم العنصر الصهيوني ، فقد شعر بخطره على المسلمين .

---

(٥٣) ابن باديس : ١٩/١ وما بعدها ، عن (اللُّمع في نظم البدع) ، ص : ٣٠

وظهر بـالجنوب الجزائري الشيخ **إبراهيم مكي** ، والشيخ **علي بن ناجي الزهراوي** ، والشيخ **المولود الزريبي** ، الّذي درّس على الشيخ **حامد العبيدي** بعد حفظه القرآن الكريم ، ثم درّس في مصر على الشيخ **محمد بخيت** ، ثم رجع إلى الجزائر حيث تولى تحرير جريدة (**الصديق**) التي يديرها **محمد بكير الميزابي** ، وتولى التدريس في الجامع الأعظم بالعاصمة ، توفي سنة ١٩٢٥ م[٥٤] .

الشيخ محمد بن علي السنوسي ، الّذي اعتقد أنّ الدّعوة الأخلاقية والتّجديد الروحي ، هما الأساس للتحرر من السلطة الأجنبية .

الشيخ عبد الحليم بن علي بن سماية ، الذي ولد بالجزائر عام ١٢٤٢ هـ/١٨٦٦ م ، حفظ القرآن الكريم على الشيخ **حسين أبي شاشية** ، وأخذ العربية والفقه والتوحيد على والده ، والمنطق والبلاغة عن الشيخ **طاهر تيطوس** ، والحساب والفرائض عن صهره علي بن حموده ، وتتلمذ على الشيخ **ابن موسى الجزائري** ، **والمكي بن زعرور** ، **وأبي القاسم الحفناوي** ، **والسعيد بن زكري** .

علم جيلاً من الطلاب في المدرسة الثعالبية ، حفظوا العربيّة في العاصمة الجزائريّة فترة من الزمن ، وتمسكوا بعقائد الإسلام .

مرض مرضاً عقلياً ، لشدة ويلات الاستعمار الفرنسي واضطهاده إياه ، توفي عام ١٣٥١ هـ/١٩٣٣ م .

الشيخ **محمد بن مصطفى بن الخوجه** ، الّذي عرّف الناس بالجزائر بمحمد عبده ، وأستاذه الأفغاني .

والشّيخ **محمد بن القائد علي** ، إمام الجامع الجديد في الجزائر .

---

(٥٤) ابن باديس : ٢٦/١ و ٢٧

عمر بن قدور ، وهو مؤدب يقرئ القرآن الكريم ، ويعتبر هذا الرجل من المدرسة الإصلاحيَّة المتأثرة بمحمد عبده (بالمنار) ، أصدر صحيفة **(الفاروق)** سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٣ م ، لم تعش هذه الصحيفة طويلاً ، فقد أبعدت السُّلطات الفرنسيَّة صاحبها إلى (الأغواط)[٥٥] سنة ١٩١٥ م .

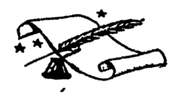
الشَّيخ **عبد الحفيظ الهاشمي** ، الذي أصدر جريدة **(النجاح)** .

الشَّيخ **محمد السعيد الزاهري** ، صاحب جريدة (الجزائر) ، وقد عطلتها الحكومة الفرنسيَّة .

أصدر الشَّيخ **العقبي** والشيخ **أحمد العابد** جريدة (صدى الصحراء) ، ثم (الإصلاح) .

وأصدر الشَّيخ العلامة الصحفي **أبو اليقظان** جريدة (وادي ميزاب) سنة ١٩٢٦ م ، عطلتها السُّلطات الفرنسيَّة ، فأصدر بعدها جريدة (ميزاب) فصودرت ، فأصدر بعدها (المغرب) ثم عطلت فأصدر (النور) ثم (النبراس) .. وهذا يدل على أهميَّة الصحافة في اليقظة العربيَّة الإسلاميَّة في الجزائر .





---

(٥٥) الأغواط : واحة في صحراء الجزائر ، يعمل أهلها في زراعة الحبوب والنَّخيل وتربية الماشية .

الشيخ محمّد بَشير الإبراهيميّ

« إن الإبراهيمي وعــاء من العلم والمعرفــة والـذكاء ، وإنـا لنرجـو على يـده خيراً كبيراً للإسلام والجزائر » .

ابن باديس

ولـد الشيـخ محمـد البشير الإبراهيمي سنـة ١٨٨٩ م ، في السنـة التي ولـد فيهـا الشيخ ابن باديس ، وذلـك في قريـة (قصر الطير) من نواحي (سطيـف)[٥٦] ، فحفظ القرآن الكريم ، وأخذ بعض علوم العربيَّـة والـدِّين على بعض شيوخ ذلـك العهد ، ثم هاجر إلى المـدينـة المنوَّرة حيث تـابع الـدَّرس والتَّحصيل ، ثم عـاد إلى الجزائر ليحتل دوره في نشر العلم والفضيلـة ، ويـوجـه بـأسلـوبـه البليـغ ، وقلمـه السَّيـال جمـوع المتعلمين ، ونخبـة المتـأدبين إلى الأدب الرَّفيـع والتفكير الصحيـح ، والتَّعمق في فهم الإسلام .

تَمَّ بين الأستــاذين الكبيرين ـ ابن بــاديس والإبراهيمي ـ اجتماع في (برج بوعريرج) ، وكان من نتائج اجتماعهما ميلاد جمعيـة العلمـاء المسلمين الجزائريين ، الَّتي كانت « نقطة انطلاق لنهضة عربيَّة إسلاميَّة جزائريَّة ، وفاتحـة عهـد جـديـد للجـزائر الحـديثـة ، الَّتي احتفـل الاستعمار في تلـك الأيـام نفسهـا بمرور قرن على احتلال فرنسة لها ، ظاناً أن هذا الاحتلال قد ختم على الجزائر ، وجعلها نهـائيـاً ، قطعـة من فرنسـة ، فـإذا هو بـدايـة انهيـاره ، وخطـوة أولى نحـو نهـايتـه وسـوء مصيره »[٥٧] .

---

(٥٦) سطيف Setif : مـدينـة في الجـزائر ، عـاصمـة ولايـة سطيف في جبـال الأطلس ، وهي عقـدة مواصلات ، ومركز هام لتجارة الحبوب والماشية .

(٥٧) راجع (العربي) العدد ١٣٠ ، شعبـان ١٣٨٨ هـ ، نوفمبر (تشرين الثَّـاني) ١٩٦٨ م ، ص ١٣٥ ، مقـال (الشَّيخ محمـد البشير الإبراهيمي) ، للأُستـاذ بـاعزيز بن عمر صِدّيـق الإبراهيمي ، تلميـذ الشيخ ابن باديس .

لقد أقلق الشرطة السِّريَّة الفرنسية لقاء الأستاذين ، وتعقَّبت تحركات ابن باديس وتنقلاته داخل مقاطعة قسنطينة وخارجها ، واستعملت جميع ما لديها من وسائل لالتقاط ما يجري بين ابن باديس والإبراهيمي . ومما قاله الإبراهيمي في هذه الفترة : « إننا نعمل وهم يعملون » . وصدق فيما قال ، فلم تكد فرنسة الاستعمارية تستفيق من نشوة الاحتفال بمرور قرن على احتلال الجزائر ، حتَّى رأى الاستعمار ما كدر سروره بعيده ، وزعزع أركانه وأطار نومه إذا استحالت الفكرة إلى حقيقة ، فظهرت (جمعية العلماء) إلى الوجود ، فكان ظهورها ردَّ فعل قوياً لسياسة الإدماج ، ونقطة انطلاق ، وبداية تاريخ ، وميلاد نهضة .

وظل الإبراهيمي منذ ذلك الحين يحتل مكان الصدارة في (جمعية العلماء) كنائب لرئيسها ابن باديس ، ولما توفي ابن باديس ، تسلم مقاليد رئاسة (جمعية العلماء) . وهو أولاً وأخيراً يقدم (للبصائر) روائع من علمه وأدبه ، ويوجه بأسلوبه البليغ على صفحاتها جيل الشباب الجزائري ، نحو التَّحرر والتَّمسك بالإسلام وبعروبة الجزائر . وهو يرى أن للقلم أمانة يجب أداؤها ، فمن عجز عن مراعاتها وحفظها حين يكتب فحقه أن ينحي القلم عن أنامله ، ويريح القراء من أباطيله . وإنَّ حملة الأقلام يجب أن يؤدوا رسالتهم على الوجه الأكمل ، ولن يكونوا كذلك إلا إذا تجنبوا خيانة أقلامهم فيما يكتبون .



وبعد ...

هذه جوانب من حركة التَّحرر في الجزائر ... لقد اصطبغ فيها الاتجاه الفكري بالصبغة العملية ، واحتفظت فيها العقيدة ، بصلابتها كما كانت في صدر الإسلام الأوَّل .

لم يكتف الإسلام ، بإعادة الجزائر إلى عروبتها وذاتيتها ، بل كان طموحه

بأن يدخل إلى نفوس المستعمرين أنفسهم ، لقد لاحظ المستشرق الفرنسي ماسينيون ذلك وقال : إنَّ الشُّعور الإسلامي في الجزائر له صفة خاصة ، عاطفة غريبة جداً ، وهي طموح المسلمين ، لأن يدخلوا الإسلام ويشقوا له طريقاً في عقول الفرنسيين وأرواحهم وأنفسهم(٥٨) . ويساعد على ذلك وجود كتاب مسلمين يجيدون الفرنسية أيما إجادة ، وهذا ملاحظ على إسلام بعض الفرنسيين من الرجال والنساء(٥٩) .

إنَّه الإسلام ، الدِّين الزَّاحف ، ولو في أشد أزماته . وسيبقى التَّاريخ العربي يفخر بالعلامة الشيخ ابن باديس ، والشيخ الإبراهيمي وزملائهما العلماء ، فقد بذروا ، ونبت زرعهم واخضرّ وأورق وسنبل وآتى أُكُلَه . فسلام عليهم في الخالدين .

---

(٥٨) انظر كتاب (محمد رسول الله) للفرنسي المسلم (إيتين دينييه) ، الَّذي تسمَّى بناصر الدِّين دينييه ، وأعلن إسلامه بالجامع الجديد في مدينة الجزائر ، في اجتماع حافل عام ١٩٢٧ م ، وطلب أن يدفن في بلدة (بوسعادة) بالجزائر .
ورينيه جينو (الشَّيخ عبد الواحد يحي) ، العالم الفيلسوف الحكيم .
والدكتور جرينييه ، عضو مجلس النُّواب الفرنسي .
ولإسلام الكونت هنرى دي كاستري ، قصة طريفة هي : كان من كبار الموظَّفين بالجزائر ، وكان يسير ممتطياً صهوة جواده ، ويسير خلفه ثلاثون من فرسان الجزائر الأقوياء ، فخوراً بمركزه ، وفجأة وجدهم يقولون له في كثير من الاعتداد بالنَّفس : لقد حان موعد صلاة العصر ، ودون أن يستأذنوه في الوقوف ، ترجَّلوا واصطفُّوا للصَّلاة ، ودوَّت في أرجاء الصَّحراء كلمة الإسلام الخالدة : (الله أكبر) ، شعر الكونت في هذه اللَّحظة بشيء من المهانة في نفسه ، وبكثير من الإكبار والإعجاب بهؤلاء الَّذين لا يبالون به ، ذلك لأنَّهم اتَّجهوا إلى الله وحده ، بكلِّ كيانهم ، وبدأ يتساءل : ماالإسلام ؟ أهو ذلك الدِّين الَّذي تصوِّره الكنيسة في صورة بشعة ، تنفر منها النَّفس ، ولا يطمئن إليها الوجدان ؟ وبدأ يدرس الإسلام ، وتغيَّرت فكرته عنه ، ورأى من واجبه أن يعلن مااهتدى إليه ، فكان كتاب : (الإسلام : خواطر وسواغ) ، حيث سخر فيه من آراء رجال الكنيسة وتهكَّم عليهم .

(٥٩) ابن باديس : ٦٢/١

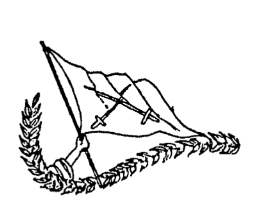
ومن السخف أن نتساءل بعد هذا كلّه : هل قام الإسلام بدوره المطلوب في الجزائر ، وكان قوة محت الفَرْنَسَة والاندماج ، وصنعت الاستقلال ؟؟

إن ماعرضناه بوثائقه منذ عام ١٨٣٢ م حتى الثَّورة الجزائريَّة الكبرى ، لايحتاج إلى تعليق ، ولا إلى (تحليل علمي !) ، لنخرج بنتائج استهدفناها مسبقاً ، وسعينا إليها ، وأصابنا نصب في التأويل والتضليل كي نصل إليها !! إنها أوضح من أن توضح ، **لقد أحبط الإسلام مشاريع فرنسة في الجزائر** .

وليس لنا إلاَّ أن نهتف مع شعب الجزائر العربي المسلم عندما نال استقلاله ، لقد هتف باحتفالاته في عيد استقلاله ، بعد أن قدم مليون شهيد مجاهد ، وخرجت فرنسة وتبشيرها وجيشها مدحورة ، فقال :

« يامحمَّد مبروك عليك ، الجزائر رجعت إليك »(٦٠)

☆ ☆ ☆



---

(٦٠) هذا الهتاف سمعته د . بنت الشَّاطئ في رحلتها إلى الجزائر بعد الاستقلال ، لاحظ أن الاستقلال اعتُبر عودة إلى الإسلام : (يامحمَّد مبروك عليك ، الجزائر رجعت إليك) ، بعد أن كانت الجزائر بيد صليبيَّة تبشيريَّة ، (الجزائر ، ص ٧) .

تونس

خَرَّج جامع الزيتونة بالأمس ابن خلدون ، وابن رشــد ، ويخرِّج اليــوم ابن بـــاديس والشيخ عبد العزيز الثّعالبي .

إذا كانت ثلاث من الدول الكبرى ، هي : بريطانية وفرنسة وإيطـاليـة قـد تنـافست على النفـوذ الاقتصـادي في تـونس ، فـإنَّ الأخيرتين انفردتـا بـالأطماع السِّياسيَّـة ، فرنسـة بحكم وجودهـا في الجزائر ، وإيطـاليـة بحكم قرب أراضيهـا من تونس . وكان على كلٍّ من الـدَّولتين ، أن تجـد التـأييـد الـدَّولي ، لتحقيـق تلـك الأطماع ، نظراً لأهميَّة موقع تونس .

رجحت كفة إيطالية في أوائل السَّبعينـات من القرن المـاضي ، وسنحت لهـا فرصة سنة ١٨٧٨ م ، حينما عرضت النِّمسة فكرة تأييد إيطالية لهـا في (البوسنـة والهرسك)[١] ، مقابل طرابلس الغرب ، أو تونس .

ولما عقد (مؤتمر برلين) سنة ١٨٧٨ م تحققت فيه عدة مساومات على حساب الدَّولة العثمانيَّة ، ولذلك عُدَّ هذا المؤتمر ، نقطة تحول في تـاريخ المسـألـة التُّونسيـة لصالح فرنسة . فقد استطاعت بريطانية أن تثير على انفراد المسـألـة التُّونسيَّـة مع فرنسة ، بمناسبـة أُخرى تتعلق بتنـازل الـدَّولـة العثمـانيَّـة عن جزيرة قبرص لهـا ، نظير التأييد الَّذي لقيته منها أثناء الأزمة الرُّوسيَّة العثمانيَّة .

وهكـذا ... استغلت الـدُّول الكبرى ظروف هزيـة الـدَّولـة العثمـانيَّـة أمـام القياصرة الرُّوس ، فالنمسة استولت على (البوسنـة والهرسـك) ، وإنجلترة وضعت

---

(١) البوسنة والهرسك : في البلقان ، إلى الغرب من بحر إيجة ومرمرة .

يدها على قبرص ، ضاربة عرض الحائط بمبدأ المحافظة على سلامة أراضي الدَّولة العثمانيَّة . فماذا كسبت فرنسة من هذا المؤتمر[٢] ؟

لقد فكرت ألمانية وانجلترة بما يسمى (التَّعويض التُّونسي) ، وعبر (بسمارك)[٣] عن موقفه بقوله لوزير خارجيته (وادنجتون) : « إنَّ الكمثرى التُّونسيَّة ناضجة » .

وفي تصريح ٢١ تموز (يوليو) ١٨٧٨ م ، جاء تنويه بمهمة فرنسة (الحضاريَّة) في شمال إفريقية : « إذا كان للنمسة أن تقوم بمهمة حضارية في (البَلْقان)[٤] ، وإنجلترة في (آسية الصُّغرى)[٥] ، فأمام فرنسة مهمة أعظم في شمال إفريقية ؛ افعلوا ما شئتم في تونس ، فستضطرون يوماً للاستيلاء عليها ، لأنكم لن تستطيعوا ترك (قرطاجة)[٦] بيد البرابرة »[٧] .

ولما تولى (جيل فري) رئاسة الحكومة في فرنسة ، رأى الظروف مهيأة بدرجة كافية لاحتلال تونس ، بعد تغلغل فرنسة الاقتصادي ، ووجود طبقة عسكريَّة فرنسيَّة مع آلاف المستوطنين الأُوربيين في الجزائر ، الَّذين كانوا (يكرهون) وجود دولة إسلامية مستقلة مجاورة .

---

(٢) المغرب العربي ، د . صلاح عقاد ، ص : ١٨٨ وما بعدها .

(٣) بسمارك Bismarck [١٨١٥ ـ ١٨٩٨ م] : من مشاهير السِّياسيين الألمان ، ومحقِّق الاتحاد الألماني في القرن التاسع عشر .

(٤) البلقان : منطقة جبلية (٢٣٨٥ م) يحدُّها شرقاً البحر الأسود ، وغرباً الأدرياتيك .

(٥) آسية الصُّغرى : تركية حالياً .

(٦) قرطاجة Carthage قرب مدينة تونس ، فيها أنقاض مدينة فينيقيَّة ، صارت عاصمة إمبراطوريَّة عظيمة قاومت رومة في الحروب البُونيَّة .

(٧) المغرب العربي ، ص ١٩١ ، و (البرابرة) هنا سكان تونس العرب المسلمين ، الَّذين نشروا الحضارة والعلم في صِقِلِّيَّة ، وجنوبي إيطالية ، وجنوبي فرنسة .. ومن هذه البقاع تحديداً بدأت نهضة أُوربة بعد غفوتها في عصورها الوسطى المظلمة !!

وجـد (جيل فري) أمـام الرَّأي العـام الفرنسي نوعين من المبرزات لاحتلال تونس :

١ ـ ازدياد النفوذ الإيطـالي في تونس .

٢ ـ اعتناق التُّونسيين لفكرة الوحدة الإسلامية .

ـ فبالنسبـة للنفوذ الإيطـالي : بـالغت الصحف الفرنسيَّـة في تصوير زيـارة ملك إيطالية (امبرتو) لصقِلِّيَّة ، القريبـة جـداً من تونس ، وتحـدثت عن وجود حشود على الحدود التُّونسيَّة .

ـ وبالنِّسبة للوحدة الإسلاميَّة ، كانت الطَّريقة السَّنوسيَّة أكثر البيئات تـأثراً بها ، وعملت للدعاية لها في شمالي إفريقية . لذلك حمَّل الفرنسيون تلك الـدعـايـة السنوسية مسؤولية مقتل أعضاء بعثة (فلاترز) الاستكشافية في الصَّحراء الكبرى أوائل سنة ١٨٨١ م[٨] . فكان هذا الحادث من بين الحجج الَّتي قـدمهـا المستوطنون الفرنسيون للمطالبة بتعجيل احتلال تونس .

(والحجَّـة القويَّـة) الَّتي استنـد إليهـا (جيـل فري) والَّتي استطـاع إقنـاع مجلس النُّواب ، باعتماده المبالغ اللازمة لحملة تأديبية ، كانت تتعلق ببعض حوادث الحـدود ، وليست هـذه الحوادث بـالجـديـدة فهي قـديمـة قـدم الاحتلال الفرنسي للجزائر . ووقـع اختيـار (فري) على قبـائـل الكَرْمِيِّين ، لينسب إليهم حـوادث العـدوان في أوائـل سنـة ١٨٨١ م . وعلى أثر الضجَّـة الَّتي أثـارهـا (فري) حـول حـادث اعتـداء الكَرْمِيِّين ، قـدم مشروعـاً إلى مجلس النُّواب لاعتماد خمسـة ملايين وست مئة ألف فرنك للقيام (بحملة تأديبية) على القبائل التُّونسيَّة الْمُعتدية .

---

(٨) المغرب العربي ، ص ١٩٩ ، ولو لم يلمس السُّكان من هذه البعثة تبشيراً ، بحجة الكشف الجغرافي الَّذي كان شعاراً ، لما قُتِلَ أعضاؤها ، لقـد كانت هـذه البعثـات لاستكشـاف طرقٍ في إفريقيـة للمبشِّرين لاللمدنيَّة ، (انظر : التَّبشير والاستعمار ، د . خالدي ، ود . فرُّوخ ، ص ٥١) .

خصص مليوناً وست مئة ألف فرنك للبحرية الفرنسيَّة الَّتي ستهاجم تونس ، ومن الملاحظ أن تأديب قبائل الكرميين عبر الحدود الجزائرية ـ التونسية لا يحتمل اشتراك هذا السلاح .

أدرك الكرميون مغبة الموقف ، فأرادوا تفويت الفرصة علىٰ التونسيين وتفنيد حجتهم ، فعرضوا على (الباي) ـ حاكم تونس ـ تسليم بعض الرهائن منهم دليلاً على خضوعهم لسلطته ، لكن شيئاً من هذا لم يحول الفرنسيين عن خطتهم . خاصة وإن الموقف الدولي إلى جانبهم . فإيطالية لم تكن مستعدة وحدها للاشتباك مع فرنسة ، فأحس الرأي العام الإيطالي بمرارة شديدة وهو يرى قرب ضياع تونس .

أما بريطانية ، فإن رئيس وزرائها (غلادستون)[9] الَّذي نشأ قسيساً ، كان معروفاً بعدائه الشخصي للعالم الإسلامي كله ، لذلك أجاب على نداء الحكومة الإيطالية بقوله : « إن مجاورة أُمَّة متمدنة لدولة متأخرة ، لابدَّ أن يؤدي إلى مثل هذا التدخل » ، لذلك قامت فرنسة مع بريطانية بمظاهرة بحرية أمام الشَّواطئ التُّونسيَّة ، وحددت بريطانية هدف هذه التظاهرة « بأنه حماية للرعايا الأُوربيين من تعصب المسلمين »[9] .

وفي ٢٤ نيسان (ابريل) ١٨٨١ م ، اجتاح ٣٠٠٠٠ جندي فرنسي بقيادة (فورجمول) حدود تونس ، ونزلت قوات فرنسية بميناء (بنزرت) في أيار « مايو » ، فاتضحت أهداف الحملة البعيدة ، وأنها تقصد مدينة تونس لإملاء شروطها . وفي ١١ أيار وصلت القوات الفرنسية أمام قصر الباي (محمد الصادق) ، المعروف بقصر (الباردو) على بعد عشرين كيلومتراً من تونس ، وتقدم الجنرال (بريار) يحمل نص معاهدة وضعها (جيل فري) لتنظيم

(٩) المغرب العربي ، ص ٢٠٣

العلاقات تحت الاحتلال وأعطي مهلة خمس ساعات فقط ، فلم يكن أمامه إلاَّ الرُّضوخ ، وتحت الضغط وقع محمد الصادق باي تونس معاهدة الحماية في ١٢ أيار « مايو » ١٨٨١ م .

☆ ☆ ☆

المقاوَمَة :

شجع التونسيين على الثورة ، عاملان :

١ ـ قيام ثورة في الجزائر ، هي ثورة (بوعمامة) في جنوب (وهران) في صيف ١٨٨١ م .

٢ ـ إحساس التونسيين بأنَّ القوات العثمانية المرابطة في طرابلس الغرب ستؤيدهم ، أو على الأقل ستؤويهم إذا فشلوا في حركتهم ، لذلك كان القسم الجنوبي من تونس هو المسرح الرئيسي للثورة ، وبخاصة في مدينة (القيروان)[١٠] المشهورة في شمال إفريقية كلِّها بمكانتها الدِّينيَّة والتَّاريخية العظيمة ، فهي أول مدينة إسلاميَّة بناها عقبة بن نافع ، عندما فتح المسلمون البلاد ، وهذا يدل على أهمية الباعث الديني في حركة المقاومة . ومن (القيروان) امتدت الثَّورة إلى السَّاحل الجنوبي ، فاحتل الثوار ميناء (صفاقس) ، وطردوا منه نائب الباي ، الَّذي أصبح في نظرهم خائناً بقبوله التوقيع على معاهدة الحماية ، ونادوا بأحد رؤساء القبائل (علي بن خليفة) أميراً عليهم .

حشدت فرنسة خمسين ألف جندي ، أُرسلوا إلى تونس تحت قيادة الجنرال (سوسييه) ، وقد ركزت جميع الجهود للاستيلاء على (القيروان) عاصمة الثوار .

(١٠) القيروان : بدأ بناؤها سنة ٤٩ هـ/٦٦٩ م ، وانتهى بعد أربع سنوات ٥٣ هـ/٦٧٣ م ، بناها الفاتح المسلم عقبة بن نافع ، أشهر مافيها جامعها ، حتَّى قيل : لم يبنِ عقبة مدينة لها جامع ، بل بنى جامعاً له مدينة ، ويقال إن قيروان كلمة فارسيَّة ، تعني (القافلة) .

وفي ٨ حـزيران ١٨٨٣ م وقعت معـاهـدة (المرسى) ، مكملـة لمعـاهـدة (الباردو) فوسعت فرنسة بذلك اختصاصات الحماية .

☆ ☆ ☆

إنَّ السِّياسة الاستعمارية الفرنسيـة ، الَّتي انتهجتهـا في تونس وشمالي إفريقيـة بشكل عـام ، كانت ترمي إلى تكوين جمـاعـات منفصلـة عن مقومـات الشخصيـة الإسـلاميَّـة العربيَّـة ، وإلى دمـج الشَّعب العربي في شمالي إفريقيـة في الحضـارة الأُوربيـة ، والثَّقـافـة الفرنسيَّـة ، عن طريـق نشر اللُّغـة الفرنسيَّـة ، **ومقـاومـة الشَّريعة الإسلاميَّة الَّتي رأت فرنسة فيها ، أنها العقبة الوحيـدة الَّتي تحول دون الإدماج .**

مما سبق ، فإن حركة التَّحرر التُّونسية ، تُرَدُّ إلى أُصول إسلامية بحتـة ، وهي تتمثل :

أولاً ـ في حركـة التَّجـديـد الَّتي انتشرت في المشرق ، سواء كان ذلـك إحيـاء العقيدة ، أم تجديد النظم السياسية .

ثانياً ـ في المراكز الإسلامية العريقة القائمـة في تونس ، وعلى رأسهـا (جـامع الزيتونة) . إن أحد أبناء هـذه المـدرسـة الـدِّينيَّـة ويـدعى **محمد السنوسي** قـدم عريضـة موقعـة من أعيـان البلاد يطـالب فيهـا بـإلغـاء الحكم الفرنسي ، وإحيـاء الدستور .

كما خرَّجت هـذه الجـامعـة شخصيَّـة وطنيَّـة أُخرى ، هي الشَّيـخ **المكي بن عزوز** ، الَّذي اهتمّ بإحياء المبادئ الإصلاحيَّة الَّتي بدأهـا أحـد الوزراء المستنيرين واسمه (خير الدين) .

واستطـاع الأستاذ (علي أبو شوشة) صـاحب جريـدة (الحـاضرة) أن يجمع

من حول جريدته كتلة قوية من أصدقائه ، وغيرهم من مثقفي (الزّيتونة) ، وقاموا بحركة دينية ترمي إلى تقوية روابط القطر التونسي بحركة الجامعة الإسلامية ، وتطالب من جهة ثانية بتنفيذ الدُّستور التُّونسي .

ومن الذين اشتهروا بتحرير هذه الصحيفة ، حتّى صاروا يعرفون باسم (جماعة الحاضرة) : عمر أبو صاحب ، وعلي البقلاني ، ثم **الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي** ، الّذي سيلعب فيما بعد دوراً أساسياً في الحركة الوطنيّة ، بعد الحرب العالمية الأولى .

« إنّ حمق السّياسة الفرنسيّة في تونس ، هو الّذي أعاد الحركة الدّينيّة الوطنيّة في تونس » ، فقد نمت تصرفات الإقامة العامة عن تحدٍّ صارخ لشعور التّونسيين الدّيني والقومي على حدٍّ سواء . ومن أعمال التّحدي هذه نستطيع أن نذكر عدة وقائع[11] :

أوّلاً : إقامة تمثال سنة ١٩٢٥ م في مدينة تونس للأسقف (لافيجري)[12] ، ذلك الأُسقف الّذي اشتهر في تاريخ الجزائر ، بتحمسه الشّديد للتبشير وإغراء أبناء المسلمين بالتّحول عن دينهم .

ثانياً : بمناسبة مرور خمسين عاماً على احتلال البلاد ، أي في سنة ١٩٣١ م ، قررت السُّلطات الفرنسيّة إقامة احتفالات عظيمة ، ودعوة رئيس الجمهوريّة

---

(١١) ترأس المجاهد (علي باش حمبة) التُّونسي جماعة من الأستانة ، لتزويد الثُّوار بالسّلاح ، وذلك عن طريق الغوّاصات إلى طرابلس ، ومنها إلى تونس ، ليكون مندوباً عن الخليفة العثماني لتحرير مسلمي شمالي إفريقية من (الاستعمار المسيحي) ، لكن (علي باش حمبة) لاقى وجه ربّه ، ومغزى هذه المحاولات هو دلالتها على أهميَّة الإسلام في حياة الوطنيّة التُّونسيَّة ، (المغرب العربي ، ص ٣٥١) .

(١٢) لافيجيري Lavigerie [١٨٢٥ ـ ١٨٩٢ م] كردينال فرنسي ، أصبح رئيس أساقفة الجزائر ، أسّس جمعية الآباء البيض سنة ١٨٦١ م للتّبشير .

الفرنسيَّة لزيـارة تونس ، وخُصِّص جزء من الميزانيَّـة الفرنسيَّـة للإنفـاق على هـذه الاحتفالات ، ومما زاد الطين بلة ، أنَّ الإقامة العامَّة اعتمدت لهذه المناسبـة مليوني جنيه ، لعقد مجمع كنسي ، وصفه أحـد الأسـاقفـة بـأنَّـه سيكون مظهراً للصَّليبيَّـة الجديدة المسالمة[١٣] .

☆ ☆ ☆

ومن أبرز العلماء المسلمين في حركة التَّحرر في تونس :

العلّامة الشيخ محمد الخضر حسين

وهو محمـد بن السيـد خضر بن حسين التونسي ، ولـد في بلـدة (نفطـة) من مقاطعة (الْجَّرِيد) بتونس ، سنة ١٢٩٢ هـ الموافق سنة ١٨٧٤ م[١٤] .

لما بلغ الثـانيـة عشرة من عمره ، انتقل مع والـده إلى عـاصمـة البلاد تونس ، والتحق بجامع (الزَّيتونة) أرقى المعاهد الدِّينيَّة في تلك البلاد ، وحصل منـه على الشَّهادة العالية في العلوم الدِّينيَّة والعربيَّة .

تولى القضاء الشَّرعي في مدينة (بنزرت) وملحقاتها سنـة ١٩٠٥ م ، ثم ترك القضاء رغبة منه في التَّعليم ، فعين مدرساً للـدُّروس الـدِّينيَّـة والعربيَّـة في جـامع (الزَّيتونة) ، كما تولى التَّدريس في (المدرسة الصَّادقيـة) ، وأنشـأ مجلـة تسمى : (**مجلة السَّعادة العظمى**) ، فأغلقتها سلطـات الاستعمار الفرنسي ، لمـا تحملـه بين طياتها من تثبيت معالم تونس والشَّمال الإفريقي ، الإسلاميَّة والعربيَّة .

حكمت عليه فرنسة بالإعدام ، لاشتغاله بـالسِّيـاسـة ؛ ولـدعوتـه إلى النضـال

---

(١٣) المغرب العربي ، ص ٣٥٦ ، عن علال الفاسي ص ٦٠ وما بعدها .

(١٤) أعلام الإسلام ، ص ١١٥ ، للأُستاذ عبد الوهاب سكّر .

ضدّ فرنسة . فقد كانت دروسه كلُّها دعوة صريحة للجهاد ضد المستعمر الصَّليبي ، فهاجر مع عائلته إلى دمشق سنة ١٣٣١ هـ ، واتصل بطبقاتها ، فحصلت له المكانة المرموقة عند الجميع ، وتولّى في دمشق التّدريس في المدارس الرّسميّة والأهليّة ، ثم عيّن محرراً في ديوان وزارة الحربيّة التُّركيّة ، وفي إبّان الحرب العالميّة الأُولى ، سافر مرتين إلى ألمانية بمهمة رسمية ، موفداً من قبائل (أنور باشا) وزير الحربية . ولما رجع من مهمته قادماً إلى دمشق ، اعتقله (جمال باشا)[(١٥)] فور وصوله أشهراً بدمشق ، دون سبب ولا موجب ، سوى منعه من التّدريس ، خشية أن يبث أفكاراً تنافي رغبة جمال باشا السفاح ، ثم أُفرج عنه .

غادر دمشق إلى القاهرة لاجئاً سياسياً سنة ١٩٢٢ م ، فراراً من ملاحقة الفرنسيين ، ودخل فحص الشّهادة العالِميّة الأزهريّة ، فاستحقها . ثم عين من قبل وزارة المعارف مصححاً بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، ثم رغب في التدريس ، فعين مدرساً ، وعين عضواً في المجمع اللُّغوي بالقاهرة ، وقدم رسالته العلمية : (القياس في اللُّغة العربيّة) فنال بها عضوية هيئة كبار العلماء ، وفي سنة ١٩٥٢ م اختير لمشيخة الأزهر .

وفي مدة إقامته في القاهرة أنشأ (**جمعية الهداية الإسلاميّة**) ، وأصدر مجلة تحمل نفس الاسم ، واستلم تحرير مجلة : (**نور الإسلام**) ، كما استلم تحريرها حينما سميت : (**مجلة الأزهر**) ، وترأس جمعية جبهة الدّفاع الإفريقي الشّمالي .

توفي يوم الأحد ١٢ رجب ١٣٧٧ هـ الموافق في ٢ شباط ١٩٥٨ م فعليه رحمة الله . لقد عمَّ خيره وجهاده تونس وسوريّة ومصر . فألف تحية (لجامع الزّيتونة) المنتج ، الّذي خرج الجيل الأوّل من المجاهدين العلماء ، الّذين حملوا راية الدفاع

---

(١٥) جمال باشا السَّفّاح [١٨٧٢ ـ ١٩٢٢ م] : القائد العام للجيش العثماني الرّابع ، اشتهر في بلاد الشّام بظلمه وإعدامه لشهداء ٦ أيار سنة ١٩١٦ م ، قُتِل في (تفليس) Tbilissi ، وهي مدينة في جنوب غربي الاتحاد السُّوفياتي ، عاصمة جمهوريّة جورجيا .

عن أرض الوطن قولاً وعملاً ، وكان على رأسهم الشيخ العلامة محمد الخضر الحسين[١٦] ، و :

☆ ☆ ☆

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

نشأ الثعالبي تونسياً ، ودرج للعلم زيتونيّاً ، وتعدت به عبقرية دائرة الكتب الزَّيتونيَّة الدراسيَّة ، فأخذ يتناول كلَّ ماتصل إليه يده من خزانة الجامع ومكتبته العبدلية .. فبرز من جامع الزيتونة نابغة عبقرياً ، غريباً شاذاً بين أهل عصره ، شأن كل نابغة عبقري .

لقي عبد العزيز من الجاحدين والمستبدين ، ما يلقاه مثله ، فهوجم وأُوذي وسجن ، ولكنه لم يتزحزح قيد شعرة عما حبس نفسه عليه من إصلاح المجتمع من جميع نواحيه .

رحل الثَّعالبي إلى الأزهر ، وحضر دروس (الشيخ البشري) ، وعاد إلى تونس وقد فتحت له الرِّحلة عالماً آخر ، وابتدأ تكونه العالمي . ورحل إلى الجزائر والمغرب ، ولما عاد إلى تونس أعطاها حقَّها ، عندما وضع لها أسس نهضتها ، كما أعطى في رحلاته حق الشَّرق والعروبة والإسلام ، فكان نظام العقد ، وعنوان الوحدة ، وروح الاتصال ، فلفت أنظار الشرق إلى تونس عروس الشمال الإفريقي .

لقد كان الثعالبي برهاناً ساطعاً ، ودليلاً متنقلاً على ظلم الاستعمار

---

(١٦) من علماء تونس المجاهدين في هذه الفترة : الشَّيخ البشير صفر ، الَّذي قال عنه العلاَّمة عبد الحميد بن باديس : « أنا شخصيّاً أُصرِّح بأنَّ كراريس البشير صفر الصَّغيرة الحجم ، الغزيرة بالعلم ، هي الَّتي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أُمَّتي وقومي ، والَّتي زرعت في صدري هذه الرُّوح الَّتي انتهت بي اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر » (ابن باديس ٣٢٦/٤) .

واستبداده ، وما يلاقيه الشَّمال الإفريقي من كيده وبلائه ويكذب كل ما يتظاهر به هنالك ، حيث لم ترسخ قدمه . ولم يتم سلطانه . لذلك شعرت فرنسة بعظيم ضرر الشيخ الثعالبي على سياستها في الشَّرق العربي والإسلامي ، فأذنت له بالعودة إلى تونس بعد أن نفته منها ، فالاستعمار الفرنسي هو الَّذي ردّ الثعالبي لمصلحته هناك في الشرق والمغرب والجزائر . وأبى الله إلاَّ أن يستفيد الشَّرق والعروبة والإسلام من الشيخ الثعالبي هناك ، ويستفيد الشرق والعروبة والإسلام منه هنا .

عاد الثعالبي فاهتز شمال إفريقية طرباً برجوعه[17] ، ورأت (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في قدومه اعتزاز الإصلاح الاجتماعي الإسلامي ، من ناحية الفكر والأخلاق والسلوك في الحياة ، فأبرقت الجمعية تهنئ الشَّعب التُّونسي بقدومه ، وذهب رئيسها العلامة عبد الحميد بن باديس لتحيته وتهنئته بقدومه ، وإبلاغه بكل ما تحمله الجمعية ، والجزائر العربيَّة المسلمة ، من الحب والاحترام والتعظيم لشخصه[18] .

قال الشيخ ابن باديس :

« زرت الثعالبي في داره ، وبلغته عن الجمعية رسالتها ، فقابلها بالشكر والثناء ، وتلقاها بالفرح والسرور ، وأي سرور هو ؟! سرور من وقف نفسه على الإصلاح ، وفارق الشمال الإفريقي ولا دعوة للإصلاح فيه ، ثم جاءه بعد مدة من الدَّهر ، فوجد للإصلاح جنداً قوياً ، وقيادة منظمة ، وصوتاً عالياً ، وكلمة نافذة ، وتقديراً لأمثاله من الرجال المصلحين » . ويقول ابن باديس متابعاً :

---

(17) عاد إلى تونس عام ١٩٣٧ م ، وكان قد غادرها سنة ١٩٢٣ م متنقّلاً بين مصر وسوريَّة والعراق والحجاز والهند ، مشاركاً في حركاتها الوطنيّة ، من كتبه : (حياة سيدنا محمَّد ﷺ) ، و (روح القرآن) ، [الأعلام ١٣٦/٤] .

(18) ابن باديس : ١٤١/٤ و ١٤٢

« انتهت بهذه المقابلة مهمتي رئيساً للجمعية ، وموفداً من طرفها ، وكانت بعد ذلك المجالس والاجتماعات والحفلات والزيارات في دار الشَّيخ وغيرها ... كانت وكنت فيها كجندي بسيط من جنود العروبة والإسلام ، وجدت فيها الأُنس ونعيم النَّفس ، وكل ما يغذي الروح ، ويحيي الوجدان ، ويرضي العروبة والإسلام » .

☆ ☆ ☆

فهل قام الإسلام بعد هذا كله ، بما يطلب منه في مثل الأحوال الَّتي تعرضت لها تونس أمْ لا ؟

هل قام بكل طاقاته ـ بجامعاته ورجاله ـ للذود عن أرض الوطن وقد دنسها الاستعمار الفرنسي الصَّليبي ، أمْ قبع سلبياً في الزوايا ينظر إلى ما حلَّ بالبلاد دون حراك ؟!!

إنَّ سيرة الشَّيخ محمد السنوسي الزيتوني ثقافة .

ـ وعلي أبو شوشة ، وعمر أبو حاجب ، وعلي البقلاني ...

ـ والشَّيخ البشير صفر ، والشَّيخ محمد النَّخلي القيرواني (رائد النهضة الثقافية ، وأحد مدرسي جامع الزيتونة) .

ـ والعلاَّمة محمد الخضر حسين . والشَّيخ الطَّاهر بن عاشور ، أحد أساطين الزَّيتونة .

ـ والشَّيخ عبد العزيز الثَّعالبي ، والشَّيخ محمد شاكر (في صفاقس)[١٩] ، والشَّيخ محمد بيرم ...

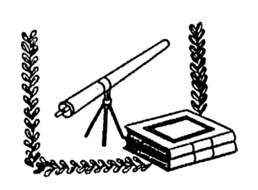
---

(١٩) مدينة ساحليَّة على خليج قابس ، مركز ولاية صفاقس ، وهي مركز تجاري هام .

وعشرات غيرهم من الجنود المجهولين ، الَّذين عملوا بحافز من الإسلام ، وماتوا لا يدري بهم إلاَّ الله وحده ، خير جواب لمن يسأل عن دور الإسلام في حركة التَّحرر التُّونسيَّة ، إنَّ الجواب واضح لا يحتاج إلى مراوغة ، أو معادلات ، أو (تحليلات علميَّة) لنصل إلى حقيقة أوضح من الشَّمس في رابعة النَّهار ليس دونها سحاب !

لقد قام الإسلام بما طلب منه ، وسجل التَّاريخ بكل وضوح : أن جامع الزَّيتونة ، كان معقلاً لمقاومة سياسة التمثل الثقافي ، وكان حارساً وقيماً على التراث العربي الإسلامي ، ومنه تخرج قادة التَّحرر والإصلاح .

☆ ☆ ☆



السُّودَان

« إن المؤرخ العربي الَّـذي سيكتب تـاريخ السُّـودان ، يجب ألاَّ ينسى أن يكتب في طليعـة أبطـال الشَّعب العربي اسم محمـد أحمد » .

ونستون تشرشل

فتح محمد علي السُّودان عام ١٨٢٠ م ، وبقي السُّودان تـابعـاً لمصر ، وفي عهـد إسماعيل وضع مشروع لتوسيع أملاك مصر في السُّودان ، وفتح إقليم خـط الاستواء (أوغندة حالياً) .

لقد كانت الإدارة الخديويَّة أيام توفيق ، خليفـة الخـديوي إسماعيل ، سيئـة جداً ، لاعتمادها على عناصر أجنبية لا يهمها إلاَّ مصالحها ، وكان الخـديوي توفيق ، لا يرسـل إلى السُّـودان من المصريِّين ، إلاَّ من غضب عليهم ، ممـا جعـل السُّـودان منفى لهم . كما استخدم الضُّباط الإنجليز في المناصب الكبرى في السُّودان[1] .

فحركة التَّحرر ، وثورة السُّودان ، ثورة ضدَّ تسلط الولاة والجبـاة الأتراك ، وحركـة تحرر من ظلم خـديوي مصر ، الَّـذي سيطر عليـه الإنجليز ، وثـورة ضـدَّ القيادة العسكريَّة الإنجليزيَّة المتسلطة على الجيش المصري المرابط في السُّودان .

فمن الَّذي جسد المرض ، وتفاعل على آلام شعب السُّودان ؟

---

(١) راجع لهذا البحث (السُّودان) ، الكتب التَّالية :
- تاريخ السُّودان الحديث ، لضرار صالح ضرار ، طبعة سنة ١٩٧٤ م .
- الإسلام في القرن العشرين ، للعقاد : ص : ١٣١ وما بعدها ، طبعة : كتاب الهلال .
- المهدي والمهدويَّة ، للدكتور أحمد أمين ، طبعة دار المعارف بمصر .
- أعلام الإسلام (مهدي الله) لتوفيق أحمد البكري ، ط : دائرة المعارف الإسلاميَّة .
- السُّودان الشَّقيق ، إبراهيم الأسيوطي محمَّد ، سلسلة كتب سياسيَّة .

من الَّذي قام بعبء حركة التَّحرر ، وطرد الظُّلم ، والاستعمار الإنجليزي ؟

من الَّذي قام ينادي بالنَّهضة الاجتماعية ، ويدعو إلى الإصلاح ؟

☆ ☆ ☆



محمد أحمد المهدي

« إن المؤرخ العربي الّذي سيكتب تاريخ السُّودان ، يجب ألاّ ينسى أن يكتب في طليعة أبطال الشّعب العربي اسم محمد أحمد » .

تشرشل

مُحَمَّدأحـمَدالمهْدِيّ

لم يكن السُّودان بأسعد حالاً من مصر ، فزمام الحكم فيه بأيدي السَّادة الأتراك ، من حملة الألقاب الفخمة العريضة ، الَّذين استأثروا في الشَّمال بكلِّ شيء ، واستأثروا في الجنوب بكلِّ شيء ، فتطلع أهل الشمال والجنوب ، إلى زعيم ينقذهم ممَّا حلَّ بهم ، فوجدوه في صورة زعيم ديني هو : محمد أحمد المهدي .

ولفهم أحداث هذه الفترة ، لابدَّ من تسليط الأضواء على سيرة هذا الزَّعيم الدِّيني .

ولد محمد أحمد بن عبد الله بن فحل في ٢٧ رجب ١٢٦٠ هـ[٢] الموافق لعام ١٨٤٣ م ، في جزيرة « لبب » في جنوب السُّودان قرب مدينة (دُنْقُلَة) ، يرجع في نسبه للإمام علي كرم الله وجهه . انتقل الوالد مع أسرته إلى قرية (كررى) الواقعة شمال (أُم درمان) بقليل ، حيث عمل ـ مع عمِّه ـ في تجارة السفن . مات أبوه وهو صغير ، فذهب إلى الخرطوم ليقرأ الفقه والتفسير ، بعد أن حفظ القرآن وهو في الثانية عشرة من عمره[٣] . اتصل بالشَّيخ محمود الشَّنقيطي ، ثم دخل خلوة الشَّيخ الأمين الصويلح بمسجد (ود عيسى) بالجزيرة ، ثم مضى إلى خلوة الشَّيخ الأمير ، وارتحل بعدها إلى الفقيه العالم الشيخ محمد الخير في (الغبش) تجاه بربر ، فطاب له المقام والاعتكاف على الدرس والتحصيل ، وبهرته دون أترابه أنوار التَّصوف فأقبل عليها .

عاد إلى الخرطوم ، ثم إلى جزيرة (أبا) في النيل الأبيض حيث اعتكف ، فما عاد بحاجة إلى التَّنقل في طلب العلم ، ولكنه بحاجة إلى اعتكاف يخلو فيه إلى نفسه . وفي هذه الفترة تتلمذ على الشَّيخ أحمد الطَّيب بن البشر السَّماني الطريقة ، فلازمه فترة ، ثم اختلف معه ، ولازم الشَّيخ القرشي ود الزين ، ولما مات الشَّيخ القرشي في أعقاب سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م ، أوصى له بالخلافة ، فبايعه الأحباب ، ووفد عليه الناس ، فهو إمام الوقت ، وتهامس النَّاس بأنَّه المهدي المنتظر ، الَّذي سيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً .

قام محمد أحمد المهدي بجولة في غربي السُّودان ، ليزيد من أواصر التفاهم بينه وبين أقيال العشائر ، ونظار القبائل ، وأصحاب الشَّأن في البلاد ، وضمَّ إلى عداد تلاميذه في الطريقة السَّمانية عشرات الأُلوف من المريدين المخلصين .

---

(٢) في الأعلام (المهدي السُّوداني) : [١٢٥٩ ـ ١٣٠٢ هـ = ١٨٤٣ ـ ١٨٨٥ م] .

(٣) الأعلام ٢٤٥/٦ و ٢٤٦

ولكن ماذا شاهد في هذه الرِّحلة من أحوال البلاد ؟!

لقد أبصر إدارة سيئة ، يتولى دفتها الجهلاء والأفظاظ من الأتراك ، ويبيعها كبار الرؤساء منهم إلى الموسرين من السُّودانيين ، لتكون سبيلهم إلى ابتزاز الأموال ، وجمع الثَّروات ، وإرهاق الشَّعب .

وأبصر تفشي الرَّشوة ، وبيع مناصب الدَّولة لأُناس ليسوا أهلاً لها ، وأن ثمن كل منصب محدود معلوم . وشاهد أرواحاً مهددة ، وحريات مغتصبة ، وأملاكاً منتزعة ، وبلاداً مخربة ، هجرها أهلها خوفاً من شدَّة الضَّرائب ، وفراراً من قسوة الجباة . إنَّ الضريبة الواحدة لتزداد وترتفع ، حتَّى ليدفع الرَّجل في ضريبة عشرين القرش مثلاً ، خمس مئة قرش أو تزيد ، والجباة يحملون قدر ثلثها إلى ناظر القسم ، وقدر الثلث إلى المدير في المنطقة ، وهكذا حتَّى لا يصل إلى الخزانة العامة غير عشرين القرش . إن الرجل ليبيع متاعه ، وكلَّ شيء لديه ، ليدفع الضريبة الباهظة ، فإن عجز ، سيق إلى ناظر القسم ، فتفنن في إذاقته العذاب ألواناً على مرأى وسمع من أهله ، ليكون نكاله نذيراً ، وتذكرة للآخرين .

وأبصر في جولته تجارة الرَّقيق ، الَّتي أصبحت باباً من أبواب الثَّروة الواسعة لتجَّاره .

فكَّر محمد أحمد المهدي عند عودته إلى جزيرة (أبا) ، بعد أن بسط نفوذه في جميع أنحاء غرب السُّودان ، بما أبصر ، وما في نفسه من رغبات وآمال عظيمة في الإصلاح والجهاد . أنَّ أحوال الشَّعب كانت تؤذن بهبوب العاصفة ، إنَّ الأصوات المكتومة ستنطلق يوماً ما قوية تملأ الفجاج : الله أكبر ! الله أكبر ! الجهاد الجهاد لإعلاء كلمة الله ورسوله .

وفي منتصف شعبان ١٢٩٨ هـ / ٢٩ يونيو ١٨٨١ م ، اجتمع في جزيرة (أبا) خلق كثير ، فقام المهدي بعد انتهاء الصَّلاة خطيباً في محبيه ، وعدد في خطابه

مزايا الدِّين الحنيف ، وأبـان وجوه الظلم والجور اللّـذين أصـابـا الشَّعب السُّوداني والمسلمين ، وأكد لهم أنَّ السبب ضعف الإدارة وجورها ، وأطال في الأسبـاب الَّتي كانت مقدمة لتلك النتائج والأُمور الَّتي أفضت إلى ثورة عُرابي ، ومـا أعقب ذلـك من أحداث جسام في مصر .

فـارتفعت الأصوات بـالبكاء والنَّحيب ، وكبر الحـاضرون وهللـوا ، ثمَّ طلب من أحبابه أن يقطعوه الميثاق والعهد ، فبايعوه على الرضا بالله ربّاً ، وبـالإسلام ديناً ، وبمحمَّد نبياً ورسولاً ، وبه إماماً ومهديّاً وعلى زهد الدُّنيا ، وعلى الجهاد في سبيل الله .

والسُّودان كلُّـه آنـذاك ، يتطلـع إلى المنقـذ الَّـذي سيحطم عنـه قيـود الظلم والاستبداد ، وسوء الإدارة وبـاهـظ الضَّرائب . والنَّـاس كلُّهم يتطلعون أيضـاً إلى هذا المهدي المنتظر ، الَّذي أعلن دعوتـه ، وأشهر أمره ، وطلب النـاس إلى الجهـاد في سبيل الله ، لإعادة ماضي الإسلام المجيد .

وأراد الحاكم العـام للسُّودان إخمـاد الحركـة الجـديـدة الَّتي ذر قرنهـا ، قبل أن يستفحل أمرها ، ويتلظى أُوارها ، فيصعب إخمادهـا والقضـاء عليهـا . والمهـدي يعلم أن الحكومة ستنازله القتال .

أرسلت السلطات باخرتين بها فصيلتـان من المشـاة ، ومثلها من الفرسـان . فلمـا رست البـاخرتـان في ليلـة الجمعـة ١٦ رمضــان ١٢٩٨ هـ / آب (أغسطس) ١٨٨١ م ، سار الجند نحو القرية ، وأنصار المهدي يترقبونهم بين الأشجـار والأيـك الكثيف المتشابك ، وهم لا يزيدون على حفنة قليلة من الرجال ، ولا يحملون من السِّلاح سوى العصي والهروات والرِّماح ، وعدد العصي يربو على الرماح .

وانطلق الرَّصـاص من جنـد السلطـة ، واللَّيـل أليـل ، والأحراش كثيفـة ، ونظام الجند واهن منفك ، والقائدان مختلفان ، فوثب الأنصار عليهم وأبادوهم إلاَّ

قليلاً ، وارتدت الباخرتان تدافعان التيار هرباً باتجاه الخرطوم ، لتبلِّغا الحاكم العام نبأ الكارثة ، وتذيعا في النَّاس نبأ انتصار المهدي وأنصاره العُزَّل ، على الجنود المدججين بالسلاح .

أعلن المهدي بعد ذلك لتلاميذه بأنه أمر بالهجرة إلى جبل (ماسة) بالقرب من جبل (قدير) في جبال (النوبة) بِكَرْدُفان ، فحقق نصره الثاني في معركة (راشد) في ١٦ المحرم ١٢٩٩ هـ / ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨١ م ، ثم سقطت (الأُبَيِّض)[٤] في ١٩ كانون الثاني « يناير » ١٨٨٣ م ، فكان لهذه الهزائم صدى مدوياً في لندن والقاهرة والخرطوم فكانت حملة الكولونيل (وليم هكس Hicks) على السودان .

كتب المهدي إلى (هيكس) ينذره ، ويطلب منه وجنوده الدخول في طاعته والإيمان بدعوته ، ولكن (هيكس) سيرد عليه يوم يلتقي الجمعان في (**شيكان**) في ٥ تشرين الثَّاني « نوفمبر » ١٨٨٣ م ، سيرد في غروره المعروف ، فهو القائل : « لو سقطتِ السَّماء لسندتها (بالسُّنكي)[٥] ، ولو مادتِ الأرض لثبتها بقوائم الخيل ، وأرجل الجيش » .

وفي موقع (شيكان) على بعد ثلاثين ميلاً من (الأُبَيِّض) ، كان مصرع (هيكس) وكبار ضباطه على يد المهدي وأنصاره ، لقد أبيدت حملة (هيكس) عن آخرها ، عدا حوالي مئتي جندي وقعوا أسرى في أيدي الأنصار .

---

(٤) الأُبَيِّض : قاعدة مديريَّة كروفان ، وهي أكبر سوق للصَّمغ العربي في العالم ، وجاء في الأعلام : وسمع به - بالمهدي - رؤوف باشا المصري (حاكم السُّودان العام) فاستدعاه إلى الخرطوم ، فامتنع ، فأرسل رؤوف قوة تأتيه به ، فانقضَّ عليها أتباعه في الطَّريق وفتكوا بها ، وساقت الحكومة المصريَّة جيشاً لقتاله بقيادة جيقلر باشا (Giegler) البافاري ، فهاجمه نحو ٥٠ ألف سوداني وهزموه ، واستولى المهدي على مدينة الأُبَيِّض سنة ١٣٠٠ هـ .

(٥) السُّنكي - ليست عربيَّة - وهي السَّكاكين الَّتي تثبَّت في مقدّمة بنادق الجند .

وفي شرق السُّودان هزم الشيخ **عثمان دقنه** (بيكر) ثلاث مرات ، وأصبحت سيطرة المهدي على السُّودان كلِّه مسألة وقت ، وكانت كارثة جيش (هيكس) حديث السودان ، والعالم الإسلامي بأسره ، فأقبلت الوفود من الحجاز والهند وتونس ومَرَّاكُش لزيارته والانضمام إليه ، وكان ذلك يهدد مصالح كثير من الدول الاستعمارية ، مثل إنجلترة الَّتي تسيطر على الهند ، وفرنسة التي احتلت تونس .

ومن الملاحظ أن سياسة بريطانية نحو المسألة السودانية أصبحت واضحة ، فقد اعتمدت على فكرة إخلاء السُّودان ، وإقامة حكم قَبَلي ، لكي ينقسم السُّودان على نفسه ، ويفقد الوحدة القوميَّة .

وأصدر مجلس الوزراء البريطاني في ١٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٤ م بلاغاً رسميّاً يعهد فيه بمهمة الجلاء عن السُّودان إلى الجنرال (شارل جورج غوردون Charles George Gordon) ، وأنه سيكون ممثلاً للحكومة الإنجليزية في الخرطوم . فلما وصل القاهرة بصحبة الكولونيل (ستيوارت) الَّذي كان في السُّودان منذ عام ، ليكتب تقريراً عن أحواله ، رفعه إلى الحكومة البريطانيَّة . وطلب السِّير ايفلن بيرنج (لورد كرومر) ، من الخديوي تعيين (غوردون) حاكماً عاماً للسُّودان . وبالفعل وصل (غوردون) الخرطوم . وأرسل للمهدي كتاباً يعترف له بحكم السودان الغربي ، وطلب مساعدته على إخماد نيران الثورة في السُّودان الشرقي .

وكان ردّ المهدي ثياب الدَّراويش والأنصار ، جبة وسروال ومنطقة خوص النخل ، وحذاء وعمامة وطاقية وسُبْحَة ، ودعاه إلى الدُّخول في الإسلام ، فتضايق (غوردون) من رسائل المهدي ، وطلب منه ألا يكتب إليه مرَّة ثانية[٦] .

(٦) نشرت جريدة (الأهرام) في عددها الصَّادر بتاريخ ١٩٦٧/١٠/٢٠ م ، نصَّ رسالة المهدي لغوردون مع الثياب ، على الشَّكل التَّالي : =

حاصر المهدي الخرطوم ، وساءت حال (غوردون) ، غير أنَّه كان يـأمل في وصول حملـة الإنقـاذ إليـه[٧] قبل سقوط الخرطـوم . ولكن الخرطـوم سقطت بيـد المهـدي وجنـده ، يوم الاثنين ٢٦ كانون الثـاني (ينـاير) سنـة ١٨٨٥ م ، ٩ ربيع الآخر سنـة ١٣٠٢ هـ ، وقتل (غوردون) ، وقـد أراده المهـدي حيّـاً ليفتـدي بـه عرابي من أسر الإنجليز ، ويخرجه من منفاه البعيد في (سيلان) ليساعـده في فتح مصر ! فإن بين الزعيمين عواطف متبادلة ، فكلاهما عالم دين ، وتقوى وصلاح !

« بيد أن الأيام لم تيسر للمهدي فرصة لتحقيق أغراضه الكبرى في إقامة دولـة إسلامية موحدة تعيد إلى الإسلام عزته ومنعته »[٨] . لقد مشت الحمَّى في جسـده ، واشتدت وهو يغـالبهـا ويـدافعهـا عنـه ، ولكن من ذا يغـالب (التيفوس)[٩] ؟ فمات وهو ابن اثنتين وأربعين سنة فقط ، في يوم الاثنين ٩ رمضان ١٣٠٢ هـ / ٢٢ حزيران « يونية » ١٨٨٥ م ، بعد أن عين **عبد الله التعايشي خليفة له .**

تلك سيرة المهدي إيجازاً واقتضاباً ، إنَّها حركة دينيَّة إسلاميَّة بحتـة في حيـاة السُّودان ، وإن صـاحبهـا مصلح ديني ، سـاءه مـا رأى من أحوال بلاده ، لم يكن رجل دنيا ، أو طالب مُلْـك ، أو سلطنـة ، أو جـاه ، ويظهر ذلـك توليتـه الأمر بعده إلى خليفته عبد الله التَّعايشي ، وعدم تخليفه أحداً من بنيه وعشيرته .

☆ ☆ ☆

= « بسم الله الرحمن الرحيم ، أُرسل إليـكَ بعض الثِّيـاب ، إنَّهـا مكوَّنـة من قميص وعبـاءة وعمـامة وزنار وسُبْحَة ، إنَّها ثياب الَّذين زهدوا بهذا العالم ، وأصبحوا يتطلَّعون إلى السَّعادة والجنَّـة ، إذا شئت حقّاً أن تؤمن بالله ، فعليك أن ترتدي هذه الثياب على الفور ، وأن تخرج » .

(٧) حملة الإنقاذ هذه كانت بقيادة اللورد (ولسلي) ، ولكنهـا لاقت مقـاومـة عنيفـة فتبـاطـأت في تقدُّمها .

(٨) تاريخ السُّودان الحديث ، ص : ١٦٢

(٩) في (الأعلام) : وقطن المهـدي (أُمَّ درمـان) المقـابلـة للخرطوم ، وأقـام يجمع الجموع ، ويجنِّـد الجنود لأجل التَّغلُّب على الدِّيـار المصريَّـة ، وأرسل مكاتيب من طرفـه للخـديوي ، وللسُّلطـان =

عَبدالله التّعَايشِي

افتقد التّعايشي[10] هالةَ التّقديس والاحترام الدّيني الّذي أحـاط بـالمهـدي ، ولذلك فقـد بـدأت منـازعـات بينـه وبين الأشراف ، واستطـاع بعـد صراع ، أن يثبت قواعـد حكمـه في الجولـة الأُولى . ثم جـابـه الثّورات العشـائريّـة ، ولاحت الأطماع الخـارجيـة في الأُفق ، الأحبـاش من طرف ، والبريطـانيون من طرف ، وكذلك البلجيكيون ، والإيطاليون الّذين بـدأوا غزوهم على السُّودان الشّرقي ، كما تغلغلت فرنسـة في أعـالي النيل . ولكن الخطر الأقرب كان من بريطـانيـة ، الّتي أخذت تتهيأ وتتبلور مع مطلع عام ١٨٩٦ م .

لقـد أفلح (كتشنر) في تـدريب الجيش الـذي سيرافقـه في غـزو السـودان ، وجعله قادراً على مواجهة قوة الجنوب .

وجاء الأمر من لندن ، بالزحف على السودان ، بجيش مزود بسلاح جـديـد هو بندقية (مكسيم) عديدة الطّلقات ، فسار (كتشنر) بأعصاب هادئـة ، بعـد أن أنشأ خطاً حديدياً مع الحدود المصرية إلى داخل السُّودان ، وأنشـأ مستودعـات ضخمة على طول الخط ، ثم زحف مع خمس وعشرين ألف رجل مشاةً وفرسانـاً ، ومدفعية ميدان ، وجمالاً وسفنـاً نهريّـة ، وزوارق مسلحـة ... بـاتجـاه الخرطوم ، وتلاقى الجمعان .

قال شاهد عيان : « كانت تلك المعركـة إعـدامـاً بمعنى الكلمـة » ، حين رأى

= عبد الحميد ، وملكة إنكلترة ، يشعرهم بدولته ، ومقرّ سلطنته ، وضرب النقود ، ولكنـه لم يلبث أن مات بالجدري في أم درمان ..

(١٠) عبد الله بن محمد التّعايشي ، من قبيلة (التّعايشة) : [١٢٦٦ ـ ١٣١٧ هـ = ١٨٥٠ ـ ١٨٩٩ م] ، ولد في بـاديـة الغرب الجنوبي من (دارفور) ، بويع لـه بعـد المهـدي عـام ١٨٨٥ م ، فـأقـام في (أُمّ درمان) ، طلبت إيطالية من إنكلترة أن تساعدها على المهـديين ، فوجّهت إنكلترة جيشـاً بقيادة (كتشنر) ، [الأعلام ٢٧٦/٤ و ٢٧٧] .

آلاف المهديين يتساقطون بأحدث ماأنتجته المصانع البريطانية من سلاح .

ويقول آخر : « كنت أرى الدراويش فرساناً ومشاة يسقطون صفاً وراء صف ، أمام نيران الجيش الحاصدة ، وهم يتلقونها بقلوب لاتهاب الموت ، حتَّى رأوا أنه يستحيل عليهم اختراق هذه النيران » . وعند ذلك اضطروا إلى التقهقر . ثم حاولت الخيالة البريطانيَّة أن تقطع عليهم خط العودة إلى أُمِّ درمان ، ولكن عثمان دقنة كان قد أعدّ لهم كميناً ، وما أن اقتربوا منه حتى هبَّ عليهم برجاله ، فأوقع فيهم الرُّعب والفوضى ... لكن مالبث أن تنبه (كتشنر) لما حدث فأنجدهم ، ثم رأى التعايشي أن يأمر بقية جيشه بالهجوم مرة ثانية ، وأبطال السُّودان يتلقون رصاص المدافع الرشاشة بشجاعة ، حتَّى سقط منهم عشرة آلاف قتيل . فانسحب التَّعايشي يريد غربي السُّودان .

حاول التعايشي أن يجند رجالاً من غرب السودان ، لمواصلة الكفاح ضدَّ الغزاة ، ولحق به القائد الشيخ عثمان دقنة ، بمن معه من رجال ، ولكن العدو كان لهم بالمرصاد مقتفياً أثرهم ، وعندما بلغوا قرية (جديد) ، بدأت قوات الغزو بقيادة السير (رجلند) ، ونجحت بضرب المجاهدين السودانيين برصاص المدافع الرَّشاشة حتَّى حصدتهم . ولما رأى التَّعايشي وأصحابه أنهم خسروا المعركة ، افترشوا فراء الصلاة ، وجلسوا هادئين ينتظرون الموت بجنان ثابت ، كما هي عادة الزُّعماء السُّودانيين عندما يخسرون المعركة الفاصلة ، فلا يولون الأدبار . واستمرت رصاصاتُ المدافع في حصدهم ، حتَّى أفنت معظمهم ، ولم يبق منهم حيّاً غير الشَّيخ عثمان دقنة ، الَّذي اعتقلته السلطات البريطانية وسجن ، ولم يفرج عنه خوفاً من أن يثير القلاقل ، إذ رفض أن يعد بالاستسلام والتَّوقف عن الجهاد ، وظلَّ في سجن (حلفا)[١١] حتى توفي في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٦ م[١٢] .

---

(١١) حلفا ، لعلها (واد حلفا) في النُّوبة شمالي السُّودان ، على الحدود المصرية حالياً .

(١٢) تاريخ السُّودان الحديث ، ص : ٢٠٣ ـ ٢٠٥ بتصرُّف .

ومن أعمال (كتشنر) البربريَّة ، وضعه الألغام في ضريح المهدي ، فهدم القبة ، ولم يبق من الضريح سوى حيطانه القائمة ، ثم أمر بنبش القبر ، واستخراج الجثة ، وقطع رأسها ، ثم أرسله إلى المتحف بلندن ، بعد أن بعثر العظام . ولم تعرف البلاد مثل هذه البربريَّة إلا في (كتشنر) عند استيلائه على السُّودان ، إذ رجع بالعالم إلى عهود مغرقة في البدائية .

وأخيراً ...

مما لاشك فيه أن الإسلام كان المحرك الأوَّل والأخير في نفوس أتباع المهدي ، الَّذين دافعوا عن السُّودان دفاعاً مجيداً ، أشاد به أعداؤهم الإنجليز ، ممن حاربوهم في المواقع وخلدوا تلك الشَّجاعة في كتبهم ، مثل :

(حرب النهر) لتشرشل ، و (مع كتشنر إلى الخرطوم) لستيفنسن ، وكتب نعوم شقير الَّذي كان في المخابرات البريطانية للجيش المستعمر في كتابه يقول : ولقد أظهر السُّودانيون فيها ـ أي واقعة كرري ـ من البسالة ، واحتقار الموت ، والاستهلاك في سبيل الغرض مالا مزيد عليه[١٣] .

« سقط السُّودان مثخن الجراح ، فاقد القوة ، ضعيف القدرة أمام سطوة الأسلحة البريطانيَّة الفتاكة في (كرري) ، وفي (النخيلة) ، وفي (أم دويكرات) . وكانت تلك المعارك الثَّلاث قد ألحقت الدَّمار بالقدرة السُّودانية الَّتي استكانت بعدها لسلطان القوة والجبروت .

لكن مالبثت ذكريات الاستقلال ، والعيش تحت ظلّ الأحكام الشَّرعيَّة الإسلامية ، والانضواء تحت راية (المهديَّة) تعمل في نفوس بعض السُّودانيين ، فينفجرون في ثورة جامحة ، ماتلبث أن تخمدها المدافع الرَّشاشة »[١٤] .

---

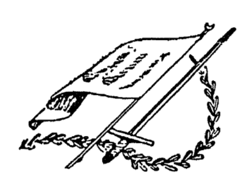
(١٣) المرجع السَّابق ، ص : ٢٠٥

(١٤) المرجع السَّابق ، ص : ٢٣٤

لقد قام الإسلام بما طُلِبَ منه دين حياة ، قبل أن يكون دين آخرة ، في مثل ظروف السُّودان الَّتي كانت ، وما زال الشَّعب السُّوداني ، يحمل في قلبه كل تقدير واحترام ، لزعيم ديني روحي ، هو محمد أحمد المهدي ، الَّذي كانت ثورته الإسلامية الحدَّ الفاصل بين عهد القبليَّة البغيض ، وبزوغ عهد الشَّخصيَّة السُّودانيَّة ، دولة عربيَّة مسلمة .

وبعد أما قام الإسلامُ بدوره المطلوب ـ بعد هذا كلِّه ـ في كيان السُّودان ؟!





« سوف لاأرد عليك ، حتّى تصل إلينا ،
وسترى بعينيك الجواب » .

الشيخ الملا

الشيخ محمّد عبد الله حسن الملاّ

ولد السيد محمد عبد الله حسن الملاّ في قرية (شب فروت) ، وتربى عند أخواله في (لاس عانود) ، وحفظ القرآن الكريم ، وعلوم الدِّين في (هرر)[1] ، وحجَّ بيت الله الحرام ، وتلقى مبادئ الثَّورة المهديَّة في الحرم النبوي الشَّريف . ثم عاد إلى (الأوغادين)[2] ، فالتفَّ حوله الطلاب ، وأخذ يلقنهم تعاليم الدِّين ، وأصول الجهاد ، ثم رحل إلى (بربرة) بهم . وفي ليلة حالكة السَّواد ، نزل الإنجليز (بربرة) ، وكانت خيوط الفجر قد بدأت تنتشر في الأفق ، وتزاحم النَّاس في مسجد (بربرة) لصلاة الفجر . وقف المؤذن يدعو النَّاس إلى الصَّلاة ، واعتقد الإنجليز أن هذا الأذان دعوة إلى الجهاد الَّذي طالما سمعوا عنه . وأخرج ضابط إنجليزي مسدسه ، وأطلقه على المؤذن فخرَّ صريعاً .

وكانت هذه الرصاصة هي الشَّرارة الأُولى لإشعال الحرب المقدَّسة ضدَّ الإنجليز ، وأعلن (الملاّ) الجهاد . فأمر الحاكم البريطاني بطرد طلابه من المدينة ، فسار مع طلابه متجهاً إلى مدينة (بوعو) تحت رقابة القوات الإنجليزية . وعلى

(١) راجع الأماكن الهامَّة على مصوَّرٍ للصُّومال ، وهذا البحث مرجعه كتاب : الصومال ، سلسلة شعوب العالم ، العدد ١٧ ، طبع دار المعارف ، ص : ٧٩ وما بعدها ، مع تحقيق عن الصُّومال نشرته (بيروت المساء) في ٣ حزيران ١٩٧٥ م في عددها ٨٣ ، ويهمنا من هذا التَّحقيق مقال : (الصُّومال عبر التَّاريخ) ، ص : ٦٠ ـ ٦٤

(٢) أوغادين : هي المنطقة الصَّحراويَّة في غربي الصُّومال ، تحتلُّها اليوم إثيوبية .

مقربـة من مـدينـة (بوعو) حـاول الإنجليز التَّخلص منـه ، ودارت بينـه وبينهم معركة رهيبة عند مشارفها . ولم يكن الجنود فيها سوى الطُّلاب الَّذين لا يتجاوز عددهم الأربعين ، ولم يكونوا مسلحين إلاَّ بسلاح الإيمان بـالله والسُّيوف والحراب ، وقد استشهد ثلاثة من الطلاب ، وقتل سبعـة من الجنود الإنجليز ، وفرَّ البـاقون ، ولجأ (الملاَّ) إلى (لاس عانود) عند أخواله . ودعا الناس إلى الكفـاح والجهـاد ، وأخذ يدرب الشباب على فنون القتال والرِّمايـة ، وتمكن من بنـاء أربعين حصنـاً زودها بالذَّخيرة والمؤن ، وأقام فيها صهاريج المياه ، وأنشـأ قلاعـاً عـديـدة داخل (الأوغـادين) وكان معقلـه الرئيسي في (طليح) الَّتي تقـع بين (لاس عـانـود) و (عرجابو) ، **والتفَّ حوله المؤمنون ، وأخـذوا يقـاتلون الإنجليز** والخونـة من الصُّوماليين الَّذين فرّوا من المعارك ، واتهمه الإنجليز بالجنون وأطلقوا عليه لقب : (ملاَّح) أي الشيخ المجنون ، ولكنه صمـد أمـام الإنجليز في موقعـة (**بيرا**) ، فقـد أرسل القائد الإنجليزي (**كوفيل**) رسـالـة إلى طليح يقول فيهـا (للملاَّ) : اهـدم هذه المدينة قبل أن نصل إليك مع الجيش ، وإلاَّ هدمنـاهـا فوق رؤوسكم . فكان جواب (الملاَّ) عليـه : « سوف لا أرد عليـك حتَّى تصل إلينـا ، وسترى بعينيـك الجواب » .

وبعـد عـامين من هـذا التهـديـد وصل (كوفيـل) بجيشـه إلى (طليـح) ، ووقعت الحرب في قرية (بيرا) بالقرب من (لاس عـانود) ، وتمكن الـدراويش بقيـادة المجـاهـد المسلم ، من قتل القـائـد (كوفيل) ، ووقف (المـلاَّ) على رأسـه وقال :

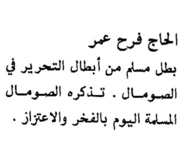
« أيُّهـا الكافر ، لقـد تـوجهت إلى الآخرة ، ومـالـك بقيـة من حيـاة ، وإن رأيت في الآخرة جماعـة لـك في النـار ، فقل لهم وقع الرصـاص في فمي ، ودخلت الرماح كتفي ، واذكر هناك قوتك وقوة بريطانية وتعب بريطانية معك » .

وقـد استشهـد من الـدراويش اثنـان وتسعون مجـاهـداً ، على حين قتـل من

الإنجليز مئتـان وسبعون قتيـلاً عـدا الجرحى ، ثم اشتبـك (الملاّ) مـع الأحبـاش الّـذين عرفوا بعـدائهم لـلإسـلام ، وفي مـوقعـة (جيججـا) انتصر عليهم انتصـاراً رائعـاً ، وتمكن قـائـده (هري) من القبض على القـائـد الحبشي (إليـاس) وفرَّ الأحباش إلى (هرر) واحتموا بأسوارهـا ، وتمكن البطل المسلم المجاهـد من إقـامـة حكم إسلامي في (جيججا) ، ونصب عليها الشّيخ عبد السَّلام ، الَّذي ابتنى فيهـا المساجد ، وأقام بها المدارس ، وطلب ملك الحبشة من البطل المجاهد الصُّلحَ ، بعد أن أكد له أنهم يرغبون في السِّلم ، ويحافظون على حقوق الجوار .

عـاد (الملاّ) إلى (طليح) ليشتبـك في معـارك عـديـدة مع الإنجليز ، بعـد انتهاء الحرب العالمية الأولى . فاستخدمت بريطانية سلاحها الجوي لضرب الحركة الوطنيَّة ، وجرضت رؤساء العشائر ضدّه ، فلم يجدها كل ذلك نفعـاً ، بل ازدادت حركة المقاومة شدة وعنفاً . وشعر الإنجليز والأحباش والإيطاليون أنَّ الأرض تميد تحت أقـدامهم ، فعقـدوا عـدة مـؤتمرات عسكريـة ، تحـالفت فيهـا قـوى الشَّرِّ والاستعمار ، فتمكنت من القضاء على تلك الحركة الوطنيَّة الإسلاميَّـة ، الَّتي تجلت فيها البطولة والفداء بأجلى مظاهرها .





الحاج فرح عمر
بطل مسلم من أبطال التحرير في الصـومـال . تـذكره الصـومـال المسلمة اليوم بالفخر والاعتزاز .

تمكن (الملاَّ) من شقّ طريق له ، على الرغم من الحصار الَّذي فرضه عليه الاستعمار ، وتمكن من الوصول واللجوء إلى مدينة (إيمي) داخل أراضي (الأُوغادين) ، وأخذ يبث تعاليم الثَّورة بين أهل تلك المنطقة ، حتَّى وافاه أجله المحتوم ، بعد عمر دام ستة وخمسين عاماً ، قضى معظمها في الجهاد والكفاح ونشر العلم . ودفن رحمه الله في قمة جبل عال يشرف على نهر (شبيلي)[٣] ، وذلك خشية أن تمتد إليه يد المستعمرين . ولم يعرف أحد قبره مدة طويلة من الزمن ، ولما عاد الإيطاليون إلى الصُّومال في فترة الوصاية ، أحس الصُّوماليون أن من واجبهم الإعلان عن مكان قبر بطلهم المجاهد ، فأقاموا درجاً على جانب الجبل يوصل إلى مقبرته ، كي يزوره الوطنيون .

من أقواله المأثورة : « لا حياة للصومال إلا بالوحدة » ، ويوم يتمكن الصوماليون من تحقيق هذا الأمل العظيم ، الصُّومال الموحدة في ظلّ دولة وعلم واحد ، يكونون قد حققوا أمنية هذا القائد المسلم العظيم .

وهكذا ...

ـ من الذي حمل راية الجهاد في وجه الاستعمار في الصُّومال **غير الإسلام** ؟

ـ هل تقاعس الإسلام ، متمثلاً في أبنائه الَّذين حملوه عقيدة وجهاداً ، عن مقارعة الاستعمار ؟

اللّهم لا ... وهذه الحقائق التَّاريخيَّة تُثْبتُ ذلك !

☆ ☆ ☆

(٣) نهر شبيلي : ينبع من مرتفعات الحبشة الشَّرقيَّة ، قرب (هرر) ، وجنوبي مدينة (ديرداوة) فيتَّجه جنوباً إلى أن يلتقي نهر جوبا عند خط الاستواء ، ليصبَّا في المحيط الهندي .

ليبيا

« وإننا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون ، وعلى الله في نصرنا متكلون . وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ » .

أرادت إيطالية منافسة إنجلترة وفرنسة في استعمار الشَّرق ، لتأخذ نصيبها من تراثه الَّذي تبدَّد منذ مطلع القرن التاسع عشر ، فدرست البلاد العربية دراسة فاحصة ، فوجدت ليبيا فريسة سهلة المنال ، ومنهلاً عذب الورود ، بعد ضياع تونس من حسبانها .

لقد طمعت إيطالية بتونس ، بحجة حقِّها التَّاريخي فيها ، عندما هزمت (هانيبال) في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وأحرقت (قرطاجة) ، واحتلت موقع تونس الحالي[1] . ولكنها أخفقت بسبب المطامع الفرنسية ، وحذفتها من حسبانها عندما احتلت فرنسة تونس عام ١٨٨١ م ، فالتفتت إيطالية إلى ليبيا ، وكان عليها أن تضمن موافقة الدول الأُوربية أولاً ، ثم تهيئة أسباب الاحتلال وتنفيذه .

وقد نجحت إيطالية في الأمر الأول : فاعترفت لإنجلترة بمركزها في مصر ، واعترفت لفرنسة باحتلال المغرب ، مقابل اعتراف هاتين الدولتين (بحقوقها) في ليبيا .

كما ضمنت إيطالية موافقة ألمانية على مشروعها الاستعماري ، وذلك لقاء

(١) راجع : روما والشَّرق الرُّوماني ، د . سليم عادل عبد الحق ، ص ١٢١ وما بعدها ، المطبعة الهاشمية بدمشق ، ط ١٩٥٩ م .

دخولها في التَّحالف الألماني ـ النِّمساوي ، الَّذي أصبح تحالفاً ثلاثياً في ٢٠ أيار ١٨٨٢ م .

وهناك رأي تاريخي يقول : إن (بسمارك) الذي كان يوجه السياسة الأُوربية في نهاية القرن التَّاسع عشر ، وصار يحلو له اللَّعب بالسِّياسة الدَّوليَّة ، على هواه ولأجل مآربه ، هو أوَّل من غازل إيطالية بعد إعلان وحدتها سنة ١٨٧٠ م ، وصيرورتها دولة ذات كلمة ، فشجعها على احتلال ليبيا والحبشة ، لأن المصلحة الألمانية الجديدة صارت تقضي بالتقرب من حكومة روما لتقويتها على فرنسة ، وتقضي بالتَّسامح مع القياصرة الروس ، لمنافسة الإنجليز بالسَّيطرة العالمية[٢] .

بدأت إيطالية تقوي نفوذها في ليبيا ، مستفيدة من ضعف العثمانيين وإهمالهم لها . فأوجدت : (بنك دي روما) ، الَّذي عمد إلى إقراض الفلاحين ، لقاء رهن أراضيهم ، ثم الاستيلاء عليها بعد عجزهم عن تسديد ماأخذوا ، مما جعل هذا (البنك) مؤسسة اقتصادية هامة . كما فتحت إيطالية المدارس التَّبشيريَّة ، والشَّركات ، ووظَّفت رؤوس أموال ... ودعمت كل هذا بإرساليات التَّبشير .

وفي ٢٧ أيلول ١٩١١ م ، رأت الحكومة الإيطالية ، أنَّ الظروف مناسبة لاحتلال ليبيا ، فالدَّولة العثمانيَّة ، الَّتي تعتبر ليبيا تابعة لها بشكل مباشر ، مهددة من جهة البلقان بتحالف (بلغاري ـ يوناني ـ صربي) ضدّها ، فظهر الأسطول الإيطالي أمام شواطئ ليبيا ، يحمل أربعين ألف جندي ، مزودين بالمدافع الثَّقيلة ، وكامل الأسلحة الحديثة ، بينما لم يكن في ليبيا من القوات العثمانية ،

---

(٢) انظر كتاب (عمر المختار مقاتلاً وشهيداً) ، ص : ١١ و ١٢ ، والكتب التَّالية :
ـ مع الأبطال ، للأُستاذ محمَّد رجب بيومي ، الدَّار القوميَّة للطِّباعة والنَّشر .
ـ الإسلام في القرن العشرين ، للعقاد ، طبع دار الهلال .
ـ الأعلام ٧/٥ (الطَّبعة الثَّالثة) .

سوى أربعة آلاف جندي ، إذ كانت قد سحبت قواتها ، وأرسلتها إلى اليمن في أوائل عام ١٩١١ م ، لقمع ثورة قامت هناك .

وحاولت الدّولة العثمانيّة مدّ يد العون إلى ولايتها ليبيا ، ولكن الجهود ذهبت سدى أمام تفوق الإيطاليين ، فوقعت معاهدة (أوشي) في سويسرة ، بتاريخ : ١٨ تشرين الأول ١٩١٢ م ، وفيها تنازلت عن ليبيا لإيطالية .

ـ فمن قام للذود عن أرض الوطن ، الّذي دنّسه الإيطاليون ؟

وقع عبء المقاومة في الداخل على السنوسيين .

والسّنوسيّة طريقة دينيّة[٣] ، أرادت النّهوض بالإسلام والعودة به إلى أصوله الأُولى ، كما كانت أيّام النبي ﷺ .

لقد قويت المقاومة ، بسبب الروح الإسلامية الّتي حملها السنوسيّون ، مما اضطر الإيطاليين إلى الجلاء عن المناطق الدّاخلية ، والاعتراف للسنوسيين بحكمها ، حسب اتفاقية ١٩١٧ م .

---

(٣) مؤسّسها أبو عبد الله محمّد بن علي بن السّنوسي الخطّابي الحسني الإدريسي [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ = ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م] : زعيم الطّريقة السّنوسيّة الأوّل ومؤسّسها ، ولد في (مستغانم) من أعمال الجزائر ، وتعلّم (بفاس) ، وتصوّف على يد الشّيخ عبد الوهاب التّازي ، جال الصّحراء إلى الجنوب من الجزائر يعظ النّاس ، ثم زار تونس وطرابلس وبرقة ومصر ومكّة المكرّمة ، وبنى زاوية في جبل أبي قبيس ، ثمّ ارتحل إلى برقة سنة ١٢٥٥ هـ ، وأقام في الجبل الأخضر ، فبنى الزّاوية البيضاء ، وكثر تلاميذه ، وانتشرت طريقته ، فارتابت الحكومة العثمانيّة في أمره ، فانتقل إلى واحة جغبوب ، فأقام بها حتّى توفي ، له نحو أربعين كتاباً ورسالة منها : إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ، [الأعلام ١٩٢/٧] .
وليست السّنوسيّة مذهباً ، ولا نحْلَة ، ولا نقضاً لمذهب من المذاهب ، وإنّما هي أُخوّة في الله ، أو طريقة يتّبعها من يشاء من المسلمين ، ولا يطلب منه عند اتباعها غير قراءة الفاتحة على العهد ، [الإسلام في القرن العشرين ، ص ١١٠] .

إلاَّ أن إيطالية عمدت بعد الحرب العالميَّة الأولى إلى تقوية حامياتها ، وأعادت احتلال المناطق الداخلية مستخدمة أحدث الأسلحة في ذلك . ولم ينس الإيطاليون المقاومة الرائعة الَّتي أبدتها المدن الساحلية : (طرابلس ، طُبْرُق ، دَرْنَة ، بنغازي) ، وكيف أنهم دفعوا الثَّمن غالياً قبل احتلالها ، الأمر الذي دفع الإيطاليين إلى التَّصرف بوحشية ، تمثلت في حادثة (المنشِيَّة) قرب طرابلس ، إذ **أعملوا يد الفتك الشَّنيع بالأهلين ، فلم يتركوا رجلاً ، ولا امرأة ، ولا شيخاً ، ولا طفلاً ، إلاَّ قتلوه . واستباحوا البلدة ثلاثة أيَّام بلياليها ، يذبحون وينهبون ، ولا رادع من ضمير يردعهم .**

فالسَّنوسيَّة : تحملت أعباء الجهاد ، وقام أتباعها من زواياهم لجهاد مقدَّس ، وبخاصة أن إيطالية كانت تحمل حقداً صليبيّاً في احتلالها لليبيا ، فلقد كان النَّشيد الَّذي ردَّده الجيش الإيطالي الَّذي غزا ليبيا عام ١٩١١ م :

« ياأُمَّاه أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي ، ألا تعلمين أنَّ إيطالية تدعوني ، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً ، لأبذل دمي في سبيل سحق الأُمَّة الملعونة ، **ولأُحارب الدِّيانة الإسلاميَّة ، سأُقاتل بكل قوتي لمحو القرآن** . وإن لم أرجع ، فلا تبكِ على ولدك ، وإن سألك أخي عن عدم حزنك علي فأجيبيه إنه مات في محاربة الإسلام »[٤] .

قام السنوسيُّون من زواياهم للجهاد ، والزَّاوية كانت مركزاً للحياة الرُّوحيَّة ، وفي الوقت نفسه كانت مركزاً للحياة الزِّراعيَّة والتِّجاريَّة والسِّياسيَّة والإداريَّة والقضائيَّة ، وهي تتألف من مجموعة من الأبنية كالمسجد ، والمدرسة ، والمضافة ، تحيط بها مزرعة يعمل فيها الأتباع في الزراعة ، كما يعملون في التِّجارة ، ويستقبلون الضيوف ، ورجال القوافل ويستضيفونهم .

---

(٤) القوميَّة والغزو الفكري ، ص ٢٠٨

وكان للسنوسيَّة تنظيم عسكري ، إذ غالباً ما تختار زاويتهم في موقع حصين ، عند ملتقى الطُّرق ، لتأمين الغايتين الحربيَّة والتِّجاريَّة ، وكان أفرادها مسلحين ، منظمين تنظيماً عسكرياً ، فلما انسحبت الدَّولة العثمانيَّة من ليبيا[٥] ، دعا السنوسيُّون إلى تأليف حكومة وطنيَّة ، أخذت على عاتقها متابعة الجهاد .

ولعل أعظم معركة جرت بين الطَّرفين ، معركة يوم الجمعة قرب (دَرْنَة) في ١٦ أيار ١٩١٣ م ، التي قادها **محمد الشَّريف السَّنوسي** ، والَّتي انتصر فيها السَّنوسيُّون انتصاراً كبيراً .

ومما جعل المقاومة تفتر ، هو فتك الأوبئة والقحط والجفاف والجوع ، فقد تعاقبت هذه الأُمور سنتين متواليتين ، ولم يخفف منها مساعدة العالم الإسلامي ، الَّذي اهتزَّ بأجمعه للكارثة البشريَّة ، الَّتي حلت بليبيا بسبب الاحتلال الإيطالي .

☆ ☆ ☆



(٥) كان على رأس السُّلطة العثمانيَّة في هذه الفترة (محمد رشاد) ، وكان (حقّي باشا) الصَّدر الأعظم .

عمر المختار

« لن أبرح الجبل الأخضر مدة حياتي ، ولن يستريح الطليان فيه ، حتّى يواروا لحيتي في التراب ... » .

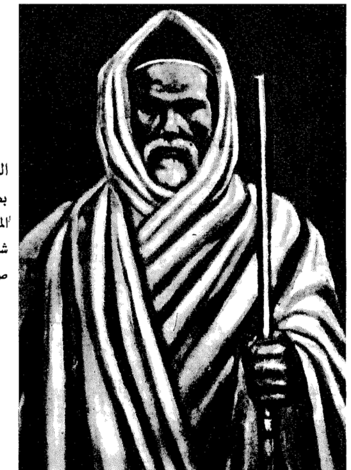
عمر المختار

عمر المختار يستحق مجلداً ضخماً لكتابة سيرته ، إيماناً ، وجهاداً ، وخلقاً ، فقلما يجود الدهر بأمثاله ، فهو مثال البطل المسلم ، عاش للإسلام ومات من أجله ، إنه بلا ريب سيد المجاهدين في ليبيا .

ولا يهمنا في معرض حديثنا هنا سير معاركه مع الطليان ، إنّما سنتحدث عن أمرين اثنين فقط ؛ من هو عمر المختار أولاً ؟ وكيف لاقى وجه ربّه ثانياً ؟

١ ـ عمر المختار بن عمر المنفي : [١٢٧٥ ـ ١٣٥٠ هـ/١٨٥٨ ـ ١٩٣١ م] ، أشهر مجاهدي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الإيطاليين ، نسبة إلى قبيلة (المنفة) من قبائل بادية (برقة) ، ولد في البطنان (ببرقة) ، وتعلم في الزّاوية السنوسيّة (بالجغبوب) ، وأقامه محمد المهدي الإدريسي شيخاً على (زاوية القصور) بالجبل الأخضر بقرب (الْمَرْج) . وسافر معه إلى السودان سنة ١٣١٢ هـ فأقيم بها شيخاً لزاوية (كلك) إلى سنة ١٣٢١ هـ ، وعاد إلى (برقة) شيخاً لزاوية (القصور) ، فأقام إلى أن احتل الطليان مدينة (بنغازي) سنة ١٣٢٩ هـ ، فكان في طليعة الناهضين للجهاد ، وطالت الحرب ، وتتابعت المعارك ومنطقة عمر المختار ثابتة منيعة ، وتهادن الإيطاليون والطرابلسيون سنة ١٣٤٠ هـ ، ودبَّ الخلاف بين زعماء طرابلس وبرقة ، وتجددت المعركة مع الإيطاليين ، فتولى عمر المختار قيادة (الجبل الأخضر) ، وتلاحقت القبائل بالانضمام إليه ، واتفق الرؤساء على أن يكون هو القائد العام ، والرئيس الأعلى

للمجاهـدين ، وهـاجمتهم القوى الإيطـاليـة ، فردُّوا هجومهـا ، وغنموا منهـا آلات حربية ومؤناً غير قليلة ، وأشهر مانشب من المعارك : معركة (الرحيبة ، وعقيرة المطمورة ، وكرسـة) ، وهي أسماء أمـاكن في الجبل الأخضر ، نسبت إليهـا تلـك الوقائع .



الشّيخ عمر المختار
بطل مجاهد مسلم ، رفض الزّائف من المال ، والبهرج من المجد ، فظل شامخ الرأس ، عزيز النفس حتى صعدت روحه طاهرة إلى بارئها .

يقول (غراسياني Graziani) القائد العام الإيطالي ، في بيان له عن الوقائع الّتي نشبت بين جنـوده والسيـد عمر المختـار : « إنهـا كانت مئتين وثـلاث وستين معركة خلال عشرين شهراً » ، هذا عدا ماخاضه عمر المختار من المعـارك في خلال عشرين سنة قبلها ، وبينما هو في سرية من رجالـه ، نحو خمسين فـارسـاً بنـاحيـة (سلنطـة) بـالجبل الأخضر ، يستكشف مواقـع العـدو ، فـوجئ بقـوة إيطـاليَّـة أحاطت به ، فقاتلها ، واستشهـد أكثر من معـه ، وأصيب بجراح ، وقتل جواده ،

فانقض عليه بعض الجنود ، فأسروه[٦] ، وهم لا يعرفون من هو ، ثم عَرِفَ وأُرسل إلى (سوسة) ، ومنها أُركب الطراد (أوسيني) إلى (بنغازي) ، وسجن أربعة أيام[٧] . ثم قدم للمحاكمة ، يوم الثلاثاء ١٥ أيلول ١٩٣١ م .

٢ - في (بنغازي) ، وفي عمارة مجلس النُّواب الطَّرابلسي سابقاً ، وهي العمارة الَّتي كان (الفاشيست)[٨] قد اغتصبوها وجعلوها مركزاً لحزبهم باسم (ليتوريو) ، أعدت القاعة الكبرى فيها للمحاكمة .

وتحت حراسة مرعبة ، نقلت سيارة من زنزانة السجن ، سيد المجاهدين اللِّيبيين ، مكبل اليدين بالحديد إلى المحكمة ، تتقدمها مصفحة تقل حملة الرَّشاشات ، وتحيط بها سيارتان فيهما حملة رشاشات ، وتمشي وراءهما سيارتان تنقلان أيضاً حملة رشاشات .

أُنزل السَّجين الشَّيخ ، ومشى عالي الرَّأس كأنه ابن ثلاثين ، حتى بلغ قفص المحكمة .

ارتبك جميع من في القاعة ، إنه بدا كبيراً كبيراً للناظرين .

لم يكن الشَّيخ المثقل بالسِّنين ، وغدرات الزمان ، ليبدو سجيناً ، بل عظيماً عظيماً ، عظيماً ظهر .

---

(٦) كان ذلك مساء الجمعة ٢٣ ربيع الآخر ١٣٥٠ هـ ، الموافق ١٣ أيلول ١٩٣١ م .

(٧) الأعلام ٢٢٦/٥ و ٢٢٧ ، وكتاب عمر المختار ، للسيد أحمد محمود ، طبع مصر سنة ١٣٥٣ هـ .

(٨) الفاشيست : أُسِّس الحزب الفاشستي سنة ١٩١٩ م ، وتوطَّد في إيطاليه مابين : ١٩٢٢ - ١٩٢٩ م ، على يد بينيتو موسوليني Benito Mussolini : [١٨٨٣ - ١٩٤٥ م] ، وتقوم النَّظرية (الفاشِيَّة) على انتقاد الحريَّة البرلمانيَّة ، وتلح على تفوُّق الدَّولة ، وعلى ضرورة إجبار الفرد على الخضوع طوعاً أو كرهاً لمشيئتها ، [تاريخ القرن العشرين ، ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٨٩ وما بعدها] .

وخيم سكون ، سكون رهيب ، يحكي صمت القبور ، حتى القضاة الَّذين بدأت لغة الموت تدور على ألسنتهم ، وفي خواطرهم ونياتهم ، جلسوا صامتين ، حتَّى العسكر الَّذي يذبح ويقتل قد سكت !

ماذا ، أترهبون بدوياً معمِّراً ، على حافة قبره ، وقد كبلتم يديه بالحديد ؟!

ماذا دهاكم يا (فاشيست) ؟

لا ... إنه لأكبر من شيخ معمر ، وأعظم من إنسان . إنه رمز شيء ما ، لا يعرف إنسان ما هو !

وها هو القفص المحتجز فيه ، يتصاعد منه نور ، ويتضوَّع عبق[9] .

المحكمة كان يرأسها كولونيل اسمه (مارينوني)[10] ، أحاط به ضابط وثلاثة قضاة ، أقسم التُّرجمان اليمين ، وبدأ الكاتب يقرأ ما في ورقة الاتهام :

عصيان الدولة ، إعلان حرب صحيحة عليها ، قتل ضباطها وجنودها ، جباية الضرائب من الأهلين إلخ ... إلخ ...

وترجمت ورقة الاتهام إلى العربية ، وسأل الرَّئيس سجينه عن هويته .

وبصوت جلي واضح عذب ، متماسك الأوتار ، قال :

- اسمي عمر بن المختار ، وأُمِّي عائشة بنت محارب ، من قبيلة (المنفة) ،

---

(٩) التَّعبير هنا من كتاب عمر المختار مقاتلاً وشهيداً ، ليوسف إبراهيم يزبك .
ويتضوَّع من (ضَوَعَ) : ضاع المسك ، من باب تحرَّك فانتشرت رائحته (مختار الصِّحاح : ٣٢٩) .

(١٠) وفي رواية أن المارشال (غرازياني) قائد الحملات الإيطالية ، هو الَّذي حاكمه .

عمري ٧٣ سنة ، ولدت في موقع (دفنة) ، إقامتي في (الجغبوب) ، شيخاً لزاوية (القصور) .

ـ هل سمعت ما ينسب إليك من تهم خطيرة ؟

ـ نعم ، وسأجيب عنها كلها ، واحدة واحدة ، مهما كبرت وخطرت .

وانطلق عمر المختار يقص مأساة ليبيا منذ الاحتلال ، والمفاوضات الَّتي دعاه إليها رجال الاحتلال ، والوعود الكاذبة ، والنكث بها . وتكلم عن الظلم والطغيان ، والاستبداد والاغتصاب ، وانتهاك الحرمات ، وتحقير المقدَّسات ...

وانتهى قائلاً برباطة جأش مذهلة ، وأنا أتحمل جميع التُّهم ، الَّتي ألصقتها بي النيابة العامة العسكريَّة إلاَّ واحدة ...

الرئيس : هل أنت قائد العصيان ضدّ إيطالية ؟

عمر : نعم ... أنا هو .

الرئيس : هل حاربت الدَّولة الإيطاليَّة ؟

عمر : نعم حاربتها .

الرَّئيس : إني أُكرر السُّؤال عليك فانتبه لنتائجه : هل حاربت الدَّولة الإيطاليَّة ، فتناولت السِّلاح في وجه قواتها واشتركت في قتالها فعلياً ؟

عمر : نعم ... نعم ... نعم !

الرَّئيس : كم هو عدد المعارك الَّتي اشتركت فيها ، منذ سنة ١٩١١ م حتَّى اليوم ؟

عمر : لا أذكر عددها لأنها كثيرة لا تُحْصى !!

الرَّئيس : هل قتلت ضابطين طيارين وقعا في يديك أسيرين[11] ؟

وانتفض قائد المجاهدين ونبر : أما هذه فلا ، ثم لا .. فقد قبضت عليهما وأبقيتهما في (سلنطة) ، وفاوضت المركز الإيطالي بشأنهما ، غير أن جنودكم هاجمونا ، وجرت بيننا معركة أرغمتني على الانسحاب . ولما رجعت عرفت أن الضابطين قُتِلا ، ولم أعرف كيف ، ولكني أؤكد أنهما قتلا بغير أمْرٍ مني ، وبغير مشيئتي ومعرفتي .

الرَّئيس : هل أمرت بقتل الجنود الَّذين كانوا يحرسون العَمَلَة في شقِّ الطَّريق ؟

عمر : نعم أنا الَّذي أمرت بقتلهم .

الرئيس : منذ كم تتولى قيادة العصيان ؟

عمر : منذ عشر سنوات .

وعلى هذا المنوال سارت (المحاكمة) كلُّها نعم ، نعم ، نعم ، كانت أجوبة الأسير عن جميع التُّهم الَّتي نسبوها إليه ، ولم ينكر واحدة منها : فهو الَّذي قاد الثورة والجهاد ، وقام لمحاربة الاحتلال ، فقتل عسكره ، وهدم أعماله ، وخرب طرقه ، إلاَّ تهمة واحدة كاذبة ، بأنَّه قتل الضَّابطين اللَّذين أسرهما ، فقد ردَّها ردّاً قوياً جازماً ، وكان ماقاله صحيحاً ، فإسلامه يمنعه من قتل الأسير ، وللجهاد آداب في الإسلام ، لخصها سيدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في عشر خصال ، جاءت في وصيته الَّتي ودع بها جيش أُسامة بن زيد[12] ، وفيها يقول : « ... لاتخونوا ولا تغلوا ، لاتغدروا ولا تمثلوا ... » .

---

(١١) وهما الطَّياران : أوبر وبياني .

(١٢) الكامل في التَّاريخ ٢٢٧/٣ ، الطَّبري ٢٢٦/٣

ومن آداب الإسلام في الجهاد : عدم التَّمثيل بالقتيل أو الإحراق بالنار ، أو تجويع الأعداء ، أو إرهاب الأسرى . فكيف يقتل عمر المختار أسراه ، وهذه هي آداب الإسلام في الجهاد ؟!!

لقد أصرَّت المحكمة على التهمة قصداً وعمداً ، لتمحو عن جبين الاستعمار وزعيمه (موسوليني)(١٣) عار قتل الشَّيخ الأسير ، الَّذي وقع في يد (الفاشيست) .

وشتان بين الواقعين : فالطيَّاران الأسيران قُتِلا ، وليس من دليل واحد أن عمر المختار أمر بقتلهما . أمَّا المجاهد العربي الأسير فها هو أمام جلاديه ، يحاكمونه لأنه قاوم طغيانهم وآثامهم ، وبعد ساعات قليلة يقتلونه علناً !

سخرت المحكمة ضابطاً إيطالياً للدفاع عن عمر ، وماذا ينتظر من ضابط تربَّى في مدرسة الاستعمار الفاشيستي أن يقول في عربي مسلم عدو لدولته !

ومما أثير في نهاية المحكمة ، موضوع الأموال ، والمساعدات الَّتي عرضها عليه رجال الاحتلال ، في المفاوضات الَّتي دارت بينهم لأجل الصُّلح . فلم يغتر عمر بمال . لقد رفض الإغراءات الإيطالية ، وكان آخرها (هدية) من الجنرال (بادوليو) قيمتها مليون فرنك ، أُرسِلت إليه في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٨ هـ/١٩٢٩ م ، فرفضها المكافح المجاهد المسلم الأبي رفضاً عزيزاً ، وأجاب بأنه ليس من طلاب الهدايا ، ولا من قابليها .

وثبتت للمحكمة أيضاً أن حكومة الاحتلال ، لم تجد في جميع سجلاتها الرَّسميَّة أو السِّريَّة أي مال دفعته لعمر المختار طوال سني الاحتلال . ما كان لعمر وإخوانه المجاهدين أن يرضوا بمال أو هدية دنيوية زائلة ، إنَّهم ينتظرون هدية ربِّهم بأن يسمح لهم بلقائه أتقياء النيَّة والضَّمير واليد .

---

(١٣) مرَّت ترجمة (بينيتو موسوليني) في الحاشية الثَّامنة من هذا الفصل .

انتهت المحكمة . ودخل رجال القضاء غرفة الأسرار ، ولم يطيلوا ، رجعوا ليعلنوا الحكم بالإعدام .

مُدَّة المحاكمة كلّها ، منذ دخول المتَّهم قاعة المحكمة في الساعة الخامسة بعد الظهر ، إلى خروج الحكم من فم الكولونيل (متارينوني) في السَّاعة السَّادسة والرُّبع ، لم يزد على خمس وسبعين دقيقة . فكل شيء كان معدّاً من قبل .

سمع المتهم ترجمة الحكم إلى العربية ، ولم تتحرك شعرة في جفنيه ، بل نظر إلى هيئة المحكمة متعالي الرأس وقال : الحمد لله ! الحمد لله ! وكانت هذه الكلمات أوجع صفعة على وجه (موسوليني) و (الفاشيست) والاحتلال الإيطالي .

وفي يوم الأربعاء ١٦ من أيلول (سبتمبر) ١٩٣١ م ، اتّخذت التَّدابير اللازمة بمركز (سَلُوق) لتنفيذ الحكم ، أمام جمع غفير من أبناء (بنغازي) . وفي السَّاعة التَّاسعة تماماً سُلِّم الجاهد الكبير إلى الجلاد .

ولما همَّ الجلاد ببدء عمله أمام أبناء الوطن الحزانى ، قال المجاهد المؤمن ، بهدوء مرتعش ، مطمئناً كأنه في (زاوية القصور) : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » . ومع هذه الشهادة ، وبهذا الجلال ، هوى وصار بين يدي الله وهو يقول : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون » .

وانطوت صفحة من تاريخ العرب ، ملأ الشَّيخ المسلم عمر المختار سطورها شرفاً ونوراً ...

وصعدت روح المختار لتتبوأ مكانها مع الَّذين أنعم الله عليهم ﴿ مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداء والصَّالحين ﴾ ، لتضيف إلى صحائف الأبطال ، صحيفة عبقة فواحة تسجل لأبناء الإسلام عزة قائد باسل رفض الزائف من المال ، والبهرج من المجد ، وتكالبت عليه السنون العجاف ، بما تحمل من جبروت وحرمان ، فظل

شامخ الرأس ، عزيز النفس يصيح بمخالفيه **لن أهزم ومعي في الحياة روح الإسلام** ، وعدالة محمد ، **ولي في الآخرة سكينة المؤمن ومثوبة الاستشهاد**[١٤] .

حقيقة لا تحتاج إلى استنتاجات وتحليلات ، فهي أوضح من أن نـدلـل عليها : لقد حمل الإسلام لواء التحرر ضد الطليان في ليبيا ، وقدم خيرة أبنائه في ساح الجهاد ، ليعلم العالم أجمع : **أنه على عاتق الإسلام ، والإسلام وحده ، وقع عبء مقاومة الاستعمار في ليبيا !!**



(١٤) مع الأبطال ، للأستاذ محمد رجب بيومي ، ص : ٢٢٤

ســـوريـــة

« الشَّيخ بدر الدِّين الْحَسَني الموجِّه الأوَّل للثَّورة السُّوريَّة الكبرى ، والأب الرُّوحي لها .
الشَّيخ علي الدَّقر من على منبر جامع السنانيَّة : « ياإخواننا اللِّص دخل الدَّار وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء : دينكم ومالكم وعرضكم . ولما سئل : ومن هو هذا اللِّص ياشيخي ؟! أجاب : إنه فرنسة ! »[1] .

لكي تدلل فرنسة على مدى الاهتمام ، الَّذي تعلقه على قضيَّة استبدال الجيوش الانكليزية بالفرنسيَّة في سوريَّة ، فقد قامت بانتقاء أحد كبار قادتها في الحرب

---

(١) مراجع هذا البحث عن سوريَّة :
المقابلات الَّتي قمتُ بها مع المجاهدين شخصيّاً ، وستذكر في حينها ، والشكر كل الشكر لدولة الأُستاذ حسن حكيم الَّذي تكرَّم بإعارتي بعض المراجع الهامَّة عن هذه الفترة ، ولفضيلة الأُستاذ فخر الدِّين الحسني الَّذي أطلعني على مكتبته الخاصَّة .
- معركة ميسلون ، إحسان الهندي .
- كفاح الشَّعب العربي السُّوري من عام ١٩٠٨ - ١٩٤٨ م ، إحسان الهندي .
- الثَّورة السُّوريَّة الوطنيَّة ، مذكَّرات د . عبد الرحمن الشَّهبندر .
- فاجعة ميسلون والبطل العظيم يوسف العظمة ، د . محي الدِّين السَّفرجلاني .
- إيضاحات ديوان الحرب العُرْفي بعاليه ، نشرها جمال باشا السَّفَّاح .
- تاريخ العصر الدَّموي ، المحامي ناصيف أبي زيد .
- الإخوة الشُّهداء الثلاثة ، المطران بشارة الشَّمالي ، مطران دمشق .
- يوم ميسلون ، صفحة من تاريخ العرب الحديث ، ساطع الحصري (أبو خلدون) . =

العالميّة الأولى ، وهو الجنرال (غورو)[٢] ، الذي كان يقود حامية (ستراسبورغ) ، وعيّنته مفوضاً سامياً لفرنسة في سورية و (كيلكية)[٣] ، خلفاً للمسيو (جورج بيكو) ، وذلك يوم ٨ تشرين الأوّل ١٩١٩ م ، ولقد قال المسيو (كليمنصو) للجنرال (غورو) لما بلغه تعيينه كمفوض سامٍ بالحرف الواحد : « ستكون الجندي الكبير ، الّذي سيخلق موطناً لفرنسة في الشّرق »[٤] .

ولا يهمنا سير الأحداث الّتي أدت إلى موقعة (ميسلون)[٥] ، بل يهمنا أحوال الطرفين قبيلها ، ومن الّذي خرج لملاقاة جيش الاحتلال الذي جاء لوضع سورية تحت الانتداب الفرنسي ؟

في ١٩ تموز ١٩٢٠ م ، تحرك ركب الجنرال (غوابييه) من بيروت ، حيث بات مع أركانه بمقر قيادته في (عين صوفر) ، بأمر من (غورو) ، باتجاه دمشق ، وفي اليوم التالي ركب سيارته وزار الجنرال (غورو) في (عاليه) ، وأخذ منه آخر التعليمات ، ثم ابتدأ بتفتيش وحداته التي بدأت تتمركز في حدود (البقاع) ، **ثم عاد (غوابيه) إلى مقرّ قيادته في دير الآباء اليسوعيين في (تعنايل) .**

= - وبعض الصّحف الّتي تتعلّق بالبحث ، الصّادرة سنة ١٩٢٥ م وما بعدها ، مثل : سوريّة الجديدة ، الرأي العام البيروتيّة ، فتى العرب ، الكفاح ، الجزيرة ..
- تاريخ الثّورات السّوريّة ، أدهم الجندي .

(٢) هنري غورو Gouraud : [١٨٦٧ - ١٩٤٦ م] ، جنرال فرنسي ، (مرّت ترجمته) .

(٣) كيليكية : هي المنطقة الممتدة من سفوح جبال طوروس الجنوبيّة ، حتّى الحدود العربيّة السّورية الحاليّة ، من أهمّ مدنها : أُورفة وعنتاب .

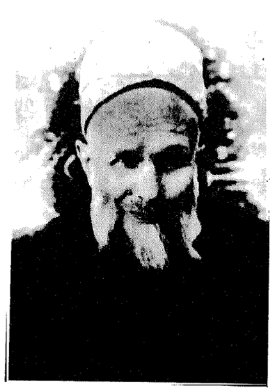
(٤) قال كليمنصو للجنرال غورو :

«Vous serele grand soldat qul créeva en orient un foyer Francis».

عن كتاب : Traditions et Politique de la France au Levant.. P.300

انظر كتاب : معركة ميسلون ، ص : ٦٩

(٥) ميسلون : إلى الشمال الغربي من دمشق (٢٥ كم) ، فيها قبر الشّهيد يوسف العظمه .



الشَّيخ علي الدَّقر :
« ياإخواننا اللّص دخل الدّار ، وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء : دينكم ، ومالكم ، وعرضكم ... إنه فرنسة » .

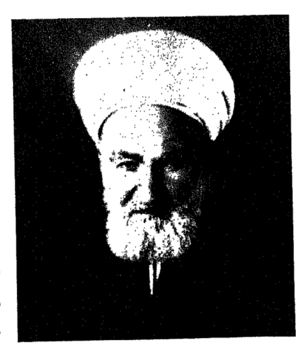
وأصدر (غوابيه) أوامره باستخدام بساتين (تعنايل) كمطار لطائراته ، **واستفاد من مزارع الإرسالية اليسوعيَّة هناك ، لتمويه تجمعاته وتحركاته ،** وهذا يدلّ مع الأسف على المهات الحقيقيَّة الَّتي كانت لبعثات التَّبشير في بلادنا ، لقد كان أفرادها يحملون الإنجيل بيد ، والخنجر بأُخرى ، وهذا ينافي جوهر الدِّين المسيحي[٦] .

قام الملك (فيصل بن الحسين)[٧] باستدعاء الشَّيخ كامل القصَّاب رئيس

(٦) جاء في الإنجيل : « طوبى لصانعي السّلام » ، هل عمل الصّليبيُّون في العهود الغابرة بموجب هذه القاعدة ؟ وهل كانت أُوربة على حقٍّ في شنّ تلك الحروب الوحشيَّة على إخوانهم في البشريَّة ؟ أمْ إنَّه التَّعصُّب الذَّميم ، الَّذي قابله التَّسامح عند المسلمين على مرِّ العصور ؟!؟

(٧) فيصل بن الحسين بن علي الحسني الهاشمي (فيصل الأوَّل) : [١٣٠٠ ـ ١٣٥٢ هـ = ١٨٨٣ ـ ١٩٣٣ م] ، ولد بالطَّائف ، تولَّى قيادة الجيش الزَّاحف إلى الشَّام بعد قيام الثَّورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦ م ، نودي به ملكاً على البلاد السُّوريَّة سنة ١٩٢٠ م ، وبعد احتلال فرنسة لسوريَّة ، نودي به ملكاً للعراق سنة ١٩٢١ م .

(اللجنـة الوطنيَّـة العليـا) ، الَّتي كانت تنـادي بـالمحـافظـة على استقلال سوريَّـة بحدودها الطَّبيعيَّة ، ويرفض الاستسلام رفضاً باتاً ، وخاطبه قائلاً : ولقـد نزلت أنا وحكومتي عند الرغبة الَّتي طالما ناديتم بهـا ، لمقـابلـة العـدوان بـالقوة ، وقبلت قولكم بأن القوى الوطنيَّة مستعدة للقيام بتلك المهمة ، فهيَّـا أرِنـا همتـك وعلى الله التَّوفيق . فـانطلق الشَّيخ كامل مع نفر من أصحـابـه ، يرافقهم البكبـاشي شريف الحجار ، الَّذي كان قد أُسنـدت إليـه مهمـة سوقيـات الجيش ، يحثون النَّـاس على الخروج إلى ميسلون لصدّ العدو المهـاجم . فتراكض جمع غفير إلى محطـة الحجـاز ، ليمتطـوا القُطُر الَّتي تنقلهم إلى مكان الـدِّفـاع وهم مسلحـون بـالبنـادق القـديمـة ، والمسدسات والسيوف ، بل حتى بالمقاليع .



الشيخ محمد كامل القصَّاب

« رئيس اللجنة الوطنيـة العليـا هيـأ ونظم لمعركة ميسلون » .

يوسف العظمة

ولد عام ١٨٨٤ م في حي الشّاغور بدمشق ، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ، توفي والده فكفله شقيقه الأكبر . دخل يوسف مدارس دمشق الابتدائيّة ، ومنها انتقل عام ١٨٩٣ م إلى المدرسة الرّشيديّة العسكريّة الّتي تقع في حي البحصة بدمشق ، ثم انتقل عام ١٨٩٧ م إلى المدرسة الإعداديّة العسكريّة ، الّتي كان مقرّها جامع (دنكز) ، وفي عام ١٩٠٠ م انتقل إلى المدرسة الحربيّة التّحضيرية في (اسطنبول) ، ثم المدرسة الحربيّة العالية ، فتخرج **ملازم ثان** ١٩٠٣ م . وصار عام ١٩٠٧ م نقيباً ، بعد دورة أركان حرب محليّة في اسطنبول ، ثم التحق بألمانية عام ١٩٠٩ م لدراسة أركان حرب عليا . التحق بالحكومة العربية في دمشق ، لينخرط في القوات السُّوريّة ، مع العلم أنه كان بوسعه أن يبقى في تركية برتبته نفسها ، لأنّه متزوّج من فتاة تركية .

وليس بوسع الباحث ، أن يفهم موقف الفقيد الوطني في ميسلون على جَلِيّته ، إلاّ إذا علم أنه كان يعتز بعروبته ، الّتي تتخذ الطابع الدّيني الإسلامي[8] اعتزازاً واضحاً .

كان متديناً متمسكاً بإسلامه ، مؤدياً صلواته ، وصائماً أيام الصّوم ، ومزكياً متصدقاً ، ومحافظاً على الشّعائر الإسلامية كل المحافظة ، كان متديناً تديناً عصرياً ، متحلياً بفضائل الدّين الإسلامي ، مسلماً حقاً بما في كلمة المسلم من معنى رفيع[9] .

وكان يوسف يعلم ، أنّه لابدّ من معركة فاصلة بين السوريين وفرنسة ، ولم

---

(٨) معركة ميسلون ، ص : ٩٦

(٩) فاجعة ميسلون ، ص : ٤٤

يكن يمنعه من خوضها علمه سلفاً بأنه سيخسرها .. واعتقد أنَّ مشي فرنسة على جثث المقاومة ، واستيلائها على أرض خربة مدمرة ، أفضل وأشرف للشعب السُّوري ، من فتح أبواب بلاده لجيشها ، يدخلها ويمشي في شوارعها مستعلياً ..

وكان رحمه الله مؤمناً بأنه مقبل على الموت لامحالة ، ولذا فقد قال لساطع الحصري وهو يودعه قبل انطلاقه إلى ميسلون : « إنِّي أترك ابنتي الوحيدة ليلى أمانة في أعناقكم »[(١٠)] .

وفي مساء ٢٣ تموز قام يوسف العظمة بجولة على الوحدات المتركزة في منطقة (**عقبة الطين**) ، ثم عاد إلى مركز قيادة الفرقة ، حيث تناول العشاء مع قائد الفرقة ، ثم التحف كل منهما (ببطانية) عسكرية رغبة في النَّوم ، ولكنهما لم يتمكنا من ذلك إلاَّ حوالي منتصف اللَّيل ، وقد بقيا مستغرقين بالنَّوم حتَّى السَّاعة الرَّابعة صباحاً ، حيث استيقظا في هذه الساعة ، فأديا صلاة الصبح ، ثم بدأا بالاستعداد لخوض معركة ميسلون .

☆ ☆ ☆

وأبرز من قاتلوا واستشهدوا في ميسلون ، هم من علماء المسلمين الَّذين اعتقدوا أن الاشتراك في ميسلون فريضة جهاد مقدسة[(١١)] ، يجب أن يؤديها المسلم ولو استشهد هناك . ومن هؤلاء العلماء :

فضيلة الشيخ عبد القادر كيوان[(١٢)] :

خطيب الجامع الأموي الكبير ، ذو همة متوقدة ، ونفس شاعرة ، ودماغ

---

(١٠) معركة ميسلون ، ص : ٩٧

(١١) المرجع السَّابق ، ص : ١٨٧

(١٢) عبد القادر بن أحمد كيوان [١٢٩٣ ـ ١٣٣٨ هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٢٠ م] : صاحب نشيد : « نحن لانرضى الحماية » ، دمشقي الأصل والمنشأ ، مولده ببيروت ، ولي الخطابة في الجامع الأموي بدمشق .

مفكر ، العالم الديني المتصوف ، السياسي الوطني ، من كبار رجال الأمة الذين يشار إليهم بالبنان ، كان ميالاً إلى الأعمال دون الأقوال ، لذلك قضى عليه إخلاصه ووفائه ، بأن يكون في عداد المجاهدين فلقي ربّه شهيداً في ميسلون[١٣] .

فضيلة الشيخ كمال بن أحمد الخطيب :

من حفظة القرآن الكريم والمتون ، الحائز على إجازة التدريس في الجامع الأموي الكبير ، وخطيب وإمام في جوامع دمشق ، دفعه إيمانه العميق ، وإسلامه الحق ، إلى ميسلون ، فلقي وجه ربّه في هذه الفاجعة[١٤] .

الشيخ محمد توفيق بن محمد سليم الدّرا :

العالم الفقيه ، الحائز على منصب مفتي الجيش الخامس ، كان متصوفاً ، يميل إلى الحديث والتّفسير ، يلهج في مجالسه بالاستقلال وجمع كلمة العرب ، وإعادة مجد الأُمويين والعباسيين ، على غاية من الهمة والجهاد ، خرج إلى ميسلون ، حيث لقي وجه ربّه شهيداً[١٥] .

الشيخ ياسين نجل العلامة الشيخ نجيب عميد آل كيوان :

تلك الأُسرة المشهورة بالتّدين والعِلْم ، وهو تاجر ورع ، وهو من جملة خطباء مدرسة (القلبقجية) بدمشق ، الطموح إلى العلاء ، المتقد غيرة وحماساً ، لبى صوت إيمانه وإسلامه الحي ، فهرع إلى ميسلون حيث استشهد عليه رحمة الله[١٦] .

وكان من الشهداء العلماء أيضاً : الشّيخ سليم الدّرا ، الشّيخ عمر الصّبّاغ ،

---

(١٣) فاجعة ميسلون ، ص : ٣٣٩

(١٤) فاجعة ميسلون ، ص : ٣٤٠

(١٥) فاجعة ميسلون ، ص ٣٤٠ أيضاً .

(١٦) المرجع السّابق ، ص ٣٤٠

وصادق هلال ، وأحمد الموصلي ، ومحمد نوري الحصري ، وعبده الصباغ ، وأحمد القحف ، وعبد الله الكلاَّس ، ومحمد نيروز (من دومة) ، وأبو الخير الجابي(١٧) ... وغيرهم كثير كالشيخ صلاح الدين أبو الشامات : التاجر بالعطارة ، ترك التِّجارة وعكف على الطريقة الشَّاذلية المختصَّة بأُسرة بني أبي الشَّامات ، كان على روح حيَّة متوثِّبة ، روح الشَّباب الممتلئ حماسة ، والمعلم حمية ، دعاه واجبه الدِّيني إلى ميسلون ، حيث لقي وجه ربِّه .

- وكان أهالي قريتي (الحلوة) و (دير العشائر) بقيادة الشيخ مرزوق التخيمي .

- ومن المجاهدين المسلمين في ميسلون : أبو صلاح العرجا ، هاشم الأغواني ، صالح الصابوني ، أبو سليم العرجا ، مستو الأغواني ، عبدو المرادي ، محمود قاروط ...

خرج المجاهدون العلماء ، بقيادة يوسف العظمة ، خرجوا للجهاد في سبيل الله تحت راية موجودة الآن في المتحف الوطني بدمشق ، وهي العلم العربي من حيث الشكل والألوان ...

ولكن حملت الراية على وجهها الأول :

على اللَّون الأسود : بسم الله الرحمن الرحيم . وجاهدوا في سبيل الله .

وعلى اللَّون الأبيض : إنَّ الله معنا .

وعلى اللَّون الأخضر : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً .

وعلى وجهها الثَّاني :

على اللون الأسود : لاإله إلاَّ الله .

---

(١٧) معركة ميسلون ص : ١٨٧ ، وأبو الخير الجابي هو قائد تشكيل حمدي الجويجاتي الَّذي حضر ميسلون .

وعلى اللَّون الأبيض : محمد رسول الله .

وعلى اللون الأخضر : اللواء الأول سنة ١٣٣٨ هـ (المشاة) .

تحت هذا العلم العربي ، وما حمل من شعارات ومعان ، جاهد المسلمون في ميسلون ، وقابلوا الموت ، بل خرجوا له ، لأنَّ الظروف الدَّوليَّة لم تكن إلى جانبهم حينما قرروا الوقوف في وجه فرنسة ، إنَّهم يعلمون أنَّ المعركة انتحارية وغير متكافئة ، ولكنهم مع ذلك خاضوها تحت شعار : المحافظة على الشَّرف والكرامة مهما كانت النتيجة ، وليعلم العالم أجمع ، أنَّ دمشق عاصمة الأُمويين ، ما كان لمحتل أن يدخلها إلاّ على جثث أبنائها المؤمنين .

وسمع فيصل بن الحسين باستشهاد يوسف العظمة وبعض من معه من العلماء ، فقال : « إني أحني رأسي احتراماً لجميع هؤلاء الَّذين ضحوا بحياتهم في سبيل الاحتجاج على اعتداء لم يعرف له التَّاريخ مثيلاً »[١٨] .

وهكذا دخل (غورو) دمشق في أوائل شهر آب سنة ١٩٢٠ م ، وكان أوَّل مافعله بعد وصوله ، أنه توجَّه إلى ضريح السلطان البطل صلاح الدين الأيوبي[١٩] ، فدخل إلى مقامه الكريم ، بكل عنف وتهكم ، وسيفه إلى جانبه ، وعمرته فوق رأسه ، وقال بشماتة : « يا صلاح الدين .. أنت قلت لنا ، في إبَّان حروبك الصَّليبيَّة إنَّكم خرجتم من الشَّرق ولن تعودوا إليه .. وها إنَّنا قد عدنا .. فانهض لترانا ها هنا ، لقد ظفرنا باحتلال سورية » .

وهي الحجة نفسها الَّتي أثارت الحروب الصَّليبيَّة ، مدللاً بذلك على الرُّوح الاستعمارية الحديثة !!

☆ ☆ ☆

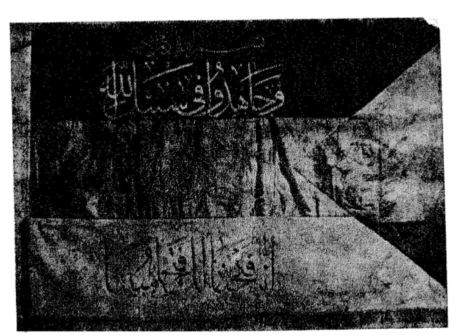
---

(١٨) فاجعة ميسلون ، ص ٣٣٧

(١٩) صلاح الدِّين الأيوبي ، مرَّت ترجمته .



الملـــك فيصــل
يسلم العلم إلى
لــواء المشـــاة
الأول بحضــور
وزير الحربيــة
يوسف العظمة



وجه علم « لواء المشاة الأول » الذي اشترك في معركة ميسلون

صور من جهاد المجاهدين في الثورات السورية :

سقطت (كفر تخاريم)[٢٠] بيد الفرنسيين ، وليس لهم بذلك فخر ، نظراً لكثرتهم ، وقلة عدد المجاهدين ، لكن استرجاع (كفر تخاريم) في أوائل شهر كانون الأوّل ١٩٢٠ م ، حمل للمجاهدين كلَّ فخر . ولعل من الصَّعب على أحدنا اليوم أن يصدق حوادث هذه المعركة البطولية ، الَّتي قام بها السيد نجيب عويد ، مع نفر من المجاهدين ، ولكن إذا علمنا أن هذه الواقعة قد أيدها أكثر من خمسين مجاهداً ممن لا يزالون أحياء[٢١] ، منهم الشيخ يوسف السعدون ، وإبراهيم الشّغوري ، وكثيرون من مجاهدي الشّمال في استنطاقات ذكروها لمندوب المتحف الحربي بدمشق ، إذا علمنا ذلك ، فلا بد من إقرار هذه الحقيقة .

قال نجيب عويد : عند دخول العدو (كفر تخاريم) تفرق أهل المدينة ، أو كثير منهم في الجبال والأودية ، وكنت ترى منظراً يفتت الأكباد ، وتنفطر له المرائر من صراخ النِّساء ، وبكاء الأطفال من شدة البرد ، فلما رأيت هذا المشهد المؤلم ، ناديت بملء صوتي في المجاهدين : أين أهل المروءة والشّهامة والنَّجدة ؟ ... فلبوني مسرعين قائلين : ماذا تريد ؟

فقلت : أُريد جماعة يبيعون نفوسهم في سبيل الله ، رحمة بهؤلاء النساء والأطفال .

فقالوا : « حاضرون » .

فطلبت منهم أن يتبعوني .

وفي أواخر اللَّيل وصلنا أطراف (كفر تخاريم) ، فأحصيت من معي فإذا هم ثلاثون مجاهداً ، فجعلتهم في ثلاث فرق : فرقة تأتي العدو من الشرق ، وعليها

---

(٢٠) كفرتخاريم : مدينة في محافظة حلب ، جنوبي حارم ، قرب حدود لواء الاسكندرون .

(٢١) القصّة بحرفيّتها رواية المجاهد نجيب عُوَيِّد ، (كفاح الشّعب العربي السُّوري) ، ص : ٧٤

محمد مامو ، ومصطفى أبو درويش ، وفرقة من الجنوب وعليها الحاج درغام درة ، والفرقة الثالثة كنت عليها مع عقيل السقاطي ، فتوجهت كلُّ فرقة إلى المكان المعين لها ، وتمّ الاتفاق بيننا على إطلاق النَّار عندما يسمعون صوتي بالأذان . وعندما بزغ الفجر ، وقفت فوق أحد القبور الواقعة على مرتفع غرب المدينة ، وناديت بصوت مرتفع أُخاطب به من بقي من أهل البلدة في منازلهم : يا أهل (كفر تخاريم) لا تخافوا ... ها نحن المجاهدون ضربنا نطاقاً حول البلدة ، ولا نطلب منكم سوى الدعاء والتكبير ، لأن جمعنا يزيد على ثلاثة آلاف مجاهد .

ثم رفعت صوتي بالأذان ، فكنت تسمع من كل بيت الأذان والتَّكبير ، وبعد ذلك باشرنا إطلاق النَّار ، وقذف القنابل اليدويَّة على الخيام الَّتي فيها العدو ، فتراكض الجند مذعورين ، لا يعرف الخصم من أين يأتيه ، ولا الرَّصاص المتطاير متى يصيبه أو يرديه ، والتَّهليل والتَّكبير يصمّ آذانه ، وحركات الثُّوار من جهات ثلاث تهدم بنيانه .

وما كادت الشَّمس تشرق وتضيء الكون بنورها ، ويتبين الخصم خصمه ، حتَّى كانت الفئات المدعوة لشدّ أزر المجاهدين من أبناء (القصير) و (سلقين) في طريقها إلى ميدان المعركة ، تقترب منه وتستعد له ، وكان العدو بنقص مستمر ، بما يرد إليهم من نجدات .

وكلما تعالت الشَّمس كان الخناق يضيق على العدو حتَّى حشر حشراً في أرض منخفضة نسبياً ، وأحيط من جهاته الثلاث على وجه التقريب ، ولم يبق له منفذ إلاَّ الشَّمال ، وكان لابدَّ له من قبول أحد أمرين : إما الفناء المحقق ، وإما التَّراجع القهقرى ، وليس له من طريق ، إلاَّ من جهة الشَّمال ، فآثر الحياة والخذلان ، على الموت المحتم ، وانسحب شمالاً في غرب باتجاه (حارم) تاركاً وراءه ما يزيد على مئة وثلاثين قتيلاً ، بينما استشهد من جماعتنا اثنا عشر شهيداً مع عدد من الجرحى .

وبعد هذه المعركة ، وجد الجنرال دي لاموت - قائد منطقة حلب العسكرية - نفسه مضطراً لتسيير حملة ضخمة لمحاولة القضاء على الثَّورة ، فوجه حملة بقيادة الكولونيل (ديبيوفر) انقسمت الحملة إلى مفرزتين ، وكانت غاية الفرنسيين من قسم الحملة إلى مفرزتين ، هي حصر قوات (إبراهيم هنانو) بين فكي كماشة ، في منطقة أعالي نهر العاصي ، ولكن كلا الرتلين لم يحقق مهمته ، حيث تصدى للرتل الأوَّل **الشَّيخ يوسف السَّعدون** ، مع نفر من رفاقه ، عندما حاولت قوات هذا الرتل اجتياز نهر العاصي ، للوصول إلى الضِّفة الشَّرقية قرب موقع (جسر الحديد) ، فمنيت بخسائر كبيرة قبل أن تتمكن من اجتيازه[٢٢] .

وأما قوات الرتل الثاني ، فقد اصطدمت ثانية في قرية (طلينا) يوم ٨ كانون الأوَّل حيث خسرت عدداً كبيراً من أفرادها ، وعلى رأسهم الكابتن (لاروك) ، واليوتنان (ملازم أول) ليشن .

وبعد التقاء الرتلين قامت الحملة مجتمعة بمهاجمة بلدة (منبج) ، فلم تقدر على احتلالها إلاَّ بعد معركة عنيفة خسرت بها اليوتنان (سيز) وعدداً من القتلى .

وفي ٢٩ كانون الأول ١٩٢٠ م ، كانت حملة (ديبيوفر) قد خسرت عدداً ضخماً من القتلى ، ولذا لم تجد القيادة العسكريَّة الفرنسيَّة بُدّاً من إعادتها إلى حلب ، لتعيد تنظيمها . وسيرت حملة بقيادة الجنرال (غوبو) بدلاً منها ، ولاقت حملة (غوبو) حرب عصابات من المجاهدين - لضخامتها - فكبدتها خسائر فادحة ، فطلبت الإمدادات . ولكن الإمدادات وقعت بيد الثوار المجاهدين .

ومما يذكر في الشَّمال :

أنَّ الحاج فاتح المرعشلي ، تكفل بتقديم النفقات الأوليَّة لحملة من المجاهدين كاملة ، مع إعاشة عائلات المجاهدين طيلة فترة غيابهم في الجهاد !!

---

(٢٢) تاريخ الثَّورات السُّوريَّة ، الأُستاذ أدهم الجندي ، وكفاح الشَّعب العربي السُّوري ، ص : ٧٧

ومما ذكره لي فضيلة الشيخ محمد الحكيم مفتي حلب[٢٣] رحمه الله تعالى ، بعد مديح كبير للمجاهد الشيخ يوسف السعدون ، أن الشيخ أبودان ، وهو من حلب ، هجم على دبابة فرنسية وحده ، وهو يكبر ويهلل ، فقتل من فيها ، واستشهد فوقها عند خروجه منها .

وذكر فضيلته لي أيضاً أن الشَّيخ عبد اللَّطيف عبد الجليل ، وقف مع أربعة فقط من المسلمين المؤمنين المجاهدين ، في وجه عشرات من الفرنسيين في حلب ، وذلك لمدة ساعات طويلة .

وفي حماه : أدَّى أبناؤها لثورة الشَّمال ، ولثورة السَّاحل الَّتي قامت بقيادة الشَّيخ صالح العلي ، المنحدر من أسرة عربية عريقة في الشرق الإسلامي[٢٤] ، خدمات جلى ، حيث كانوا يؤمنون لهما دوماً السِّلاح والذَّخيرة ، الأمر الَّذي أزعج الفرنسيين ، وجعلهم يقومون بإعدام مجاهدين حمويين هما : الحاج حمدو الجلاغى ، وكامل الباكير .

وبعد انتصارات الثُّوار المجاهدين في منطقة (الهرمل)[٢٥] ، تنادى زعماء شيوخ منطقة (الهرمل) لاجتماع عقد في قرية (مرجحين) ، يوم ٣٠ أيار ١٩٢٦ م ، وقد انتهى الاجتماع إلى عدة مقررات هامة منها :

ـ « بما أنَّنا من الشَّعب الإسلامي العربي ، فإنَّ مطالبنا هي مطالبكم المشروعة السِّياسية : الخطاب إلى سوريَّة حباً بالانضمام إليها بعد أن فصلها (غورو) وضمها إلى لبنان الكبير » .. وقالوا في النهاية : « وكلنا عرب مسلمون فنرجوكم التكرم بالإسراع في إجابة ملتمسنا ، وإعادة حقوقنا السِّياسيَّة وإعلامنا نتيجة المفاوضات »[٢٦] .

---

(٢٣) وأيَّد ذلك الدكتور نور الدين العتر .

(٢٤) الإيضاحات السِّياسيَّة .. ص : ١٨٤

(٢٥) الهرمل : في شمالي لبنان حالياً ، حيث بعض ينابيع نهر العاصي .

(٢٦) كفاح الشَّعب العربي السُّوري ، ص : ٩٩ و ١٠٠

ومن مقررات الثُّوار المجاهدين في منطقة (الهرمل) : « تشكيل جيش خاص في المنطقة يطلق عليه اسم : (جيش أمير المؤمنين) ، وتسليم القيادة العامة لهذا الجيش إلى المجاهد سعيد العاص »[٢٧] .

إبراهيم هنانو .. كان نداؤه عند إعلان الثورة : « بعدما حاربتم معه ، (مع الحلفاء في الحرب العالمية الأُولى) كتفاً لكتف في سبيل استقلالكم ، خانكم ، وهزئ بدماء شهدائكم ، وما كانت جريمتكم إلاَّ أنَّكم من أبناء الشَّرق المسلمين »[٢٨] .

وقوات هنانو كان فيها :

- سرية مجاهدي منطقة حلب بقيادته الخاصَّة .
- سرية مجاهدي منطقة (القُصَيْر) بقيادة الشَّيخ يوسف السعدون .
- سرية مجاهدي (جبل صهيون) بقيادة السَّيد عمر البيطار .
- سرية مجاهدي (كفرتخاريم) بقيادة السَّيد نجيب عويد .
- سرية مجاهدي (جبل الزاوية) بقيادة السَّيد مصطفى الحاج حسين .

ومن الملاحظ أنَّ (سرايا المجاهدين) مفهوم إسلامي ، يؤيد هذا صيغة نداء هنانو ، وقيادة السرايا الَّتي أوكلت إلى مؤمنين ملتزمين بمبادئ دينهم !! لذلك جاء في بيان مجاهدي (القلمون) أيضاً[٢٩] ، عند إعلان الثَّورة على فرنسة : « وبما أن جهادنا المقدس ، لأجل تحرير البلاد ، فيجب علينا الاتفاق والاتحاد والتحاب عملاً بقوله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى** ﴾ ، [المائدة ٥/٢] وقوله : ﴿ **وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ ، [الحجرات ٤٩/١٥] » .

☆ ☆ ☆

(٢٧) الشَّهيد سعيد العاص : حارب في فلسطين أيضاً ، وفي معركة (الخضر) الَّتي دارت صباح ٦ تشرين الأوَّل ١٩٣٦ م ، حوصر من قبل قوَّة بريطانيَّة ضخمة ، واستبسل في الدِّفاع حتَّى قُتِلَ ، ولما وصل النبأ إلى مدينة حماه ، أعلنت الحداد عليه عاماً كاملاً ، وأُقيمت له عدَّة احتفالات تأبينيَّة ، إشادة ببطولته الرَّائعة ، ويقول المَوَّال الحموي من الأدب الشَّعبي :

عَلى الزَّعِيمْ المجاهِدْ ، وَهو سَعيدْ العاصْ رُكْنُ الأَمَلْ انْهَدَمْ والدَّمعْ مِنِّي عاصْ

(٢٨) كفاح الشَّعب العربي السُّوري ، ص : ٢٢١

(٢٩) المرجع السَّابق ، ص : ٢٢٤

المحدث الأكبر

الشيخ بدر الدين الحسني

من عرف الحقّ ، عزَّ عليه
أن يراه مهضوماً .

هاهي الحقائق التَّاريخيَّة ، مدعمة بالوثائق ، ومن بينها وثائق بابوية مسيحيَّة ، ولمؤلفين مسيحيين أيضاً . والكثير من الصُّحف الصَّادرة في الثلث الأوَّل من هذا القرن العشرين ، على اختلاف وجهات نظر أصحابها وأهدافها .. تؤكد كلُّها أنَّ مفجِّر الثَّورة العربيَّة الكبرى ، والمخطط للثورة السورية الكبرى هو العلامة الشَّيخ بدر الدين الْحَسَنِي ، محدِّث الدِّيار الشَّاميَّة .

سنرى في هذا الفصل كيف أعدَّ النُّفوس ، وهيّأ للثَّورة ، ثم فجَّرها مع تلاميذه ممن حملوا لواء الإسلام في سوريَّة ، نذكر منهم على المثال لا الحصر ، العلماء الأفاضل التَّالية أسماؤهم :

الشَّيخ علي الدَّقر : الَّذي بلغ به الأمر ، في أحد الأيام أن أنهى خطبته بجامع السنانية بقوله : « يا إخواننا ، اللِّص داخل الدار ، وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء : دينكم ومالكم وعرضكم ، ولما سأله أحد المستمعين : ومن هو هذا اللِّص يا شيخي ؟ أجاب الشَّيخ علي الدَّقر : إنه فرنسة ! »[٣٠] .

الشَّيخ نجيب كيوان : الَّذي كان يمزج دروسه في المسجد الأُموي ، بحضّه على الجهاد ، والثَّورة ضدَّ الفرنسيين والتبرُّع للمجاهدين .

الشَّيخ محمد حجاز : زعيم عُصْبة قبر عاتكة وباب سريجة ، (بدمشق) .

---

(٣٠) المرجع السَّابق ، ص : ١٣٧

الشَّيخ موسى الطويل : رئيس لجنة إغاثة أُسَر الثُّوار ، عاش غنياً ، ومات فقيراً ، لإنفاقه ماله على الثَّورة والثُّوار وأُسرهم[٣١] .

الشيخ محمد ديراني : كان يرفع طلقات الرصاص في درسه العام ، ويقول للناس : إخوانكم بحاجة إلى مثل هذا ، وقد حكم عليه بالإعدام[٣٢] .

وحدثني المجاهد السيد (أبو الهدى العاني)[٣٣] عن هذا العالم المجاهد الجليل ، أنَّه كان يعد في دمشق جنازة شكليَّة ، يملأ تابوتها بالذَّخيرة والبنادق والقنابل ... ويُخْرِج أمامها مؤذِّن ، ومشيِّعون وراءها ، حتَّى مخفر (الشيخ حسن) ، فيقوم الضباط والجنود الفرنسيون لتأدية التَّحية للجنازة ، اعتقاداً منهم أنَّها تحمل جثة ميت ، ولما يصل الشَّيخ محمد ديراني إلى المقبرة ، تفرغ الذخائر والأسلحة بالقبر مع اتفاق مسبق مع الثُّوار ... فيأتي الثُّوار ليلاً لأخذ المدد الَّذي يجعلهم يتابعون جهادهم .

الشَّيخ عبده البيتموني ، والشَّيخ محمد البيتموني ، والشَّيخ سعدي التغلبي ، من عصبة المجاهدين في سوق القطن .

الشَّيخ حمدي الجويجاتي : كان يجهز الثُّوار ، وذكر لي السيد (أبو الهدى العاني) : أن الشيخ حمدي الجويجاتي كان يجهز الثوار ، ونحن أولاد كان يقول لنا : « هيا لمساعدة الثُّوار بما تستطيعون هيا لضرب الجنود الفرنسيين »[٣٤] .

الشَّيخ صلاح الزَّعيم : دفع الرجال في حي (السَّمَّانة) إلى الجهاد وجاهد بنفسه ، وكان يقول : « ادعموا الثُّوار ، قدموا لهم »[٣٥] .

---

(٣١) ذكر لي المجاهد الشَّيخ عبد الحكيم المنيِّر عنه (رؤية العين) كان الشَّيخ موسى الطَّويل لا يردُّ طالباً من الفقراء ليلاً نهاراً .

(٣٢) من مقابلة الشَّيخ عبد الحكيم المنيِّر بتاريخ ١٩٧٥/٦/٣ م بعد صلاة العصر .

(٣٣) تمَّت مقابلة الأخ السَّيِّد أبو الهدى العاني ، صباح ١٩٧٥/٦/٢٢ م ، في دار الفتوى بدمشق .

(٣٤) و (٣٥) من مقابلة المجاهد أبو الهدى العاني ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٢٢ م .

الشَّيخ عبد الحكيم الْمُنَيِّر (إمام المسجد الأُموي الكبير حالياً) ، ما حدثني في مقابلته الطويلة عن نفسه ، ولكن حدثني عنه الشَّيخ سليمان الزَّنكوسي رحمه الله ، والسَّيد المجاهد (أبو الهدى العاني)[٣٦] يكفيه فخراً أنَّه أوَّل من دخل إلى (قصر العظم) تحت قيادة الشَّيخ محمَّد الأشمر لقتل (ساراي) ، المفوض السَّامي الفرنسي ، واشترك بكل معارك الغوطة مع الشيخ محمَّد الأشمر .

الشَّيخ أمين سويد : من مجاهدي الغوطة .

الشَّيخ محمد الأشمر ، تلميذ الشَّيخ أمين الزَّملكاني رضي الله عنه ، وكان يأتمر بأمر الشَّيخ بدر الدين الحسني .

الشَّيخ عبد الله الأفغاني : وهو خادم الشَّيخ بدر الدين ، كان يشترك بالحملات ، ثم يرجع إلى (دار الحديث) لمتابعة خدمة الشَّيخ بدر الدين .

الشَّيخ توفيق سوقية ، من مجاهدي الغوطة المشهورين .

الشيخ محمد الفحل : كان مع الشيخ عبد الحكيم المنير ، انضما إلى المجاهد الخراط ، استشهد قرب قرية (عقربا) . وذكر لي الشيخ عبد الحكيم : رأيت الشَّيخ محمد الفحل (منحوراً نحراً في الخندق)[٣٧] دفناه مع ، لاأذكر ستة أو سبعة شهداء ، في (عقربا) بعد معركة كبيرة مع الفرنسيين .

الشَّيخ محمد شويلح ، من (عربين) ، استشهد في الغوطة .

ومن شهداء معارك الغوطة أيضاً : الشيخ محمد خير غزال من باب السريجة ، الشَّيخ أحمد الخياط ، الشَّيخ عز الدِّين الحلاق ، الشَّيخ حمدي السَّمان ، الشَّيخ

---

(٣٦) وشهد بذلك أيضاً فضيلة الشَّيخ محمود الزَّنكوسي في مقابلة بدار الحديث ، تاريخ ١٩٧٥/٥/٣١ م .

(٣٧) ذكر لي ذلك الشَّيخ عبد الحكيم المنيِّر بتاريخ ١٩٧٥/٦/٣ م ، وقال : كان مع الشَّيخ محمد الأشمر وحده ثلاثون عالماً ، نقيم شعائر الإسلام .

صبري المليحاوي ، الشَّيخ ضاهر حمايل من (الغيضة) ، الشيخ مصطفى سيف ...

فواعجباً كم حُوِّر التَّاريخ ، وكم كتمت حقائقه ! وعجب أكبر ممن يريد أن يظهر الإسلام بعيداً عن حركات التَّحرر !!

ألا أن الحقيقة رائعة هذه المرة ، لمن يبحث عنها ، فإذا هي كالشَّمس سطوعاً ، فليغمضوا أعينهم حياء ، وليطأطئوا رؤوسهم خجلاً مما صنعوا ، وليهزوا رؤوسهم بالتَّصديق ، **إنَّ البطولة الحقَّة والجهاد الحق ، إنَّما كان من الإسلام ، وبالإسلام ، وبطريق الإسلام ، الَّذي كان متمثلاً في قائد الثَّورة الشَّيخ بدر الدِّين الْحَسَني ، وتلامذته الأتقياء الأصفياء المجاهدين .**

ألا فلنحنِ هاماتنا إجلالاً لأولئك العلماء الَّذين سطروا ملامح الجهاد بدمائهم بصمت ، لا يريدون من وراء جهودهم وجهادهم جزاء ولا شكوراً ، فحسبهم أن يبقى نور الحق مضيئاً ، وكلمة الله هي العليا .

☆ ☆ ☆

الشَّيخ بدر الدين الحسني ؟

إنه محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد الملك المغربي الْمَرَّاكُشي ، من ذرية السيد النَّسيب الحسيب ، المحب للرسول الكريم ﷺ ، الإمام الجزولي ، صاحب دلائل الخيرات ، من ذرية سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

ولد والد الشَّيخ بدر الدين في قرية (بيبان) ، من (مديرية البحيرة) بمصر ، ثمَّ شبَّ السيد يوسف والد الشيخ ، فرحل إلى مَرَّاكُش ، ثم إلى سوريَّة ، ونزل دمشق .

ولـد العلامـة الشَّيخ بـدر الـدين سنـة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥١ م بـدمشـق فحفـظ الصحيحين غيباً بأسانيـدهمـا ، ونحو عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفـة ، وكان يأبى الإفتـاء ولا يرغب في التصنيف[٣٨] ، ويـذكر صـاحب الأعلام : « لمـا قـامت الثَّـورة على الاحتـلال الفرنسي في سـوريَّـة : كان الشَّيـخ يطـوف المـدن السُّوريَّة ، متنقلاً من بلدة إلى أُخرى ، حاثّاً على الجهاد ، وحاضّاً عليـه ، يقـابل الثـائرين ، ويغـذيهم برأيـه ، وينصح لهم بـالخطـط الحكيمـة ، فكان أبـاً روحيـاً للثورة والثائرين المجاهدين »[٣٩] .

كان يقضي وقته بالتدريس والتوجيه والتربيـة في دار الحـديث ، وفي جـامع بني أُميَّة تحت قبة النَّسر ، ومع سعة اطلاعه ، كان قوي الـذَّاكرة ، فلا يحتـاج إلى مراجعـة ، وإذا أراد مراجعـة بحث ، لم ينظر في الفهرس ، بـل يقلب على المكان الَّذي يريده ، فيقف عليه بسهولة .

من صفـاتـه وأخلاقـه : التَّقوى ، كان صوامـاً قـوامـاً تقيـاً ورعـاً ، محبـاً لله ورسوله وآل بيته ، مهيباً ، مطاعاً ، نافذ الكلمة ، سمحاً ، سخياً . بـذل مـا عنـده من مال للثوار .

ونبدأ في قصة جهاد الشيخ بدر الدين ، عندما طلب أحمد جمال باشا السَّفاح منه أن يتحفه ببعض إرشـاداتـه خطـاً ، يريـد بـذلـك الحصول على شهـادة تبرئ سـاحتـه في المستقبـل ، وبمـا أن العـاتي (جمـالاً) كان كبير النَّفس ، فلم يصرح ببغيته ، بل طلب إلى سماحة الشيخ[٤٠] أن يتحفه خطـاً ببعض نصـائحـه الغَرَّاء ، فزعم هذا الفاضل (حامل طلب أحمد جمـال بـاشـا) أنَّ القـائـد يطلب النَّصـائح

---

(٣٨) و (٣٩) الأعـلام ٣٣/٨ و ٣٤ ، وكفـاح الشعب العربي السُّوري ، ص ١٣٧ : « الشَّيـخ بـدر الـدِّين الحسني ، الَّـذي كان المحرِّك الأوَّل في أوسـاط تـلاميذه ومريـديـه ، راجع أيضـاً (أعـلام الإسـلام) ، ص : ١٠٢ .

(٤٠) تاريخ العصر الدَّموي ، ناصيف أبي زيد ، ص ٣٥٠ ، ولاحظ احترام المسيحيين لسماحته .

والدَّعوات ، فـأرسل إليـه مع خطيب (دار الحـديث) حضرة الأستـاذ محمـد يحي أفندي (المكتبي) ، تحريراً فيه النَّصائح والإرشادات لقواد وأمراء الجيوش ، كأنور وجمال وأترابها .

والوثيقة حرفياً على الشَّكل التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمـد لله ربّ العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى الأنبياء والمرسلين . أما بعد فأهـدي حضرتكم جزيل السَّلام راجيـاً ممن برأ الأنـام أن يجعل لكم التَّوفيـق أعظم رفيـق ، وأن يجعلكم حصنـاً لمنع الضَّلال ، ومنهلاً للفضـل والكمـال ، وأن ينفـع بكم العبـاد بسلوك السَّداد ، فإن الظَّفر والنَّصر ، واستقامـة الأمر ، بـاتبـاع الحق والعمل بـه بين الخلـق . وإنَّ الظُّلم وارتكاب المحرمـات ، السَّبب الأقـوى لنقص الأرزاق ، وحلول أنواع البليَّات . والمرجو دعاؤكم والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[٤١] .

محمد بدر الدين

عفا الله عنه

أما وصايا سيدي الشيخ بـدر الـدين[٤٢] لقواد أُمراء الجيوش العثمـانيَّـة كأنور وجمال وأترابها ، فقد كانت الأمر برعاية الله تعـالى ، كالمحـافظـة على الصَّلوات في الأوقات ، والأدب مع النبي ﷺ .

ـ النَّهي عن الاستيلاء على الوظـائف الـدِّينيَّـة لغير الأهل ، فـإنَّ توليـة غير الأهل تؤدي إلى محو الدِّين ، وأخذ الأجانب بلاد المسلمين .

(٤١) النَّص حرفياً من المرجع السَّابق ص ٣٥٠

(٤٢) التَّوصيات من ص : ٣٥٢ و ٣٥٣ ، وكلمة (سيدي الشَّيخ بدر الـدِّين) للمحـامي نـاصيف مؤلِّف المرجع المذكور .



الشيخ بدر الدين الحسني
الموجه الأول للثورة السورية الكبرى
والأب الروحي لها .

- النهي عن الالتماس والشفاعة بغير الحقّ ، حتّى تحفظ حقوق العباد ، ولا يدعو المظلوم .

- الأمر بالنهي عن إيذاء أهل الذِّمَّة .

ودعم الشَّيخ الثَّورة العربيَّة الكبرى ، واعترف بالشَّريف حسين وكيلاً للدفاع عن قضية العرب ، وتعهد بأن تثور جميع الفرق العسكرية المرابطة بالشَّام ، حالما يتوصل الحسين إلى اتفاق مع بريطانية ... « **وفي سبيل دعم هذا التعهد ، سلَّم**

الشيخ بدر الدين الحسني ، وهو كبير علماء الدّين في دمشق ، إلى فيصل ختمه ليحمله إلى الشريف كدليل على ثقة الشّام به »[٤٣] .

ولما علمت الحكومة العثمانيّة (حكومة الاتحاديين) بخروج الشريف الحسين عليها ، أفتت بخروجه عن الطاعة وطلبت مقاتلته ، وقد صادق الناس على هذه مرغمين خوفاً من الشنق والإبعاد ، « ولما انتهى دور ختمها[٤٤] إلى الشيخ بدر الدين امتنع ، فحاولوا إقناعه بالوعد تارة ، وبالوعيد أخرى ، حتّى إنّ (جمالاً) الطاغية كلف نجل الأستاذ الشيخ تاج الدين أفندي أن يقنع والده بختمها فأبى »[٤٥] .

فهل يعقل بعد هذا ... أن يوقع الشيخ بدر الدين كما يشيع بعض أصحاب الأغراض ولا دليل لهم طبعاً ، على أن الشيخ بدر الدين أفتى بشنق شهداء السّادس من أيّار عام ١٩١٦ م ؟!

قليل من الإنصاف يا ناس !! فمن صفاته الّتي دُوِّنت منذ أكثر من خمسين سنة ، أنَّه لا يعطي فتوى لأحد ، وإذا أصرَّ أحدهم عليه ، يحيله إلى بعض تلامذته يفتيه .

روى الشيخ عبد الرحمن الزعبي[٤٦] دخول امرأة إلى دار الشيخ بدر الدين ،

---

(٤٣) يقظة العرب ، جورج أنطونيوس ، تعريب علي حيدر الركابي ، دمشق : ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ، ص : ١٧٩ ، وتأكَّدت من ذلك من عشرات المجاهدين شخصيّاً .

(٤٤) ختم ما يسمى (العريضة) ، أي الورقة الّتي تحمل فتوى خروج الشّريف حسين على حكومة الاتّحاديين .

(٤٥) تاريخ العصر الدّموي ، للمحامي ناصيف بك أبي زيد ، طبع مطبعة المفيد ، دمشق ١٩١٩ م ، ص : ٣٥٤ و ٣٥٥

(٤٦) سمعت هذه القصَّة من فضيلة السَّيِّد فخر الدِّين الحسني ، ورجعت إلى نجل الشَّيخ عبد الرَّحمن الزُّعبي ، فكان ماكتبته بروايته ، علماً أن صاحب الأعلام ٣٣/٨ و ٣٤ ، سجل في ترجمة الشيخ بدر الدِّين أنَّه كان يكره الفتوى ولا يفتي .

بعد عصر يوم من أيام عشرة ذي الحجة ، تسأل عن الأُضحية وأحكامها ، فقال لها : سلي العلماء ، بل بالحرف الواحد : « يابا ، تسألِ العلماء » ، فقام أحد التلاميذ وقال : أنتم العلماء يا سيدي ، علماً أن جميع تلامذته الَّذين رباهم علماء ، فقام أربعة يفتي كل بمذهبه ، فقالت المرأة مخاطبة الشيخ بدر الدين : صحيح ؟ فقال سماحته : « يَابَا ، هيك قالوا ، على مسؤوليتهم لا على مسؤوليتي » ، فأراد أن يكونوا هم المفتين ، وليس هو ، فإن كان بهذا الورع ، وأرسل خاتمه إلى الشَّريف حسين يحضه على الثَّورة ، فكيف يفتي بشنق شهداء أيار الَّذين من بينهم العلماء ، مثل : الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، والشيخ أحمد طبارة ؟؟ قليلاً من العقل والإنصاف أولاً ، ولا تظلموا التَّاريخ ثانياً ، فأين الوثائق الَّتي تثبت أنَّ الشَّيخ بدر الدين أفتى بإعدامهم ؟

هذا ... ومحاضر محاكمة (عاليه) ، الَّتي قضت بإعدام شهداء أيار ، صدرت بكتاب عنوانه : (إيضاحات ديوان الحرب العرفي بعاليه) ، نشرها جمال السفاح القائد العام للجيش الرَّابع ، وصدر عام ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م . نشر السَّفاح هذه المحاضر لتعليل أسباب إعداماته الجائرة ، وليخفف من غليان الرأي العام العربي ، ولو كان السَّفاح قد أخذ فتوى من الشَّيخ بدر الدين ، لما احتاج إلى نشر المحاضر ، ولاكتفى بنشر الفتوى ، فهي الوسيلة الوحيدة في حينها لتهدئة الرأي العام ، الَّذي كان يقدِّس الشيخ بدر الدين ، ويأتمر بأمره ، ويلوذ به ؟! فلو حصل السَّفاح على فتوى ، لجلجل بها أركان العالم العربي والإسلامي ولما احتاج إلى تبرير عمله !

وحقيقة سمعتها من أكثر من عالم ثقة تقول : لقد تشفع الشَّيخ بدر الدين بشهداء أيَّار ، فرفض جمال السَّفاح شفاعته ، وخوفاً من هياج الرأي العام بسبب ذلك ، أخرج السفاح تعليلاته وإيضاحاته ، بنشره محاضر محاكمات (عالية) !!

والوثيقة المصورة المنشورة هنا ، توضح صلة الشيخ بدر الدين ، بالشريف حسين ، واستئذان الشريف للشيخ بالثورة ، وذلك بإرسال ابنه عبد الله إلى دمشق ومقابلته لسماحة الشَّيخ بدر الدين .

ولو أفتى الشَّيخ بشنق الشهداء ، لما عين فيصل عند دخوله إلى دمشق ولده الشيخ تاج الدين شيخاً للإسلام . وكان فيصل إذا نزل إلى صلاة العيد ، إلى المسجد الأموي ، تصطف جنوده في سوق الحميديَّة (في دمشق) ، وفي طريق عودته تصطف جنوده في (العصرونية) حتى (دار الحديث) ، لمعايدة الشيخ بدر الدين والتَّبرُّك به ، ثم يخرج إلى القصر ليتلقى التهنئة .

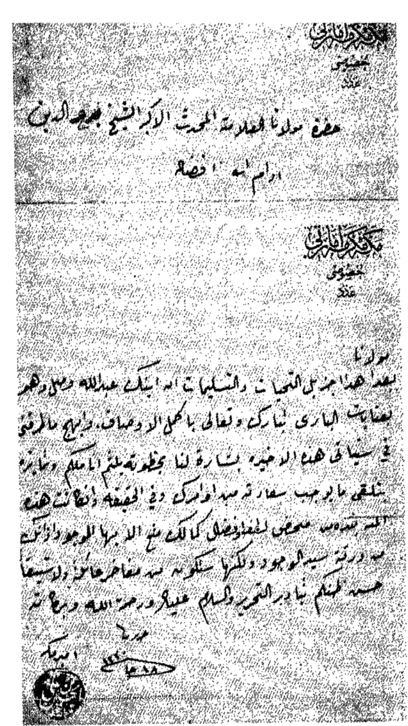
ولما وصل (غورو) إلى دمشق ، رفض الشيخ مقابلته ، ومنع الناس من دفع الضرائب للفرنسيين ، أو التعامل معهم[٤٧] ، وصار في دروسه العامة يعلن أن الجهاد فرض على النَّاس ، علماً أنَّه أرسل ابنه الشيخ تاج الدين ، والمفتي الشَّيخ عطا الكسم للقتال في (ميسلون) .

ولما هيأ الشيخ النفوس ضدَّ فرنسة ، قام بجولته الشهيرة في المحافظات[٤٨] ، فكان أول عمل يعمله في أي مدينة ينزلها ، دخوله المسجد الكبير فيها ، وإلقاؤه حكمه ومواعظه ، ويحث الجميع على الثورة ضدَّ فرنسة . وما أن عاد إلى دمشق ، حتَّى قامت الثَّورة في كل المحافظات في اليوم التَّالي لعودته .

---

(٤٧) من مقابلة الشَّيخ عبد الحكيم المنيِّر ، والسيد الفاضل أبو الهدى العاني ، في التَّواريخ الموضَّحة سابقاً .

(٤٨) ذكرت بعض الكتب هذه الجولة ، مثل : كفاح الشَّعب العربي السوري ، والأعلام ، وأعلام الإسلام . وسمعتها من عشرات المعاصرين للشَّيخ بدر الدِّين ، كالشَّيخ الفاضل محمود الرَّنكوسي ، والشيخ الفاضل عبد الحكيم المنيِّر ، والشيخ الخطيب ، والسيد أبو الهدى العاني .. ومما قاله الأُستاذ العاني : كان يحثُّ النَّاس في المحافظات على الثَّورة والعصيان المدني .



حضرة مولانا العلامة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين

دام الله أفضاله

مولانا

بعد إهداء جزيل التحيات والتسليمات إن ابنكم عبد الله وصل وهو [illegible]

بعناية الباري تبارك وتعالى بأكمل الأوصاف، وأبهج ما [illegible]

في سياق هذه الأخيرة بشارة لنا بحظوته بلثم أناملكم و[illegible]

[illegible] وفي الحقيقة وإن كانت هذه

[illegible]

[illegible] سيد الوجود [illegible]

[illegible] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

« هذه الوثيقة » : من مراسلات سماحة الشيخ بدر الدين الحسني مع الشريف حسين أمير مكة ، وهي رسالة وصلت سماحة الشيخ بخط الشريف حسين بعد عودة ابنه عبد الله من دمشق « من عند الشيخ بدر الدين » يحمل إذن سماحته بإعلان الثّورة العربية الكبرى .

وعشرات ذكروا لي ، ممن عاصروا سماحة الشيخ بدر الدين ، أنه أرسل مع عبد الله خاتم توقيعه للشريف حسين ، كدليل من سماحته له بإعلان الثورة العربية الكبرى على تركية التي حذفت الإسلام من حياتها .

حدَّثني فضيلة الشيخ محمود الرنكوسي في (دار الحديث) بتاريخ ١٩٧٥/٤/٣١ ظهراً ، أن الشيخ بدر الدين أحضر مُفْتِيّي المناطق أيضاً إلى هذا المكان ، الَّذي نجلس فيه ، وسأل كل واحد منهم : كم فرنسي في بلدتكم ؟ فقال له الشيخ يوسف مفتي يبرود : من مئة إلى مئة وخمسين فرنسياً ، فقال الشيخ بدر الدين : وكم تعدون أنتم ؟ ألا تقتلونهم ؟ ماذا تنتظرون ؟!

وروى الشَّيخ الرَّنكوسي أيضاً ، أن المرحوم يحي المكتبي ، تلميذ الشيخ الخاص ، روى له قصة مجيء المندوب السَّامي الفرنسي لدار الحديث ، فأُدْخِل إلى غرفة فارغة من البشر ، ولبث فيها قليلاً ، ودخل الشيخ بدر الدين إليه ، فقام له احتراماً ، فطلب منه المندوب السامي تهدئة الأوضاع ، فأجابه الشيخ بدر الدين بعنف : لا تهدأ الثورة إلاَّ بخروجكم ، فقد تَمَدَّنَّا ، جئتم حسب رأيكم لتمديننا ، لقد تمدَّنَّا . وما سمح للمندوب السامي أن يكثر معه الحديث[(٤٩)] .

وفي مقابلات المجاهدين ، ذكر لي الجميع أن الشيخ محمد الأشمر ، والمجاهد المؤمن حسن الخراط ، كانا صباحاً قبيل فجر كل يوم ، يقابلان الشيخ بدار الحديث ويأخذان منه التَّعليمات . وكان الشيخ بدر الدين يضع يده على رأس الشيخ المجاهد محمد الأشمر وعلى رأس حسن الخراط ويقول : « علقوا قلوبكم بالله ولا تخشوا أحداً إلاَّ الله »[(٥٠)] .

وكان يمدهم بالذَّخيرة والمؤن عن طريق تلامذته كالشَّيخ محمد ديراني ، والشَّيخ عبد الله الأفغاني ، خادم الشَّيخ الخاص . وكان همزة الوصل بين الثُّوار

---

(٤٩) أكَّد هذا الحديث أيضاً الأُستاذ محمود المكتبي ، نجل الشَّيخ يحي ، بحديث معه بتاريخ ١٩٧٥/٦/٨ م بجلسة في ثانوية ابن خلدون (دمشق) .

(٥٠) من حديث الشَّيخ محمود الرَّنكوسي بتاريخ ١٩٧٥/٥/٤١ م في دار الحديث ، في الغرفة ذاتها الَّتي كان يقابل بها الشيخ بدر الدِّين الثُّوار .

والشَّيخ أيضاً شخص اسمه « الهايشي »(٥١) فكان يقدم تقريراً يومياً للشيخ عن سير معارك الغوطتين .

ومما يذكر ، أن الضابط المغربي (عَطَّاف باشا) وهو برتبة كابتن ، كان مؤمناً مسلماً يحضر إلى المسجد الأموي ليسترق النظر إلى الشيخ بدر الدين ، وكان يصلي ركعات عديدة . وفي يوم من الأيَّام قال للفاضل السيد أبي الهدى العاني ، أن فلاناً وفلاناً وفلاناً جواسيس ، حضروا بالأمس إلى مقر القيادة وتحدثوا طويلاً عن تحركات الثُّوار ، قال السيد العاني : قلت ذلك إلى المجاهد أبي عمر ديبو ، تلميذ الشيخ أمين الزَّملكاني ، إن الكابتن (عطاف باشا) يقول كذا وكذا عن فلان وفلان . فقال لي : إن كان (عطاف باشا) مسلم حقيقة ، فليمدنا بالسِّلاح .

يقول السيد أبو الهدى العاني : فقلت لعطاف باشا ذلك ، عندما وصل إلى المسجد الأموي للصلاة ، فقال عطاف باشا : (طَيِّب) ، غداً سنخرج بحملة إلى دومة ، وفي طريق العودة ، سننشطر شطرين ، شطر من الحملة سيرجع من الطريق الرَّسمي (الحالي) ، وشطر سينطلق من دومة عن طريق ترابي شمالي بين البساتين ، وهذا الشطر كلُّه مغاربة ، سنضع لكم كمية من السِّلاح والذَّخيرة في كرم اتفق عليه وهو (كرم الشيخ موسى) بحَرستا .

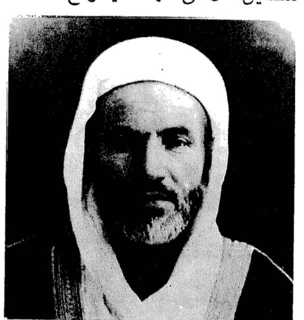
وفي طريق عودة الحملة ، وفي (كرم الشيخ موسى) ، فكَّ (عطَّاف باشا) والمغاربة حمولة من مئة إلى مئة وخمسين بغل في المكان المحدد ، وكان الثوار وقائدهم أبو عمر ديبو على بعد خمس مئة متر فقط ، ينظرون من خلف الشجر ،

---

(٥١) ونسي الشيخ عبد الحكيم المنيِّر الاسم الأوَّل لهذا المجاهد ، وقال حرفياً : حسن الخرَّاط خرج بأمر الشيخ بدر الدين والعلماء ، وكان له صلة وثيقة بالشيخ بدر الدين ، يأتمر بأمره ، لقد كانت دمشق كلُّها تلوذ بالشَّيخ بدر الدين رحمه الله .

وبعد فكّ السلاح والذخيرة ، أطلق (عطاف باشا) سبع طلقات في الهواء ، إعلاماً لنا على انتهاء العملية كما اتفقنا مسبقاً . فجاء الثُّوار ، وحلف لي أبو عمر ديبو ، أنا كنا نراهم وهم يضعون البنادق والطلقات والقنابل . ويقول السيد العاني مبتسماً : فأصبحت رايتي بيضاء عند أبي عمر بعد هذه العملية ، الَّتي تكرَّرت أكثر من عشرين مرة ، بسبب حبّ (عطاف باشا) للعلامة الفاضل الشَّيخ بدر الدين الحسني .

وذكر الشَّيخ محمد الأشمر ، أن (عطَّاف باشا) ساعده في الميدان ، وقدم له كمية جيدة من السلاح . ومما يذكر أنَّ فرنسة لم تنتبه للأمر ، بحجة أن الحملة قد اشتبكت اشتباكاً عنيفاً وخسرت معظم ما معها ، والحقيقة أنها طلقات في الهواء للتضليل تدل على انتهاء عملية وضع الأسلحة للثوار(٥٢) .



الشيخ محمد الأشمر
من أبطال معارك الغوطة .

(٥٢) القصة برواية السيد أبي الهدى العاني ، فهو صلة الوصل بين الثُّوار وعَطَّاف باشا ، وأيَّد القصَّة دولة الأُستاذ حسن الحكيم ، في جلسة بداره بتاريخ ١٩٧٥/٥/٦ م ، بحضور الأُستاذ محمد حسن الحمصي ، وأيَّدها الأُستاذ فخر الدين الحسني . وقال المجاهد صالح سلو بعد أن أيَّد القصَّة : انضم حوالي خمس مئة مغربي جزائري بكامل أسلحتهم للثوار في الغوطة قرب قرية (المليحة) ، بسبب عاطفتهم الدِّينيَّة الإسلاميَّة ، وقال : وبطولتهم تُحَيِّر ، لا يخشون الموت .

وكان المجاهد حسن الخراط(٥٣) إذا عقد محكمته ، يصدرها باسم (إمام المسلمين الشيخ بدر الدين الحسني) ، فهل بعد هذا دليل على قيادة الشيخ بدر الدين للثورة !





حسن الخراط

« بطل من الأبطال ، لا يهاب الموت » .

دولة الأستاذ حسن الحكيم

---

(٥٣) وصفه دولة الأُستاذ حسن الحكيم أنّه بطل من الأبطال ، وقال المجاهد صالح سلو : إنّه شجاع لا يقاتل إلاّ واقفاً ، وأيّد الحقيقة الّتي ذكرناها ، وأيّدها أيضاً الأُستاذ هاني المبارك ، فقد سمعها ممن عايش الثّورة السُّوريّة الكبرى .

وكان حسن الخراط يقود المجاهدين مساء ١٨ تشرين الأول عام ١٩٢٥ م ، فدخل معهم أحياء دمشق الجنوبيّة ، وهاجموا مخافر الجيش الفرنسي ، ثمّ تقدّموا نحو وسط المدينة ، واقتربوا من (قصر العظم) ، حيث كان الجنرال (ساراي) مع أركان حربه وحاصروه ، ففرّ الجنرال (ساراي) إلى بيروت ، وأخذت القلعة الّتي كان يرابط فيها الفرنسيّون ، تطلق نيرانها بغزارة ، =

ومما يذكر أنَّ فرنسة أثناء الثورة شجعت من تطوع بجيشها من غير المسلمين ليعتدوا على الأحياء الإسلامية ، وفي الميدان بخاصة . ناهيك عن التنكيل بأسرى الثوار ، وعدم معاملتهم كأسرى حرب ، بحجة أنهم عصابات خارجة عن القانون .

أنذرهم الثوار كثيراً ، فقام بعض من نفذ صبره من الأهلين بمضايقة غير المسلمين في أحيائهم ، فقام الشيخ بدر الدين بحمايتهم ، وأمر حسن الخراط بزيارة أحيائهم ، ليثبت للعالم أجمع ، أن أهل الذِّمَّة في حماية إمام المسلمين .

وقبل إيراد الوثائق الَّتي تثبت ذلك نتذكر أيضاً موقف الشيخ المجاهد عبد القادر الجزائري ، في حادثة دمشق ١٨٦٠ م من قبل .

فإن شرارة الفتنة قد انطلقت في دمشق في (١٢٧٦/١٢/٢١ هـ - ١٨٦٠/٧/١٠ م) وامتدت إلى صفوف اصطفت للقتال ، ذهب ضحيتها خلقٌ كثير . وكان للأمير عبد القادر في هذه الحادثة المؤلمة ، مواقف شريفة تدعو إلى الإعجاب ، إذ استطاع أن ينقذ أكثر من خمسة عشر ألفاً من النَّصارى ، بعث بهم إلى منازله الَّتي غصت بهم[(٥٤)] .

حتَّى إنه أخذ مفاتيح قلعة دمشق ، ووضع بها كافة نصارى البلد ، يقدم لهم الطعام والشراب على حسابه الخاص ، لمدة خمسة عشر يوماً ، كانت كلُّها أعمالاً

= وأشعل الفرنسيون النِّيران في الأحياء الملاصقة لها ، فتعذَّر على الثُّوار الاقتراب من أبوابها .
وفي ١٧ تشرين الثَّاني ١٩٢٥ م ، خاض البطل المجاهد حسن الخراط معركة (الزُّور الثَّانية) ، فارتد الفرنسيون ، ولكنه أُصيب في كتفه ، ثمَّ جرت معركة أُخرى قرب قرية (يلدا) في ٢١ من كانون الأوَّل ، ثمَّ استشهد البطل وهو يدخل حيَّ الشَّاغور ، لكن بقي خبر استشهاده سرّاً مدَّة ، لكي لا يفت ذلك في عزيمة الثوار المجاهدين .
رحم الله حسن الخراط ، لقد عاش بطلاً كرَّس وقته وحياته لوطنه ، ومات بطلاً مقداماً ، فلم ينسه وطنه .

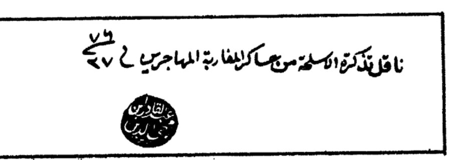
(٥٤) بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري ، يحي بوعزيز ، ص : ٨٤ وما بعدها .

إيجابية لفائدة وقف الفتنة ، وإطفاء نارها ، فاستطاع الأمير بذلك أن يحول (عشرة آلاف) جندي فرنسي إلى وجهة فرنسة بعد أن كانوا يستعدون لنسف بيروت بقنابلهم المدمرة ، ويفرق جميع المراكب الَّتي كانت ترابط هناك ، منتظرة تطور الأحداث .

وكان لموقف الأمير الإسلامي الإنساني في هذه الفتنة ، صدى في الأوساط العالميَّة ، فأتته رسائل شكر ، مصحوبة بالأوسمة ، وشارات الفخر والتقدير ، من جميع ملوك ورؤساء الدول العالميَّة . ونوهت به كبريات الصحف العالمية ، وأشادت بخصاله الكريمة ، ومواقفه الإنسانية .

والوثيقة المنشورة هنا بصورتها وحجمها الطبيعي ، هي رخصة حمل سلاح للمسلمين ، أصدرها الأمير نفسه لمن وقف معه ، من أهل الرَّأي لوقف الفتنة ، عندما لم يحرك الوالي العثماني ساكناً بشأن إخماد الفتنة ، لأنه يجهل ما كان يجري في الأحياء بين الفئات الدِّينيَّة .

وكانت هذه (الرُّخْصَة) بمثابة وثيقة تبرز عند سؤال السلطات العثمانية لحامل السِّلاح عن رخصته ، وما تجرأ أحد على رفضها مطلقاً .


ناقل تذكرة الاسلحة من عساكر المغاربة المهاجرين ح ٧٦ ٢٧

عبد القادر محيي الدين

وبعد .. لنشهد الآن موقف سماحة الشيخ بدر الدين من الفتنة عام ١٩٢٦ م .

أولاً : قال مراسل (فرانكفورت غازت)[٥٥] : « إن الأحياء المسيحيَّة الَّتي تخلى عنها الفرنسيون في دمشق ، قد سلمت من النَّهب بفضل زعماء المسلمين ، ويجب على فرنسة أن تسلم الآن بأن سوريَّة اليوم ، هي غير سورية المعروفة بتعدد منازعاتها الدِّينيَّة ، وأنَّ الوطنية السُّوريَّة حلت محل الطَّائفيَّة ، وقامت تطالب بحقها المهضوم » .

وهذا ردّ على إظهار الثَّورة بمظهر (التعصب الديني) ، عندما سحبت قواتها من (باب توما) ، و (الباب الشرقي)[٥٦] ، حيث يقطن المسيحيون من غير قوة مدافعة ، لعل الثوار يهاجمونها ، لتملأ الدنيا بأخبار تعدي المسلمين على النَّصارى . علماً بأن الجهاد شيء والتَّعصب شيء آخر ، أبعد ما يكون عنه المسلم المتمسك بدينه .

لذلك زار المجاهد حسن الخراط محلاَّت المسيحيين ، وهدَّأ روعهم قائلاً لهم : « إنَّكم إخواننا »[٥٧] .

وقد شهد التقرير القنصلي المشترك ، الَّذي وضعه القناصل في دمشق ، مثل هذه الشهادة ، وقرَّع الفرنسيين على ضربهم البلد من غير إنذار ، وذكر كيف قام المسلمون بحماية إخوانهم في الوطن[٥٨] .

---

(٥٥) الثورة السُّوريَّة الوطنيَّة ، مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، ص : ٥٧

(٥٦) باب توما ، والباب الشَّرقي من أبواب دمشق في الجهة الشَّرقية للمدينة ، والأبواب الأخرى : باب كيسان ، والباب الصَّغير ، وباب الجابية ، وباب الفراديس .

(٥٧) الثورة السُّوريَّة الوطنيَّة ، ص : ٥٧

(٥٨) ذكر ساطع الحصري في كتابه (يوم ميسلون) ، ص : ٣٠٥ ، وثيقة نشرتها جريدة العاصمة الصَّادرة بتاريخ ٢ آب ١٩٢٠ م ، رفعها الرُّؤساء الرُّوحيُّون إلى رئيس الوزراء علاء الدين الدُّروبي ، هذا نصُّها :
« يا حضرة الوزير الأعظم : إعلاناً للحقيقة ، واعترافاً بالفضل لذويه ، نرفع عن المسيحيين والموسويين المستقرِّين في دمشق وضواحيها على تعدُّد مللنا وطبقاتنا القوميَّة ، تشكراتنا القلبيَّة =

لقد حمى الشيخ بدر الدين أثناء الثورة السورية الكبرى نصارى سورية ، ولم يتعرض ثائر أو أي مسلم لأحيائهم أو لأشخاصهم ، حتَّى إنَّ الأحياء المسيحيَّة الواقعة بين أحياء إسلامية ، والَّتي تركتها فرنسة منسحبة منها ، لم تتعرض لأذى مطلقاً .

لذلك نشرت صحيفة (فتى العرب) العدد ١٥٤٣ السنة التاسعة ، الخميس ١٥ شعبان ١٣٤٥ هـ / ١٧ شباط ١٩٢٧ م ، رسالة البابا الَّتي حملها المنسنيور إبراهيم مسابكي ، لإبلاغ سماحة الشيخ بدر الدين تحيات البابا القلبية ، وشكره الجزيل على حماية المسيحيين ، وعدم التَّعرض إليهم بأذى خلال الثورة .

وقال المطران بشارة الشمالي ، مطران دمشق في كتابه (الأخوة الشهداء الثلاثة) ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٢٦ ، ص ٥٥ ، ما يلي :

« ويلذ لنا أن نردد بالشكر والثناء والإعجاب ذكر السَّادة والأعيان وأصحاب الفضل والمروءة من المسلمين ، الَّذين دافعوا عن المسيحيين ، ذاكرين دائماً ما جاء في الحديث النبوي : « لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا » ، وأنَّ المسيحيين هم في ذمة المسلمين ، أي في عهدهم كما يردد علينا ذلك ، ذاك الشيخ الجليل ،

= موجَّهة إلى العلماء والأعيان والوجهاء والعامَّة ، وإقامة جنود وطنيَّة للمحافظة على الأمن والسَّكينة ، ومنع الاضطرابات المقلقة ، مما يسطر لهم الذِّكر الجميل في صحف التَّاريخ ، ويوجب لهم لدى معاليكم يا دولة الوزير ، أن يفوزوا بتكرمة وتقدير ، وليحفظ الله مجد دولتكم العليَّة ، والدَّولة المنتدبة » .

التَّواقيع : بطريرك الرُّوم الكاثوليك : تقلاوس ، متروبوليت بُصْرى وحوران : ميخائيل بحاش ، مطران السُّريان بدمشق مرخص أرمن بدمشق : استودس كيسهان ، النَّائب الأُسقفي الماروني بدمشق : الخوري إبراهيم مساكي ، فارس الخوري ، ناصيف أبو زيد ، أسعد أبو شعر ، قسطاكي الحمصي ، إبراهيم طويل ، ميخائيل وإلياس صحناوي ، ميشيل أواديس ، شفيق قدسي ، أنطوان أبو حمد ، خليل عنحوري ، أسبر خوري ، موسى سعد شاميَّة .

صاحب الفضيلة والعلم الصحيح ، الَّذي خبر بصادق فراسته ظواهر الدهر وبواطنه ، الشيخ بدر الدين الحسني في أوقات حرجة مرَّت علينا ، وعلى هذه البلاد أثناء الحرب الكونية »[٥٩] .

وعند نشوب الفتنة الأخيرة الَّتي دمرت البلاد ، وسفكت دماء العباد ، وأقلقت الرَّاحة ، كانت تهيب بهذا الشيخ الوقور عواطف الشرف والمروءة ، وشعائر الحمية والغيرة ، فيهب كالليث المدافع عن عرينه ، ويطوف بنفسه على كنائس المسيحيين ، ومقامات الرئاسات الدينية منهم ، مشجِّعاً إيَّاهم بكلامه العذب متلطفاً إليهم ، باذلاً لهم الوعود الجميلة ، والتَّسليات العذبة ، كما توحي إليه نفسه الكبيرة » وعقب المطران بشارة الشمالي مطران دمشق بقوله : « هذا أداء واجب ، فبذلت هذا التصريح إقراراً بالفضل » .

أمَّا غبطة بطريرك الأرمن في بيروت ، فقد أرسل إلى سماحة الشيخ بدر الدين الحسني المحدث الأكبر ، رسالة هذا نصها حرفياً[٦٠] :

« لجانب العلامة الجليل ، صاحب السعادة الشيخ بدر الدين الحسني حفظه الله آمين .

أخي العزيز

نزف إليكم تمنياتنا الأخوية ، داعين إلى الله تعالى ، أن يديم أيَّامكم الثَّمينة ذاكرين على الدوام طيبة قلبكم الكبير ، وعواطفكم الإنسانية الخالصة الَّتي أظهرتموها في أجلى مظهر نحو أبناء ديننا الأرمن ، إذ حميتموهم ، ومنعتم عنهم عاديات السوء أثناء حوادث تشرين الأول الدَّامية .

---

(٥٩) الحرب العالميَّة الأولى : ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م .

(٦٠) صحيفة (سوريَّة الجديدة) ، العدد ١٤٤٠ ، السَّنة الثَّامنة ، كانت تصدر بدمشق ، لصاحبها ورئيس تحريرها حبيب كحالة .

وقد شكرنا لسيادتكم يومئذ بصورة شخصية ، هذه المأثرة البيضاء ، ولا نزال إلى الأبد معترفين بهذا الجميل .

كذلك فإنّ الأرمن ينظرون إلى سيادتكم نظرهم إلى والد كريم ، ويحزنهم اليوم ، وتشجي قلوبهم ، أن يتسرب إلى نفوس إخوانهم المسلمين فيما يتعلق بموقف الأرمن من هذه الأزمة الشّديدة الّتي تجتازها البلاد ، فهذا سوء تفاهم يدعو إلى الأسف الشّديد ، لما يترتب عليه من النتائج الوخيمة .

فيا أخي العزيز ، إنّا نؤكد لسيادتكم أنه ليس للأرمن في هذه البلاد مطمع سياسي ، ولا يرمون إلى غاية ما ، وهم لا يبطنون مقدار ذرة من العداوة لإخوانهم المسلمين ، بل يريدون أن يعيشوا وإياهم بسلام وطمأنينة ووفاق تام ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وهم يشعرون بأنّ جميل أبناء هذه البلاد عليهم ، من مسلمين ونصارى ، مزدوج مضاعف ، فهم الذين آووهم أثناء الحرب العالمية ، حينما نفوا وأخرجوا من بلادهم ، وهم الذين استقبلوهم على الرحب والسعة مرة ثانية بعد هجرتهم من كيلكية ، ثم عدُّوهم مواطنين لهم ، إنّ الأرمن ليسوا من نكران الجميل ، بحيث ينسون العطف الذي لقوه من جانب العرب المسلمين .

ومن جهة أخرى ، فإنّا نحن الرؤساء الروحانيين ، وجميع الّذين يتبعوننا لانفتأ نحض الأرمن على الإخلاد للسّكينة والطاعة لقوانين البلاد ، وحفظ العلائق حسنة مع إخوانهم المسلمين ، وكنا نحثهم دائماً وأبداً على الوقوف موقف عطف ورفق تجاه أماني هؤلاء الوطنيين ، مع الامتناع عن اتخاذ موقف المشاركة الفعلية ، أو العداء لأي كان .

فإذا كان ثمة نفر من الأرمن تطوَّعوا[٦١] ، فإن هذا لم يكن بموافقة منا ، بل إنّهم بدافع الفقر والحاجة تطوعوا في الجندية دون استشارتنا ، وإذا كان بين

(٦١) لمحاربة الثّوار إلى جانب الجيش الفرنسي .

هـؤلاء المتطـوعين أفراداً أسـاؤوا السِّيرة ، وأقـدمـوا على النَّهب والسَّلب وارتكاب بعض التجاوزات الشَّائنة ، كما ينسب إليهم في بعض الأنديـة ، فنحن أشـد النـاس بأن نراهم يعاقبون بما يستحقون ، وإننا على فرض حدوث هذه الحوادث المؤسفة ، نستنكرهـا أعظم استنكار ، ولا ريب في أن سيـادتكم على اتفـاق معنـا ، بـأنـه لا يصح ولا يعقل عن رؤساء الروحانيين ولا جمهور الطَّائفة الأرمنيَّة ، من رجال ونساء وأطفال مسؤولين عنها ، إذ ليس من العـدل (أن يـذهب الطـائع ضحيـة العاصي) كما ورد في الأمثال .

وكنا نود لو نزور سيادتكم بدمشق شخصيـاً ، لنعرض على مسـامعكم الكريمـة زيادة بيـان ، وتـأكيـد عن موقف الشعب الأرمني ، ولكني في الثمانين ، وحـالتنـا الصحية لا تسمح لنا باحتمال متاعب السفر .

لذلك جئنا بهذه الرسالة ، نتوسل إلى سيادتكم ، أن تتكرموا أيضـاً على أبنـاء ملتنا بالحماية والرعـايـة ، وأن تبـذلوا الجهـد لتهـدئـة خواطر إخواننـا المسلمين ، وإرجاع الصَّداقة والثِّقة المتبـادلـة بين المسلمين والمسيحيين ، فتضيفوا هـذه المـأثرة الغراء إلى مآثركم الكثيرة .

ونحن في منصبنا كرئيس ديني وروحي للملة الأرمنيَّة ، لا نطمع لغير السلام والوئـام بين جميع العنـاصر ، داعين الله تعـالى أن يعيـد السلام إلى هـذه البـلاد ، ويفيض بركته عليها ، ويطيل أيامكم الثمينة بمنَّته وبركته » .

إسحاق الثَّاني
البطريرك الأعلى للطائفة الأرمنيَّة
في بيروت

لقـد سقت مواقفـه من الثورة ، وسقت مواقف الثوار منـه ، وسقت مـوقفـه المشرف من الفتنـة التي أشعلهـا المستعمر ، لنثبت ، تفـاعل سماحتـه رحمـه الله مع

الأحداث ، وأنه المرجع الأوَّل والأخير للثوار ولحل ما يعترضهم من مشكلات ، عسكريَّة أو اجتماعيَّة .

لذلك ... لا غرابة أن نسمع عند وفاته قدس الله سره[٦٢] غبطة بطريرك الروم الكاثوليك يؤبنه في أربعينه قائلاً بالحرف الواحد[٦٣] : « أترى لغيري من أمراء الكلام أن يعطروا هذا المنبر بذكر ما ازدان به الفقيد العظيم من المناقب العالية ، والأخلاق السَّامية والفضائل الجمة ، والعلوم الجامعة ، لكي أنظر إلى ناحية من نواحي حياته ، بعيدة عن الأُفق ، فسيحة الدَّائرة ، فأجول في ميدانها جولة ، عساني أوفق إلى الإحاطة بشيء من سعة مراميها ، تلك هي الناحية الاجتماعية ، وأثرها العميق في حياة مدينتنا الدِّمشقيَّة ، بل بلادنا السُّوريَّة الجمعاء .

---

(٦٢) توفي رحمه الله نهار الجمعة : ٢٧ ربيع الأوَّل ١٣٥٤ هـ ، الموافق ٢٨ حزيران ١٩٣٥ م ، ورأيتُ شخصيّاً ورقة التَّقويم العربي الهاشمي ، الصَّادر في دمشق ، السَّنة السَّابعة عشر ، الَّتي تحمل هذا التَّاريخ المذكور ، فكانت كرامة للشَّيخ ، إذ كُتِبَ على ظهرها قصيدة بعنوان : (البكاء على الدِّين) ، نُظِمت منذ ٦٨٣ سنة ، للشَّاعر عبد الغفَّار القوصي ، والتَّقويم مطبوع منذ أكثر من سبعة أشهر من وفاة الشَّيخ كما يلاحظ من تاريخ الوفاة ، وجاء في القصيدة :

فُؤادٌ لا يَقرُّ لَهُ قَرارُ ... وَأجفانٌ مدامِعُها غِزارُ
وَلَيْلٌ طالَ بالأفكارِ حتَّى ... ظننتُ اللَّيلَ ليسَ لَهُ نَهارُ
وَلِمْ لا والتُّقى حُلَّت عُراهُ ... وبانَ على بَنيهِ الانكسارُ
لِيَبْكِ معي على الدِّين البَواكي ... فَقَدْ أضحى وَمَوْطِنُهُ القِفارُ

رحم الله الشيخ ، فموته موت للدِّين ، قال ﷺ : « إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء » ، رواه الإمام أحمد في مسنده ، والشيخان ، والتِّرمذي ، وابن ماجه عن ابن عمر .

(٦٣) جريدة (الجزيرة) العدد ٣٢٦ ، الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ / ١٦ آب سنة ١٩٣٥ م ، عدد خاص ١٢ صفحة ، عن حفلة تأبين الفقيد الأكبر الشَّيخ محمد بدر الدِّين الحسني ، والمقال الَّذي ننقله هنا على الصَّفحة الأولى والتَّاسعة ، تحت عنوان : (خطاب غبطة بطريرك الرُّوم الكاثوليك : لقد كان للبلاد ذخراً ، وسوف يبقى نوراً وفخراً ، لقد عطف على المسيحيين ، فأحبوه واحترموه ، وعظَّم العالَم المتمدِّن شأنه) .

لقد خُلِقَ الإنسان اجتماعياً ، فلا حياة له إلاَّ مع الجماعة ، ولا سعادة ولا هناء ، ولا مجد ولا سؤدد ، ولا كرامة ولا فخار ، إلاّ بالجماعة ومع الجماعة .



الشيخ بدر الدين الحسني

« هذه الصورة ، آخر صورة أخذت لسماحته ، لقد التقطت خلسة قبل وفاته رحمه الله بسبعة أيام فقط » .

وتلك الجماعة تميل بفطرتها إلى رجل كبير فذ عبقري ، يجمع شملها ويسير خطاها في مسالك الحياة ومجاهل الدنيا .

ولقد أوجد الله في الكثير من العصور ، وفي كل أُمَّة من الأُمم رجالاً أعلاماً يهتدي الناس بهم ، ويلتفون حولهم ، ويسيرون بجاذبية سحرهم ، وينقادون إلى مشيئتهم فيقولون قولهم ، ويرون في الحياة رأيهم :

نَرَى النَّاسَ إن سِرْنا يسيرونَ خَلْفَنَا وإن نَحْنُ أوْمأنا إلى النَّاسِ وَقَفُوا

فإن كان الرجل منهم نوراً وضّاءً ، سار الناس بضياء أنواره في سبيل الهداية

والطريق القويم . هذا قس بن ساعدة(٦٤) ، وهذا علي بن أبي طالب(٦٥) . وهؤلاء الأئمة الأربعة(٦٦) أبو حنيفة النعمان ورفاقه الثلاثة الأعلام العظام ، وهذا الأستاذ محمد عبده(٦٧) ، وغيرهم وغيرهم كثير ، وكلهم إمام ، سارت الملايين في ركابهم مئات من السنين .

ولقد نعمت دمشق والبلاد السورية ، مدة تنوف عن سبعين سنة بتلك الزعامة الاجتماعية ، بنبوغ فقيد الأوطان العربية المحدث الأكبر المغفور له ، الشيخ بدر الدين الحسني .

فإنه رحمه الله كان علماً من الأعلام الكبرى الخفاقة ، ترجع الجماعة إليه ، وتستكن إلى ظل طياته .

فلقد جمع العلم والتُّقى والوجاهة والكرامة والشيخوخة الوقورة ، والمثل الأعلى من الصلاح ، فكانت له من المواهب سحراً جلب إليه الجماهير ، فباتت ترنو إلى لحظة من لحظاته ، وإشارة من أنامله ، فتسير بدافع ذلك السحر كتلة واحدة في طريق الخير والصلاح والفلاح .

---

(٦٤) قُس بن ساعدة [ت نحو ٢٣ ق.هـ ـ نحو ٦٠٠ م] : أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم في الجاهليّة ، وهو معدود في المعمَّرين ، طالت حياته ، وأدركه النَّبيُّ ﷺ قبل النُّبوَّة ، ورآه في عكاظ ، وسئل عنه بعد ذلك فقال ﷺ : يحشر أُمَّةً وحده .

(٦٥) علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ، ولد قبل البعثة بعشر سنين ، الخليفة الرَّاشدي الرَّابع : [٣٥ ـ ٤٠ هـ] .

(٦٦) الأئمة الأربعة :

١ ـ أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت : [٨٠ ـ ١٥٠ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م] .

٢ ـ إمام دار الهجرة مالك بن أنس : [٩٣ ـ ١٧٩ هـ = ٧١٢ ـ ٧٩٥ م] .

٣ ـ محمد بن إدريس الشَّافعي : [١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م] .

٤ ـ أحمد بن محمد بن حنبل : [١٦٤ ـ ٢٤١ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م] .

(٦٧) محمَّد عبده ، مرَّت ترجمته في بحث مصر .

ولقد لمس بيده ، ورأى بأم عينه ، ما كان تأثير زعامته الاجتماعية على مئات الألوف . وعرف أنَّ كلمة منه تذهب بهم يميناً وكلمة تسيرهم شمالاً . ولما كان باراً تقياً رجل السلام والصلاح ، فقد بات حياته كلّها يستعمل تلك القوة الأدبية الكبرى في سبيل الخير والانتصار للضعيف ، وكبح جماح الغاصب القوي[٦٨] .

كانت بلادنا العزيزة قد بقيت زمناً طويلاً مرتعاً للأحزاب ، وميداناً للتَّباغض والتَّنافر ، فعمل حتَّى آخر دقيقة من سني شيخوخته الكريمة على لَمِّ شملها ، وتقارب أبنائها ، ونشر السلام في سهولها ، وعلى رباها . فانقادت له الجماعة وخيمت على رأس كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم ، وأميرهم وسوقتهم ، أعلام المحبة والثقة المتبادلة ، مع احترام الأديان واعتبار الإنسان لأخيه الإنسان .

فكم مرت على البلاد محن وبلايا ، وكم ساقت الأقدار لها من الرزايا ، وكم مهدت ظروف الحال ، وأطماع بعض الرِّجال للجموع المتحمسة ، من صنوف الإيقاع لبعض المدن البائسة ، فكان يقف دائماً حصناً منيعاً في وجه النافخ في النَّار ، ويصرف الجماعة عن المطامع والانتقام إلى الوفاق والتَّسامح والسَّلام .

وإن ما نراه اليوم بيننا من التَّآلف والتَّحالف ، وما انطوى دهره من الخصام رغم تباين العقائد ، وتنازع المشارب ، لهو ببعضه أو بكثره ثمرة جهود هذا الشَّيخ الإمام ، ونتيجة ما زرعه من المحبة والسلام بين الألوف من الأنام .

وهذه الحفلة التأبينيَّة الَّتي جمعت جنباً إلى جنب المسلم والمسيحي ، وسمعت على هذا المنبر الإمام الفاضل ، والكاهن العابد ، ليست إلاَّ تحقيقاً لتعليمه ، وأثراً لسحر سلطانه على الجموع .

وإذا كانت الأوطان لا تقوم إلاَّ على عمد الاتحاد والتضحية ، والمحبة والسلام

---

(٦٨) يعني بها المستعمر الفرنسي .

بين الأفراد ، فإليه يرجع الكثير من الفضل في تكوين هذا الوطن السوري العربي المفدى .

أنا لاأنكر على مواطني الدّمشقيّين ، خصوصاً من الإخوان الإسلام دماثة أخلاقهم ، ولين عريكتهم ، وطيب قلوبهم ، وما ينبعث من حركاتهم وسكناتهم من حسن المعشر وكرم الجوار ، لكن بغض أيّام العواصف لابدَّ أن خلقت أحياناً جواً مكهرباً ، فكان الفقيد العظيم ، يعمل بحكمته ودرايته ونفوذه ورجاله ، على تبديد السُّحب وصيانة الأعراض ، والأرواح ، والأموال .

لقد سارت الجموع في حياته ، تتبعه بقوة كلمته .

وسارت عشرات الألوف يوم وفاته ، تتبعه بجاذبية وكرامة رفاته .

وسارت أُلوف الأُلوف ، تتبعه بسحر ذكره أو تعليمه وإرشاده .

فلقد كان للبلاد ذخراً ، وسوف يبقى نوراً وفكراً وفخراً .

فيجمل بنا أن نقتفي أثره ، وننبذ التَّباعد ، ونكون حزمة واحدة ، ونعرف أنَّ لنا وطناً واحداً ، ولغة واحدة ، وأماني واحدة ، وكرامة ، بل سماء واحدة وإلهاً واحداً ، هو خالق الكُلّ ، وسيد الكُلّ ، ونعيم الكُلّ .

لتنعم نفسك الكبيرة أيُّها الشَّيخ في جنات الخلود ، وليؤتنا الله أن نكون حسب تعاليمك : أبناء المحبة وإخوة السَّلام على الدوام » .

كما أبَّن الفقيدَ في أربعينه ، الشيخ محمد الغنيمي التفتازاني ، وكلمة مصر ألقاها الأُستاذ الأكبر الشَّيخ محمد بخيت المطيعي ، والشيخ طاهر الأتاسي ، والأستاذ عزّ الّدين التّنوخي ، ومن رجال السِّياسة رئيس الوزراء آنذاك عطا

الأيوبي ، والسيد عبد القادر المغربي رئيس المجمع العربي ، والدكتور رضا سعيد عميد الجامعة ... وحضر حفلة التأبين رئيس الجمهورية[٦٩] .

☆ ☆ ☆

وبعد ... فماذا بعد هذه الوثائق والأحداث الَّتي وقعت ، ودوَّنها التَّاريخ ؟ ماذا بعدها من أدلة وبراهين يمكن أن تثبت دور هذا العَلَم من أعلام الإسلام ، في تهيئة النفوس وإلهابها ، وذلك بما زرعه في النفوس من حقيقة الإسلام ، وروعة الإيمان . فكانت تلك الثَّورة العربيَّة التَّحريريَّة التي لم تكن لتتفجر لولا الإسلام الذي جعله هذا العلامة يعمر القلوب .

☆ ☆ ☆

وهكذا ... فإن الأجيال العربية المؤمنة ، والمخلصة لهذه الأُمَّة ، سوف تبقى ذاكرة بكلِّ فخر واعتزاز هؤلاء المجاهدين الذين رفعوا اسم بلادهم عالياً في فم الزمن ، حين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله ، وعزة هذا الوطن .

رحم الله أرواح شهداء ميسلون ، وجعلها في عليين ، ونخص أرواح السادة العلماء :

الشيخ عبد القادر كيوان ، والشيخ كال الخطيب ، والشيخ محمد توفيق الدَّرَّا ، الشيخ ياسين كيوان ... وغيرهم ممن ذكرنا في طيات هذا البحث .

وقدّس الله سرّ العلامة المحدِّث الأكبر الشِّيخ بدر الدين الحسني ، وتلامذته الأبرار . وألهمنا سبحانه وتعالى أن ننصف تاريخ أُمتنا ورجالاته .

(٦٩) لمعرفة الكلمات ، والوفود الَّتي أمَّت دمشق في ذكرى الأربعين ، صحيفة (الجزيرة) ، العدد الخاص عن الفقيد ، العدد ٣٢٦ ، الجمعة ١٧ جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ / ١٦ آب ١٩٣٥ م .

المغـــرب

« إن المغرب العربي بـالإسلام كان ، وللإسـلام عـاش ، وعلى الإسـلام سيسير في حيـاتـه المستقبليَّة » .

الأمير محمد عبد الكريم الخطـابي ، في بيـان (جبهـة تحرير المغرب العربي) .

لمـا أفـل نجم الـدَّولـة العثـمانيَّـة ، انطلقت القـوات الأُوربيَّـة من عقـالهـا في مغـامرات استعمـاريـة . وكان أكبر الخطر على المغرب هو احتـلال فرنسـة للجـزائر عـام ١٨٣٠ م . فـإن المغرب اضطر لأجل إيقـاف مطـامع الأعـداء ، إلى محـاربـة فرنسة ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ م ، وإسبانيـة ١٨٦٠ م على التَّوالي . وحـدَّ من هـذا تـدخل إنجلترة الدبلوماسي استبقاء لمكانتها البحريَّة . وحتَّى لا يُهدَّد جبل طارق ، الَّـذي كانت تسيطر عليه منذ سنـة ١٧٠٤ م ، اقتراب نفوذ دولـة أُخرى . ولكن ذلـك لم يمنع فرنسة من ربح معركة تونس عام ١٨٨١ م ، وبذلـك قبضت على المقـاطعتين العثمانيتين : تونس والجزائر .

وفي سنـة ١٩٠٢ م ، اتفقت إيطـاليـة وفرنسـة ، على أن تُطْلَق يـد الأُولى في طرابلس الغرب ، مقابل حرية العمل في المغرب للثانية .

---

(١) مراجع هذا البحث الكتب التَّالية بشكل رئيس :
- محَّد عبد الكريم الخطَّابي ، د . جلال يحيى ، سلسلة أعلام العرب ، العدد : ٧٨
- المغرب ، سلسلة شعوب العالم ، العدد : ١٤
- الأمير محَّد عبد الكريم الخطَّابي بطل الشَّمال الإفريقي ، نشر المكتبة العلميَّة ومطبعتها .
- عبد الكريم أمير الرِّيف ، لروبرت فورنو ، نشر دار دمشق .
- المغرب العربي ، د . صلاح عقاد ، طبعة عام ١٩٦٢ م .

وفي ٨ نيسان (إبريل) ١٩٠٤ م ، تمّ الاتفاق بين فرنسة وإنجلترة والتزمت فيه فرنسة بعدم عرقلة عمل إنجلترة في مصر ، على أن تعترف إنجلترة بحق فرنسة المطلق في المغرب .

وفي ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٠٤ م ، تمّ بين فرنسة وإسبانية الموافقة على اتفاق ٨ نيسان (إبريل) سنة ١٩٠٤ م نظير أن يكون لإسبانية نفوذ في بعض مناطق المغرب ، على أن تستبقي (طنجة)[٢] وضعها الخاص شبه الدّولي .

ولكن الدبلوماسيّة الألمانية أحبطت هذه الاتفاقات . ففي ٣١ آذار (مارس) سنة ١٩٠٥ م نزل غليوم الثاني[٣] إمبراطور ألمانية بطنجة ، وخطب في وفد استقباله فقال : « إنّ زيارتي هذه هي لسلطان المغرب الملك المستقل ، وأتمنى أن يظل المغرب تحت سيادته العليا مفتوحاً لمزاحمة سلميّة بين جميع الدُّول » .

وكان صدى هذه الزيارة : مؤتمر الجزيرة الخضراء ٧ نيسان (إبريل) سنة ١٩٠٦ م ، الّذي اعترفت فيه الدُّول بسيادة مَرّاكُش واستقلاله ، ووحدة مملكته ، وهكذا أخذت القضية المغربية الصّبغة الدّوليّة .

ولكن هذا لم يستمر ، إلاّ ريثما اتفقت مصالح ألمانية وفرنسة على تقسيم الغنائم الاستعمارية ، فأطلقت ألمانية يد فرنسة في المغرب ، نظير ترك الكونغو الإفريقي لألمانية - معاهدة (أغادير)[٤] تموز (يوليو) سنة ١٩١١ م - وتلا ذلك اتفاق فرنسي إسباني في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١١ م ، على تجديد الاتفاقية المنعقدة في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٠٨ م .

---

(٢) طنجة Tanger : مدينة مغربيّة على مضيق جبل طارق ، وهي مركز تجاري وسياحي .

(٣) غليوم الثّاني (ڤيلهلم : Wilhalm) : [١٨٥٩ - ١٩٤١ م] ، إمبراطور ألمانية منذ ١٨٨٨ م وحتّى ١٩١٨ م ، حيث تنازل عن العرش بعد خسران ألمانية للحرب العالميّة الأولى .

(٤) أغادير Agadir : مدينة ومرفأ في المغرب على الأطلسي .

وفي ٣٠ آذار (مارس) سنة ١٩١٢ م ، وقَّع السُّلطان (عبد الحفيظ) على المعاهدة المشؤومة التي أعلنت فيها الحماية على البلاد .

ولما استنفد المستعمر أغراضه من السلطان عبد الحفيظ ، أجبره على التخلي عن الحكم ، ومغادرة البلاد في ١٢ آب (أغسطس) سنة ١٩١٢ م ، أي في السنة نفسها الَّتي وقَّع فيها معاهدة الحماية »[٥] .

يقول ا . د . موريل في هذا الصدد : « إن حكماً سرياً بالإعدام قد لفظ ضد مَرَّاكُش . وكان على فرنسة أن تلعب دور الجلاد ، وعلى إسبانية أن تلعب دور المساعد صاحب المصلحة ، وعلى بريطانية أن تلعب دور الشاهد المعني »[٦] .

تركت فرنسة المنطقة الشَّمالية للإسبان ، وهي المنطقة التي تعرف باسم « الرِّيف »[٧] ، ترى كيف كانت سياستهم في هذه المنطقة ؟!

لقد محا الإسبانيون معالم مدن الرِّيف (كُمَلَيْلَة وسَبْتَة) الإسلامية : « **فحوّلت مساجدها إلى كنائس** »[٨] . واتخذت إسبانية من هاتين المدينتين نقطة ارتكاز للانقضاض على المغرب .

ولم تكن الحرب هي السلاح الوحيد الَّذي مارسه الإسبان لاحتلال أجزاء المغرب ، فقد اتبعت إسبانية منذ قرون سياسة الاستعمار الفكري والروحي

---

(٥) الأمير عبد الكريم الخطابي بطل الشَّمال الإفريقي ، لمحمد عبد المنعم إبراهيم المحامي ، ومحمد عبد الوارث الصُّوفي ، ص : ٢٦ و ٢٧

(٦) عبد الكريم أمير الرِّيف ، لروبرت فورنو ، ص : ٧

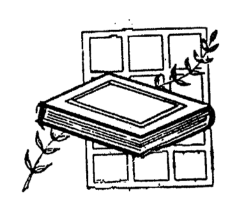
(٧) الرِّيف : شبه قوس يمتد من نهر (ملويَّة) إلى حدود منطقة (طنجة) ، وتعني (ريف) حافَّة أو جرفاً ، أو أرضاً مزروعة خصبة ، ولكنها تعني في مَرَّاكُش جغرافياً : السَّاحل البحري الشَّمالي ، الدِّفاع الخارجي عن البلاد ، (المرجع السَّابق ، ص ٨) .

(٨) المغرب ، ص : ١٠٧

والسيطرة الاقتصادية ، وتحطيم اقتصاد البلاد ، بالإضافة إلى إثارة الفتن بين القبائل .

لقد دفعها التّعصب الديني الّذي اشتهر عنها ، إلى إرسال جماعة من الفرنسيسكان والرُّهبان إلى البلاد ، لإنشاء مراكز ثقافية في الظاهر ، ولكنها في حقيقة الأمر مراكز تبشير وتجسس . ولما انكشف أمر هؤلاء الرُّهبان ، وظهر للمغاربة أنَّهم يقومون بالتَّبشير ، وكأن المغاربة لا دين لهم ، عمد الإسبان إلى تغيير الخطة ، ومتابعة إرسالهم كقناصل وسفراء ، ثم انقلب هؤلاء الرُّهبان إلى طابور خامس ، عندما نشبت الحرب الإسبانية المغربية سنة ١٨٥٩ م . واستطاع الإسبان في مختلف الأوقات الحصول على امتيازات مختلفة ، حطمت اقتصاد البلاد ومعنويات الشعب .

وهكذا ... إذا كانت السلطة الفعلية في المغرب الأقصى قد عجزت عن مواجهة مؤامرات الاستعمار العسكرية ، والاقتصادية ، والتبشيرية ، فإنَّ ذلك لم يمنع من ظهور قيادات جديدة في الميدان ، عملت وجاهدت من أجل الاحتفاظ باستقلال البلاد ، وكان الإسلام مفجرها ومحركها .



محمّد عبد الكريم الخطّابي

على شاطئ البحر المتوسط ، بين (تطوان) و (مُلَيْلَة) ، تقع قرية أجدير ، في هذه القرية ولد محمد بن عبد الكريم الخطابي في ١٥ شعبان ١٣٠١ هـ/١٨٨١ م ، كان والده السيد عبد الكريم الخطابي رجل علم ودين وتقوى ، والعدل في الفصل بين الناس ، وكان مضرب الأمثال في الجود والشجاعة ، انعقدت له زعامة قبيلة (بني ورياغل) الكبيرة .

نشّأ هذا الرجل التقي أولاده على حبّ الحرية ، والتّمسك بأهداب الدّين . وبعد أن حفظ ابنه محمد القرآن الكريم وتلقى مبادئ الدين واللُّغة العربية ، وجهه والده إلى (فاس) حيث جامعة القَرَويِّين ، وهي أقدم جامعة في العالم ، ولما تخرج منها ، عيّن مدرساً (بمليلة) ، فعرف بخصال حميدة ، منها الذكاء وحبّ العلم والاستقامة ، والتّبحر في الأدب « واستمر فترة طويلة يحرر جريدة تلغراف ديل ريف وكثيراً ما دبَّج فيها المقالات العامرة بآيات الوطنية والإيمان »(٩) .

فلما نبه شأنه ، وظهر فضله ، عيّن قاضياً للقضاة بمليلة ، فكان نعم القاضي العادل ، والفيصل الحق ، وله أحكام تشهد له بطول الباع ، وسمو النفس ، ورجاحة العقل »(١٠) .

ثم كان ما كان من أمر سجنه بتهمة (عدم الميل للفرنسيين) . وحقيقة سجنه تكمن بما يلي : أرسل والده للإسبان مهدّداً بأنّه إذا لم تعدل إسبانية عن سياستها الحمقاء ، والكفّ عن إيذاء الأهالي في المنطقة الّتي يحتلونها ، فإنه سيحاربهم ،

---

(٩) الأمير عبد الكريم الخطّابي ، ص : ١٩

(١٠) المرجع السّابق .

وهنا أسرعت إسبانية إلى القبض على محمد بن عبد الكريم الخطابي ، والسبب الثاني : « احتجاج فرنسة على الإسبانيين بتوجيه التهمة لمحمد عبد الكريم ، وهو قاضي القضاة في (مليلة) ، بأن ميوله ضد الحلفاء ، تتفق مع سياسة الحياة الإسبانية الَّتي كانت تلتزمها يومئذٍ ، مع أنه تولى القضاء باسم خليفة (تطوان) ، أي خليفة سلطان مَرَّاكُش حسب معاهدة الحماية المعروفة بالمعاهدة الثلاثية « فرنسة وإسبانية ومَرَّاكُش »[١١]

تألف مجلس حربي برياسة الجنرال (اي اسبورو) الإسباني ، قائد القوات المحتلة في منطقة الريف ، وفي أثناء المعركة سئل محمد عبد الكريم الخطابي :

ـ هل حقيقة ميولك ضد الحلفاء ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟ ماسبب ذلك ؟

ـ لأن الدَّولة العثمانية دخلت الحرب باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية ، وهي تقف بجانب ألمانية واستورية (النمسة) ، وأنا مسلم مراكشي ، والخليفة نادى بالجهاد ضدّ الحلفاء لتحرير بلادنا الَّتي تحتلها فرنسة وإسبانية .

ـ وأنت ماهي علاقتك بالخلافة ؟

ـ إنها خلافة المسلمين كلِّهم في مشارق الأرض ومغاربها ، ولذلك فأنا معهم لنحارب الحلفاء .

فضحك الجنرال (اي اسبورو) ثم قال :

ـ ياعبد الكريم أنا أعلم أنك رجل نبيل ، ومن أسرة نبيلة معروفة ، ولكن

---

(١١) المرجع السَّابق ، ص ٣٢ و ٣٣ ، ولكنها بالكتاب على لسان الأمير الخطَّابي .

ألا تعلم أن دولة إسبانية ملتزمة بالحياد ، وأنت قاضي القضاة في منطقة الحماية ؟!

ـ هذا لا يمنعني من القيام بواجبي الوطني ، وإنّي أرى الكثير من ضباطكم يتعاملون مع الألمان الموجودين هنا . لتغذية الحرب ضدّ فرنسة بجانب تركية . « ثم إذا كانت الوظيفة تمنعني من القيام بالواجب الوطني ، فأنا مستقيل من هذه الوظيفة منذ الآن لأتفرّغ للقيام بالواجب المحتم علي »[١٢] .

ـ الاستقالة لاتقبل اليوم ، ولا تقبل فرنسة ، التي تحتج علينا كل يوم هذا التصرف لأجلك .

وعلى الرغم من أن نتيجة القضية البراءة ، اعتقل محمد عبد الكريم بعد ثلاثة أيام وسجن في (مليلة) ، وحاول الهرب ، لكن رجله اليسرىٰ كسرت ، فأعيد إلى السجن .

في هذه الأيّام قام العالم الجليل ، والمسلم التّقي المجاهد عبد الكريم الخطابي والد الأمير محمد بحركة ضدّ إسبانية ، وقال لهم : لا تعتقدوا أن اعتقال ولدي وسجنه يمنعني من العمل ضدّكم ، فهو وأنا وجميع أفراد العائلة مستعدون دائماً لمواجهة الظالمين بما يستحقونه .

طلب الإسبان من محمد وهو في سجنه أن يكفّ والده عن الثورة ، وهدّدوه بالنّفي إلى سجن (ملقة)[١٣] . فقال لهم : إني لاأستطيع أن آمر والدي بشيء ، بل هو الذي يأمرني ، وأنا مطيع له في كل شيء .

وبعد أشهر وقد فات على الإسبان ماأرادوا أخلي سبيل محمد بن عبد الكريم ، فعاد إلى أجادير .

---

(١٢) بطل الشّمال الإفريقي ، ص : ٣٤



محمد عبد الكريم الخطابي :
« إن المغرب العربي بـالإسـلام كان ، ولـلإسـلام عـاش ، وعلى الإسـلام سيسير في حياته المستقبلية » .

كان إنـذار الـزعيم العـالم ، رئيس قبيلـة (بني وريـاغـل) ـ والـد الأمير ـ لـلإسبـان سنـة ١٩٢٠ م ، فكتـل المستعمر قـواه الحربيـة لغـزو أراضي قبيلـة (بني ورياغل) نفسها .

دارت معـارك عـديـدة ، بين الإسبـان وأهـل الريف بقيـادة الـزعيم العـالم الملتزم ، والد الأمير . وبعد وفاة الوالـد ، تولى الابن مركز الزعـامـة في القبيلـة ، وكان شاباً في مقتبل العمر ، متبحراً في علوم الدُّنيا والـدِّين ، فتـابع الحروب الَّتي شنَّها والده ، وأخذ أُهبتـه لملاقـاة الإسبـان الَّـذين يحتلون شرق الريف وغربـه ، وكان الفرنسيون يحتلون جنوب الريف .

تقـدم جيش الريف بقيـادة الجنرال (سلفستري) ، واحتـل حصن بلـدة (أنوال) ، ولكن الثوار استعادوه ، وأفنوا حاميتـه ، وغنموا كل مـا بـه من ذخيرة ومـؤن . فـأرغى الجنرال (سلفستري) وأقسم ليبيـدنَّ جيش الحفـاة والعصـاة .

« ولقد صدق الجنرال (سلفستري) في قسمه عن الإبادة ! ولكن بفارق واحد ، وهو أن أبيد هو والجيش الكبير المكون من ٢٥,٠٠٠ جندي على يد قلة لا تتجاوز الألف[١٣] .. » . استمرت المعركة من ١٦ حزيران (يونيو) إلى ٢١ حزيران سنة ١٩٢١ م .

« تعتبر معركة أنوال من أكبر المعارك الّتي خاضها الوطنيون ضدّ قوات الاستعمار ، وتعتبر فتحاً في عالم الحروب والمعارك ، وإن أردنا تلخيصها على طريقة حسابية لقلنا إن ألفاً أزيد من خمسة وعشرين ألفاً ، أو ألفاً أكبر من خمسة وعشرين ألفاً ، وتصبح المسألة مشكلة حسابيّة رياضيَّة ، ولكن النسبة كفيلة بحل كل هذه المشكلات »[١٤] . إن (أنوال) هزّت العالم أجمع ، وبخاصة إسبانية وفرنسة .

اهتزت إسبانية للهزائم المتكررة المنكرة ، وللخسائر الفادحة في الأرواح والذخائر ، وكانت قد قامت دكتاتورية (بريمودي ريفييرا) العسكرية في إسبانية ، فترك الدكتاتور إسبانية وهرع إلى الرّيف ليشرف على المعركة . ولم ينفع الإشراف على المعركة ، وصارت الطائرات الإسبانية تتساقط في ميدان القتال . وتمّ استيلاء الثوار على حصن (وادلاو) ثم حصن (الشاوون) .

وفقد الإسبان أعصابهم وعقولهم فاستعملوا الغازات السّامة المحرقة .. وهي نقطة سوداء في تاريخهم ، تضاف إلى تاريخهم الأسود في الاستعمار .

اتصل (بريمودي ريفييرا) بفرنسة ، وأثمرت الجهود واتفقت القوتان ، وكانت فرنسة تمثل أكبر جيش في العالم ، وكانت إسبانية لديها من القوات ما يعد ثالث جيش في أوربة وقتئذ ، وفي أول ربيع ١٩٢٥ م ، بدأ الفرنسيون هجومهم

---

(١٣) المرجع السّابق ، ص : ٤٤

(١٤) المرجع السّابق ، ص : ٤٦

تحت ستار صدّ هجوم مفتعل ، ليخففوا عن الإسبان ، وهم في ذروة القتال مع المجاهدين .

هزم الوطنيون المجاهدون الجيش الفرنسي في (مزيان) وغيرها ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى (فاس) العاصمة . فهرع رئيس وزراء فرنسة إلى ميدان القتال ، وعزل الجنرال (ليوتي) الفرنسي الكبير ، وعين المارشال (بيتان) كبير العسكريين الفرنسيين ، فأسرع في آب (أغسطس) ١٩٢٥ م وشن هجوماً انتزع به (البرانس) ، بينما كانت إسبانية في سبيلها إلى النزول في (اجدير) . وفي ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٥ م نزل الإسبان في (اجدير) بعد مقاومة شديدة ، وكانت رابع جبهة تفتح ، وصارت جبهة القتال ممتدة مسافة ثلاثة مئة كيلومتر ، مسخرة لها جميع قوى فرنسة وإسبانية .

وفي أيار (مايو) ١٩٢٦ م ابتدأت الجيوش الإسبانية والفرنسية الموحدة تحت قيادة (بيتان) تزحف من الشرق والغرب ومن الجنوب والشمال[١٥] . وقد عرض الصلح على محمَّد عبد الكريم أكثر من مرة ، ولكنه رفضه ، وهو يعلم أنه في آخر أيامه ، يحارب حرباً خاسرة . ولكنه أبى أن يمضي معاهدة تنقص من حقوق بلاده ، وفضل لنفسه الأسر والهزيمة بشرف ، على أن يحيد قيد أُنملة أو أن يعطي المستعمر صكاً أو شبه صك يفيد الاستعمار ، أو يوهن من عزيمة أهل البلاد .

هُزِمَ محمد عبد الكريم أمام زحف الدَّوْلَتَين ، بعد معارك كثيرة ، انتصر فيها الإيمان على تكتيل الجيوش ، ولكن صيحته في التحرير لم تذهب هباء ، وحركته

---

(١٥) بلغ جند الفرنسيين والإسبان ربع مليون جندي مع طائرات وغازات وبوارج ، حتّى الأُسطول البريطاني حاصر شواطئ الرِّيف ، علماً أن الأمير لم يجمع أكثر من خمسة آلاف مجاهد فقط ، ولما طلب من وزير خارجيَّة فرنسة وضع حدٍّ للمجزرة الدَّائرة في مَرَّاكُش ، قال : « إنَّها معركة بين الهلال والصَّليب » ، انظر مأساة مَرَّاكُش ، روم رولاند ، ص : ٣١٠

لم تمت ، فالشُّعلة الَّتي أضاءها ماخمدت ، وصيحته لم ينقطع دويها ، وها هو ذا المغرب وشقيقتاه تونس والجزائر تجنيان ثمار الثورة :

١ ـ استقلال الأرض ، وطرد المستعمر .

٢ ـ وعودة إلى حظيرة الضَّاد والإسلام ، وسقوط الفَرْنَسَة والدَّمج والصَّليبيَّة !!

وفي ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٦ م ، نقلت باخرة البطل المسلم ، مع أهله وشقيقه الذي جاهد معه في كل معاركه ، وعمه عبد السلام (أمين بيت المال) ، إلى جزيرة (رينيون) في شرق المحيط الهندي ، فبقي هناك بطل الإسلام في رياضة روحية عشر سنوات ، اعتكف لصقل نفسه وتصفيتها ، خصوصاً والأمير مسلم صوفي نشأ على محبة الله ورسوله وحبّ الصالحين ، ولم يكن ليجاهد هذا الجهاد ، ويسطر صفحات خالدة في التَّاريخ ، لو لم يكن كبير الإيمان ، كبير القلب ، عظيم الهمة ، عبقري الصفات ، جاعلاً مثله الأعلى دائماً أبداً الرَّسول الكريم محمد صلوات الله عليه ، محرر الدنيا ومخرجها من الظلمات إلى النور[١٦] .

وبعد عشر سنوات سمح للمنفيين بالتنقل في أنحاء الجزيرة ، يصحبهم حرس شديد . وفي عام ١٩٤٧ م أعلنت فرنسة للعالم إطلاق سراح بطل الرِّيف وأهله ، شريطة السَّكن في فرنسة في أحد القصور الَّتي أعدَّتها فرنسة ، إلى أن تقضي فرنسة في شأنهم بعد ذلك بما تراه .

وفي ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٧ م تمكن البطل من النزول في بورسعيد ، وعاش في مصر حتَّى وفاته في ٧ شباط ١٩٦٢ م[١٧] حيث دفن في مقبرة الشهداء .

---

(١٦) الأمير عبد الكريم الخطَّابي ، ص : ٩٣

(١٧) مقالة محمد العربي الخطَّابي ، في (العربي) العدد ٧٥ ، شباط ١٩٦٥ م .

هذا هو دور الإسلام في المغرب ، هذا وقوفه في وجه المستعمر ، وكل ما سبق غني عن التَّعليق والتَّأويل . لقد تمثل الإسلام الحق بالبطل المسلم : محمد عبد الكريم الخطابي .

وفي القاهرة لم يستطع الأمير أن يعتزل الجهاد ، في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ م تشكلت (لجنة تحرير المغرب) برئاسته ، وأصدرت ميثاقاً وطنياً ، جاء فيه :

١ ـ إن المغرب العربي بالإسلام كان وللإسلام عاش ، وعلى الإسلام سيسير في حياته المستقبلة .

٢ ـ المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة[١٨] .

قال المستر (كورتي) عضو مجلس العموم البريطاني : « إن عبد الكريم رجل حرب وجلاد ، وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد إليه حتَّى صار الناس في الهند وبغداد والقاهرة يرون فيه رجلاً يصح أن يكون أميراً للمؤمنين ، وحاملاً لسيف الإسلام ، فإذا أصبح والحالة هذه في مركز يدعو فيه إلى الجهاد في إفريقية الشمالية وبلاد العرب والأناضول ، فإنَّ فرنسة وإنجلترة وإيطالية تتعرض لأخطار جسيمة ، ولا يبعد أن تمس هذه الأخطار دولاً أخرى غير هذه أيضاً »[١٩] .

قال المارشال (ليوتي) مندوب فرنسة السَّامي في مَرَّاكُش : « أرى أن خطر الحرب الحاضرة في الرِّيف يتجاوز إفريقية الشمالية فإن العالم الإسلامي يرقب الحرب بين ابن عبد الكريم وإسبانية باهتمام عظيم »[٢٠] .

---

(١٨) المغرب العربي ، د . صلاح العقَّاد ، ص : ٤٧٨

(١٩) الأمير عبد الكريم الخطَّابي ، بطل الشَّمال الإفريقي ، ص : ١٠١ ـ ١٠٥

(٢٠) و (٢١) و (٢٢) المرجع السَّابق .

وقال المركيز (دي سيجو نزاك) : « لا ريب أن ابن عبد الكريم يطرنا الآن وابلاً من الاحتجاجات السّلمية ، بعد أن سوى المسألة الإسبانية ، ولكن من ذا يشك في أنّه سيرتد علينا ؟ إنَّ العالم الإسلامي بأسره يستحلفه ويحثه على ذلك ، وتعتبره الهند ومصر وتونس وغيرها محرر إفريقية الشمالية وقاهر الظلم والاستبداد »[٢١] .

وقال مراسل (الماتان) العسكري : « الواقع أن حرب الرّيف لم تكن غير حدث دموي ، راح يهدد في بعض الأحايين العالم كله بثورة إسلامية عامة »[٢٢] .

« وصف الكابتن (غوردون كاننج) ـ أحد الضباط الأجانب الّذين رافقوا الثائر المغربي مدة من الزمن ـ كيف كان يعيش عبد الكريم ويحارب سنة ١٩٢٦ م فقال : إنَّ قائد المغاربة ربع القامة[٢٣] ، حاد النظرات ، مفتول العضلات ، قوي البنية ، حلو الحديث ، متواضع إلى أبعد حدود التواضع ، يعيش عيشة الزّاهد والمتقشف ، لا يقابل النّاس إلاّ نادراً ، وهو يترك لعمه وأخيه مهمة التّحدث باسمه إلى كل من يرغب في مقابلته ، شجاع إلى حدّ الجنون ، وكثيراً ما يضطر رجاله إلى إرغامه بالقوة على عدم الوثوب إلى الأمام في طليعتهم خوفاً على حياته ، له على أولئك الرجال سلطان ونفوذ لا يتصورهما عقل ، تقي ورع ، لا تفوته صلاة ، يرتدي الثّوب المغربي الوطني المصنوع من الصوف »[٢٤] .

إنَّ دور الإسلام في حياة ثورة المغرب ، دور لا يحتاج إلى تحليلات (علمية) لنصل إلى هدفنا ، فالمغرب بالإسلام حارب ، وبه عاش ، وهذا كلُّه واضح غاية الوضوح ، صريح غاية الصراحة ، فهل أدّى الإسلام ما عليه في المغرب ، عندما استُعْمِرَ أمْ لا ؟ اللّهم نعم ... والدّلائل أكثر من أن تحصر !!

(٢٣) ربع القامة : أي مربوع الْخَلْق ، لا بالطّويل ولا بالقصير ، [اللّسان : ربع] .

(٢٤) مجلة (المسلم) عدد ذي الحجة ١٣٧٥ هـ / ٩ تموز (يوليو) ١٩٥٦ م ، العدد ٥ ، السّنة ٦ ، ص ١٦ وما بعدها .

فلسطين

أمّتي ! كَمْ غصـــةٍ داميـــةٍ	خَنَقَتْ نَجْوى عُلاكِ في فَمي
أيُّ جرحٍ في إبـــائي راعفٍ	فـــاتَـــهُ الآسي ، فلم يَلْتَئِمِ
ألإسرائيـــل تعلـــو رايـــة ؟	في حِمى المهدِ وظلِّ الْحَرَمِ ؟ !
رُبَّ (وامعتصماه) انطلَقَتْ	مـلءَ أفـواهِ البنـاتِ اليُتَّمِ
لامَسَتْ أسْماعَهُم لكنَّهـــا	لم تـلامِسْ نَخْـوةَ المعتصمِ !
لا يُلامُ الـذّئبُ في عـدوانِـهِ	إن يَـكُ الرّاعي عـدوَّ الغَنَمِ

عمر أبو ريشة

الاحتلال :

نكثت بريطانية وعودها للعرب أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأصدرت وعد (بلفـور)[1] الـذي يقضي بـإنشـاء وطن قـومي لليهـود في فلسطين ، وقـد اعتبره الصهيونيون ميثاقاً يمنحهم فلسطين ، لتـأسيس وطن قومي لهم فيهـا . وكان هـذا الوعد أساساً لقضية فلسطين الَّتي لاتزال قائمة حتَّى اليوم .

وعنـدمـا دخلت جيوش الثَّورة العربيـة الكبرى عـام ١٩١٦ م إلى سوريَّـة ، جعل قائد الحملة البريطـانيـة (اللنبي Allenby)[2] المنطقـة السـاحليـة غرب نهر الأُردن (أي فلسطين) تحت الإدارة البريطـانيـة ، بموجب صـك الانتـداب ، مع التزامها بتنفيذ وعد بلفور .

ومما يذكر عن (اللنبي) أنه لما دخل القـدس تحركت فيـه صليبيَّـة أُوربَّـة ،

---

(١) آرثر جيمس بلفـور Balfour : [١٨٤٨ ـ ١٩٣٠ م] ، رئيس الـوزراء البريطـاني ١٩٠٢ م ، ثمَّ وزير الخارجيَّة ١٩١٧ م .

(٢) اللَّنبي ، مرَّت ترجمته في مقدّمة هذا الكتاب .

فقال بعد أن توقف فيها تاركاً متابعة الزَّحف نحو الشمال : « الآن انتهت الحروب الصليبية »[٣] .

أخذت بريطانية تطبق سياستها بفلسطين . فاستبدلت بالإدارة العسكريَّة ، إدارة مدنيَّة على رأسها (هربرت صموئيل) اليهودي الإنجليزي مندوباً سامياً لها في فلسطين . ففتح باب الهجرة لليهود ، وشجع على انتقال الأراضي من أيدي أصحابها العرب إلى اليهود ، ومنح القروض والمساعدات والحماية لليهود .

المقَـاوَمَة :

أدرك العرب في فلسطين مستقبلهم المحفوف بالمخاطر ، منذ أُذيع وعد (بلفور) ، وبخاصة بعد أن فصلت بلادهم عن سوريَّة ، وفتحت أبواب الهجرة لليهود . فحملوا راية الجهاد منذ نيسان ١٩٢٠ م ، فبدأت على شكل مظاهرات دامية ، استمرت حتَّى اشتعلت الثَّورة عام ١٩٢١ م في يافا وامتدت إلى القدس ، مما جعل بريطانية توقف الهجرة اليهودية مؤقتاً .

وفي ١٥ آب (أغسطس) عام ١٩٢٩ م ، تقدمت حشود يهوديَّة نحو حائط المبكى بجوار المسجد الأقصى ، لمحاولة احتلال الحائط . كانوا ينشدون نشيدهم المعروف « هاتِكْفا ، أي (الأمل) بالعربية » ، وهتفوا أيضاً : الحائط حائطنا !!

فخرج المسلمون بعد صلاة الجمعة في الحرم الشريف (الجمعة ٢٣ آب ١٩٢٩ م) ، وأحرقوا منضدة الشَّماس اليهودي ، والاستراحات الَّتي يضعها اليهود

(٣) راجع (جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن) ، لصالح مسعود أبو يصير ، الطبعة الثَّالثة ، ص ٦٥ ، و (الطَّليعة) القاهريَّة ، مقالة : وليم سليمان ، عدد ديسمبر عام ١٩٦٦ م ، ص : ٨٤ وهنأ (لويد جورج) وزير الخارجية البريطاني الجنرال (اللّنبي) في البرلمان البريطاني لإحرازه النَّصر في آخر حملة من الحروب الصَّليبيَّة ، الَّتي سماها (لويد جورج) الحرب الصَّليبيَّة الثَّامنة !؟!

في ثقوب الحائط . وفي مدينة (الخليل) ، قاد الهجوم محمد جمجوم ، وعطا الزير ، وهاجم الشَّعب ثكنة (البوليس) في مدينة نابلس ، وحيفا والمستعمرات المجاورة لها ، وخاصة (كفرتا) ، ثم كانت معركة (صفد) الشهيرة الَّتي قادها : فؤاد حجازي ، وأحمد طافش ، ونايف غنيم .

قدر عدد إصابات اليهود في ثورة ١٩٢٩ م بنحو ألف إصابة بين قتيل وجريح ، واستشهد برصاص (البوليس) البريطاني نحو مئة عربي مجاهد ، وجرح عدد مماثل تقريباً .

قامت السلطات البريطانية بعد ذلك باعتقال الآلاف من الأحرار العرب ، وأعدمت ثلاثة من أبطال الجهاد المقدس ، نفذ فيهم حكم الإعدام شنقاً في عهد الانتداب ، وهم : محمد جمجوم (من الخليل) وعطا الزير من (الخليل) أيضاً ، وفؤاد حجازي من (صفد) .

ثورة الشيخ
عز الدين القسام

ولد الشَّيخ العالم محمد عز الدين بن عبد القادر القسام ، من أسرة كريمة في مدينة جبلة (في محافظة اللاذقية) وذلك في عام ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م[٤] ، ونشأ في بيئة عربية إسلامية ، وحصل على تعليمه العالي في الأزهر ، واشتغل في بلده بالتَّعليم والوعظ ، حتَّى انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ م ، واحتلال السَّاحل السُّوري بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م من قبل الفرنسيين فكان له احترام خاص في نفوس المجاهدين ، فاشترك بدور بارز في ثورة جبل (صهيون) ضدَّ الفرنسيين

(٤) الثَّورة العربيَّة الكبرى في فلسطين ، صبحي ياسين ، و : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ط ١٩٦٤ / ١٩٦٥ م ، والأعلام ١٤٩/٧ ، وأعلام الإسلام ص : ١٠٥ وما بعدها .

الغزاة لما عرف عنه من إيمان بالله عزّ وجلّ قوي متين ، وشخصية جذابة ، وحسن سيرة ومعاشرة ، ولباقة في الحديث ، وبراعة في الخطابة .

لقد كان يحيطه في ثورته في جبل صهيون تلاميذه ومريدوه ، وطارده الفرنسيون ، فقصد دمشق ، إبان الحكم الفيصلي ، ثم غادرها بعد استيلاء الفرنسيين عليها سنة ١٩٢٠ م فأقام في (حيفا) ، وتولى فيها إمامة جامع الاستقلال وخطابته ، ورياسة جمعية الشبان المسلمين .

هاجر الشيخ القسّام من سوريّة ، لحكم بالإعدام صدر عليه من قبل الاستعمار الفرنسي ، ورافقه في هجرته اثنان من المجاهدين هما : الشيخ محمد الحنفي ، والشيخ علي الحاج عبيد .

بدأ منذ عام ١٩٢٢ م يفكر بالثَّورة ، وابتدأ يخرج إلى القرى منذ ١٩٢٩ م ، واستعان على ذلك بالكتمان ، لذلك كان لا يبوح بالسر الكبير الَّذي يحمله ، وهو الدعوة للثَّورة المقدَّسة ، إلاَّ لأشخاص قلائل جداً بعد أن يدرس نفسيتهم دراسة كافية لمدة تطول عدة سنوات .

لقد تحدث عشرات من إخوانه ، أنَّه عندما كان يخطب على منبر جامع الاستقلال ، يراقب المصلين ، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد لزيارته في منزله[٥] ، وتتكرر الزيارات حتَّى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهددها من خطر ، ضمن مجموعات سرية صغيرة لا تزيد عن خمسة أنفار .

---

(٥) الثَّورة العربيَّة الكبرى في فلسطين ، ص : ٢١ و ٢٢ ، ومما يذكر أنَّ الشَّيخ القسَّام باع بيته الوحيد في حيفا ، واشترى بثمنه سلاحاً لمريديه المجاهدين ، والحافز لذلك دينه وإسلامه .
ومما يذكر أيضاً ، أن (جان بول سارتر) الصُّهيوني ، سار بمظاهرة لجمع التَّبرعات قبيل حرب عام ١٩٦٧ م لصالح (إسرائيل) ، وهو يحمل صناديق كُتِبَ عليها : (قاتلوا المسلمين) ، فجمع ألف مليون فرنك ، كما طبعت (إسرائيل) بطاقات معايدات كُتبت عليها : (هزيمة الهلال) .

استمر (القسَّام) يعمل بكل الوسائل الشَّريفة ، لتأسيس نواة صالحة من إخوانه عرب فلسطين ، لتنطلق في الوقت المناسب .

لقد قاوم القسام بشدة إنفاق أموال الأوقاف في تشييد الأبنية (الفنادق) ، وتزيين المساجد ، حتَّى ولا المسجد الأقصى المبارك ، لأنَّ إعداد الشَّعب وتسليحه للجهاد لخوض المعركة ، أفضل وأحق من الأُمور الشَّكلية الَّتي يمكن إنجازها في أوقات أكثر مناسبة . فئات الأُلوف من الجنيهات ، كان بالإمكان بها تسليح خمسة آلاف مقاتل مجاهد آنذاك !!

ويمكن القول إنَّ الشَّيخ القسام أعد في المرحلة الأولى النفوس للثورة ، معتمداً على قلبه الكبير ، وعلمه الغزير ، وإخلاصه العظيم بل معتمداً على ربه أولاً وآخراً .

وفي **المرحلة الثَّانية** الَّتي ابتدأت سنة ١٩٢٥ م أسس حلقات ، وقسم المجاهدين إلى وحدات عسكرية منظمة منها وحدة خاصة بشراء السِّلاح . ومن قادتها البارزين : الشيخ حسن الباير (من قرية برقين) ، والشيخ نمر السعدي من غابة (شفا عمرو) ، ووحدة للتدريب العسكري يشرف عليها ضابط ممن خدموا في الجيش التُّركي ، ومنها وحدة ثالثة للتجسُّس على اليهود والإنجليز لمعرفة خططهم السِّرِّيَّة ، ومن أفرادها : الشيخ ناجي أبو زيد .

وخصص العلماء للدعاية والثورة في المساجد والمجتمعات ، كان الشيخ كامل القصاب موجهاً ومستشاراً في هذه التنظيمات . ومن أفراد الاتصالات السياسية (الشيخ سالم المخزومي الذي اتصل بقنصل إيطالية في القدس أثناء حرب الجيش ، وبقنصل تركية بقصد شراء أسلحة حديثة)[٦] .

---

(٦) الثَّورة العربيَّة الكبرى في فلسطين ، ص ٢٣ ، وجدول أسماء أبرز العلماء المجاهدين ، في ص : ٢٤ و ٢٥

وفيما يلي أسماء البارزين من إخوان الشّيخ العالم عزّ الدين القسّام ، لنلاحظ دور العلماء الأفاضل في ثورة القسّام في فلسطين عام ١٩٣٥ م :

١ ـ الشيخ محمد الحنفي	جبلة ـ سورية .
٢ ـ الشيخ علي الحاج عبيد	جبلة ـ سورية .
٣ ـ الشيخ عطية أحمد عوض	من قرى حيفا .
٤ ـ الشيخ يوسف الزيباوي	قرية الزيب .
٥ ـ الشيخ محمد حنفي أحمد	القاهرة ـ مصر .
٦ ـ الشيخ حسن الباير	قرية برقي .
٧ ـ الشيخ فرحان السعدي	قرية المزار .
٨ ـ الشيخ الحاج صالح طه	قرية صفورية .
٩ ـ الشيخ نمر السعدي	غابة شفا عمرو .
١٠ ـ الشيخ أحمد التوتة	قرية صفورية .
١١ ـ الشيخ نايف المفلح	قرية صفورية .
١٢ ـ الشيخ أبو محمود الصفوري (محمد الغزلان)	قرية صفورية .
١٣ ـ الشيخ علي إبراهيم زعروزة	قرية صفورية .
١٤ ـ الشيخ محمود سالم المخزومي (أبو أحمد)	قرية زرعين .
١٥ ـ الشيخ ناجي أبو زيد	حيفا .
١٦ ـ الشيخ يوسف أبو درة	قرية السيلة الحارثيّة .
١٧ ـ الشيخ محمد الصالح (أبو خالد)	قرية سيلة الظهر .
١٨ ـ الشيخ عبد الفتاح أبو عبد الله	قرية سيلة الظهر .
١٩ ـ الشيخ عارف الحمدان	قضاء جنين .

٢٠ـ الشيخ محمد الحلحولي   قرية حلحول .

٢١ـ الشيخ محمد الخالدي وأخوه خالد   حيفا .

٢٢ـ الشيخ أحمد جابر   حيفا .

٢٣ـ الشيخ عبد الله يوسف   قرية عراية .

٢٤ـ الشيخ معروف حجازي   قرية يعبد .

٢٥ـ الشيخ توفيق الزيري   قرية عرابة .

٢٦ـ الشيخ محمود ديراوي   قرية دير أبو ظعيف .

٢٧ـ الشيخ نايف الزُّعبي   قرية سولم .

٢٨ـ الشيخ محمد أو جعب   قرية قباطية .

٢٩ـ الشيخ عبد القادر علي   قرية عرعرة .

٣٠ـ الشيخ خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير)   شفا عمرو .

٣١ـ الشيخ حسين حمادة   قرية إجزم .

٣٢ـ الشيخ عبد الله عقيلة   قرية عِبلِّين .

٣٣ـ الشيخ محمد العبد موسى   قرية كوكب أبو الهيجا .

٣٤ـ الشيخ رشيد عبيد الشيخ (أبو درويش)   قرية طيرة حيفا .

ومنهم أيضاً : السيد عربي بدوي (قضاء جنين) ، والسيد أبو علي مزرعاوي (قرية المزرعة ـ القدس) ، والشيخ عبد الله من (كفر دان) ، والشيخ سليمان (قرية سمسم قضاء غزة) ، والسيد محمود الخضري ، والشيخ داود خطاب .

ومما يذكر أن خلافاً بسبب توقيت الثورة ضدَّ الإنجليز واليهود ، حدث بين القسّام وبعض إخوانه ، لكنه ظلَّ خافياً على السُّلطات الحكومية أكثر من خمس سنوات ، وهذا دليل على الإيمان الراسخ في قلوب المجاهدين ، وعلى تقديرهم

للرسالة الَّتي يعملون لأجلها بإخلاص وإقدام ، خمس سنوات كاملة وعدد كبير من إخوان القسام غير راضين عن الانتظار ، ومع ذلك استمروا يعملون سِرّاً ضمن مخطط القسام الثوري بدون أي انحراف[٧] .

أما **المرحلة الثالثة للثورة** ، فقد كانت قتل اليهود أينما وجدوا ، ففي حادثة (نهلال) ذهب الشيخ أحمد التّوبة ، والمجاهد مصطفى علي الأحمد ، والحاج صالح أحمد طه .. إلى مستعمرة (نهلال) الواقعة بين حيفا والنَّاصرة قرب قرية الْمُجَيْدِل ، حيث قتلوا بعض اليهود وجرحوا آخرين . وكانت محاكمة جائرة حكم فيها على مصطفى علي الأحمد بالإعدام ونفذ الحكم ، وحكم بخمس عشرة سنة على أحمد الغلاييني الذي صنع السّلاح المستعمل في (نهلال) وكان قنبلة ذات حجم كبير .

وفي **المرحلة الرابعة** : غادر الشيخ القسام ليلة ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ م ومعه أكثر من خمسة وعشرين من إخوانه مدينة حيفا ، إلى قرى قضاء جنين لدعوة الشعب على نطاق واسع للاشتراك بالثورة ، وكانت أوَّل قرية دخلها (كفردان) ، ومنها أرسل الرُّسل إلى القرى تشرح أهداف الثورة ، والشَّعب يعرف القسام من على منبر جامع الاستقلال في حيفا ، ويعرف القسام من خلال زياراته إلى حفلات الأفراح في القرى ، ويعرف إخلاص القسام ، لذلك فقد استجابت له ولرسله أعداد كبيرة من الرجال المخلصين .

وكانت الرصاصة الأولى في ١٩٣٥/١١/١٤ م باشتباك قرب قرية (البارو) أسفر عن استشهاد البطل الشيخ محمد الحلموني ، واستمرت الدعوة العلنية للجهاد في القرى حتَّى ١٩٣٥/١١/١٩ م ، حيث جرت معركة في أحراج (يَعْبَد) ، قضاء جنين ، أسفرت عن استشهاد القسَّام .

---

(٧) المرجع السَّابق ، ص ٢٤

لقد طوّقت قوات إنجليزيّة عددها بين أربع مئة ، وست مئـة رجل ، الشيخ القسـام ومعـه أحـد عشر من إخـوانـه في قريـة (الشيـخ زيـد) ، داخـل أحراج (يَعْبَد) وهم : الشيخ محمد الحنفي أحمد ، الشيخ يوسف الزيبـاوي ، الشيخ حسن البايـر ، الشيخ أحمد جاير ، الشيخ أسعد كلش ، الشيخ نمر السعدي ، السيد عربي بـدوي ، توفيق الزيري ، الشيخ نـاجي أبو زيـد ، الشيخ محمـد يوسف ، والشيخ داود خطاب .

حاصر الإنجليز الشَّيخ ومن معه ، وكان قتـالاً فـدائيـاً ، لأن كل مجـاهـد كان يحارب نحواً من أربعين إنجليزيـاً بكامل أسلحتهم . ومع ذلـك استمرت المعركـة من الصَّباح حتَّى الظُّهر ... حيث استشهد الشيخ محمد حنفي أحمد ، والشيخ عبد الله الزيباوي ، ثم استشهـد القـائـد الشَّيخ عز الـدين القسَّـام وجرح قسم ، وأُسر قسم آخر .

وكانت ساعات تشييع الشَّيخ الشهيد القائد المسلم محمد عز الدين القسـام ، إلى مقرّه الأخير في قريـة (اليـاجور) الَّتي تبعـد عن حيفـا نحو عشر كيلومترات على الأكتاف ، ساعات مشهورة ، إنَّه لمشهد رائع لتقـدير الشعب للعـاملين المخلصين في سبيل الله والذود عن حياض الوطن وكرامته .

ولا يمكن أن ينسى امتزاج الـدم العربي في ثـورة القســام ، دم العربي المسلم السُّوري ودم العربي المسلم الفلسطيني مـع دم العربي المسلم المصري الشهيـد محمـد حنفي عطية الذي كان في مقدمة الشهداء بدافع من إسلامه وإيمانه .

ولم يفت استشهاد القائد في عضد إخوانه ، فقد زودهم في دروسه الدينيـة بما جعلهم يواصلون الكفاح مؤمنين حتَّى النهاية ، لقـد رفضوا الاستسلام ، وقـامت جماعاتهم في ١٥ نيسان (أبريل) ١٩٣٦ م بقيادة الشيخ المجاهد فرحان السعـدي ،

والسيد محمد ديراوي بعمليات جريئة ... أعقبها عموم الثورة في فلسطين ، وتشكيل لجنة عربية عليا برئاسة الحاج أمين الحسيني في ٢٥ نيسان ١٩٣٦ م .

فأعلنت حكومة الانتداب قانون الطوارئ ، وعمَّ الإضراب منذ ٢٠ نيسان ١٩٣٦ م لمدة ستة أشهر ، وأعطيت للمحاكم العسكرية صلاحيات كبيرة فتم إعدام ثلاث مئة شهيد ، منهم المجاهد الكبير الشيخ فرحان السعدي ، وكان عمره ثمانين سنة[٨] .

إنَّ بقاع فلسطين شهدت في هذه الفترة ، ثورة ضد الاحتلال على يد علمائها .. في حيفا وصفد وطبرية ، وبيسان ، والناصرة ، وعكا ، ونابلس ، وجنين ، والقدس وطولكرم ... فلو أردنا تسجيل أسماء الجميع لاحتجنا إلى صفحات عديدة . والفكرة الَّتي أخذناها عن دور الإسلام في هذه الثَّورة تكفي كل منصف موضوعي !

☆ ☆ ☆

من كلمات الشيخ القسام من فوق منبر جامع الاستقلال :

يا أهل حيفا .. يا مسلمون ، ألا تعرفون فؤاد حجازي ؟ ... ألم يكن فؤاد حجازي ، وعطا المصري ومحمد الجمجوم إخوانكم ؟ ألم يجلسوا معكم في دروس جامع الاستقلال ؟! إنهم الآن على أبواب المشانق ، حكم عليهم الإنجليز بالإعدام من أجل اليهود .

أيها المؤمنون : أين نخوتكم ؟ أين إيمانكم ؟ أين هي مروءتكم ؟

وكانت هذه الكلمات الصادرة من القلب ، وقوداً روحياً للمجاهدين

(٨) المرجع السَّابق ، ص ٣٥ و ٣٦ ، وأسماء بعض هؤلاء الشُّهداء ، ص : ٤٨ و ٤٩ الَّذين اشتركوا في الثَّورة حتَّى نهايتها .

فكبَّروا ، واهتزت جنبات المسجد طرباً لتكبيرهم ، لقد صاح مع الجميع : الله أكبر .. الله أكبر مستذكرين قول فؤاد حجازي في السجن :

يـــا ظَـــلامَ السِّجْنِ خَيِّم إنَّنــا نَهْـوَى الظَّـلامـا
لَيْسَ بَعْــدَ السِّجْنِ إلاَّ فَجْرُ بَـــدْرٍ يَتَســامى

وقال : « إنَّ الصَّليبيَّة الغربيَّة الإنجليزية ، والصُّهيونيَّة الفاجرة اليهوديَّة ، تريد ذبحكم ، كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكة ، تريدان إبادتكم أيها المسلمون ، حتَّى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل ، ويأخذوا القدس ، ويستولوا على المدينة المنورة ، ويحرقوا قبر الرسول ، إنهم يريدون اللَّعب بأُمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ، وتحويلهن إلى خدم لهم وسبايا !!

يا ويلكم ألا تفهمون ؟ رسول الله ﷺ يقول : إذا ديس شبرٌ من أرض المسلمين ، فعلى المرأة أن تخرج بغير إذن زوجها ، وعلى الرجل أن يخرج بغير إذن أبيه . أيها المسلمون ألا تفهمون ؟

أيها المؤمنون ، فرض الله علينا الجهاد ليحمينا به ... ليحمي أرضنا وعرضنا ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا قاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعلَموا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقينَ ﴾ ، [التوبة ١٢٣/٩] ، لقد ملأ اليهود بلادكم .. لقد سرقوا أرضكم » .

ولما حان الوقت المناسب ، صرخ القسام من فوق منبر الاستقلال بألوف المسلمين :

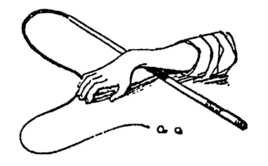
« باسم الله نُعْلِنُ الثَّورة ، سأخرج فوراً إلى الجهاد ، لن أعود إلى هذا الجامع إلاَّ بعد طرد الإنجليز واليهود » .



واستشهد القَسَّام وهو يقاتل بشجاعة واقفاً ، برصاصة بجبينه ، وانفجرت ثورة عمت فلسطين ، فجَّرها في كلِّ مدن فلسطين تلاميذه ، وكانت الثورات بقيادتهم ، ولكن أين السِّلاح الكافي لمقاومة الإنجليز واليهود ، فحكام العرب في حينها غافلون نائمون ، أيقظهم الأعداء ليُدْخِلوا جيوشهم إلى فلسطين ويخرجوا الثُّوار ، ثم يخرجوا لتبقى فلسطين لليهود !!؟

الاستعمار أينما كان ، يعلم ما للإسلام من أثر حاسم في إحباط مشاريعه ، ويعرف ما كان للإسلام في بناء الصمود الفلسطيني وإطلاق الثَّورات في وجه الانتداب الإنجليزي على فلسطين ، وفي وجه الصهيونية ، بل ما كان له من أثر في ولادة الحركة الفدائية نفسها !





العِـــراق

« أنـا لاأؤمن بـديمقراطيَّـة الإنجليز ، ولا بنـازيَّة الألمـان ، ولا ببلشفـة الرُّوس ، أنـا عربيٌّ مسلم ، لاأرضى دون ذلـك بـديلاً من مزاعم وفلسفات » .

صلاح الدين الصباغ

ثورة رَشِيدعَالي الكِيلاني

إنَّ أهم أسبـاب هـذه الثَّـورة ، وجـود مفتي فلسطين الحـاج أمين الحسيني في بغداد ، وحثه العقداء الأربعة على مناوأة بريطانية ، والتصـدي لمخططـاتهـا . ولم يكن الحاج أمين واثقاً من إمكانية التَّغلب على بريطانية فحسب ، بل كان يفضِّل العمل مع دول المحور[1] ، وفي نيسان (أبريل) ١٩٤١ م ، نشرت جريدة (الدِّيلي تلغراف) برقيـة لمراسلهـا في بيروت ، مستر (مرثـون) ، تـؤكـد نشـاط مفتي فلسطين في بغداد ، وتحريضه على بريطانية ، وأنَّه على اتصال بـدمشق ، وهنـاك تعليمات ومسـاعدات مادية بانتظام بين بغداد ودمشق وطهران ...

الكُتَّاب الغربيُّون من بريطانيين وأمريكيين ، تعمدوا تشويه هذه الثَّورة ، بطريقـة سـاذجـة تبعث على السُّخريـة ، فيزعم (سبيسر) أُستـاذ السَّاميـات في

(١) راجع للتَّوسُّع في هذا البحث ، الكتب التَّالية :
- حركة رشيد عالي الكيلاني ، إسماعيل أحمد ياغي ، دار الطَّليعة - بيروت .
- الوحدة العربيَّة ، محمد عزَّة دَرْوَزَة .
- صلاح الدِّين الصبَّاغ ، فرسان العروبة في العراق .
- مذكرات رشيد عالي الكيلاني ، نشرتها (آخر ساعة) ، عام ١٩٥٧ م .

جـامعـة بنسلفـانيـة ، أنَّ هـدف الحركـة هـو وضـع العراق تحت تصرف ألمـانيــة النـازيـة[٢] ، وتردد الكاتبـة (كلير هولنجورث) هـذا الزعم نفسـه ، فتقـول : إنّ غرض الكيلاني والعقداء الأربعـة من الحركـة الَّتي قـاموا بهـا هو : « تصفيـة وضع البريطانيين ، أو طردهم من البلاد وتسليمهـا إلى الألمـان الَّـذين كان النصر حليفهم في الحرب وقتئذ ، والذين كانوا يوجهون انتباهاً خاصاً نحو العراق »[٣] .

ورغم سذاجة هـذه المزاعم والأكاذيب ، فمما لا شـك فيـه ، أنَّ حركـة الكيلاني كانت حركة وطنيَّة تحريريَّة ، هدفها تحرير العراق من براثن الأسد البريطـاني ، لا ليقع تحت مخالب النَّسر الألماني ، بل ليمارس سيادته واستقلاله الوطني كاملاً غير منقوص .

إنَّ الحركة الكيلانيَّة كانت « تهدف إلى تحرير العراق ، وقيام وحـدة عراقيـة شاميَّة على الأقل »[٤] .

يقول صلاح الدين الصباغ ، أحد العقداء الأربعـة : « بـدأ اتصـالنـا برشيـد عالي الكيلاني بواسطـة المفتي الحـاج أمين ، وتطور ببـطء من التَّعـارف السَّطحي إلى الاطمئنان والثقة »[٥] . ويقول الكيلاني في مذكراته : « كانت صلتي بضبـاط الجيش قـد تـدعمت أثنـاء وزارتي ٢١ آذار (مـارس) ١٩٤٠ م ـ ٣٠ كانـون الثـاني (يناير) ١٩٤١ م . لقد أدركوا أن سياستي الحياديَّـة تتفق مع السِّيـاسـة الوطنيـة الَّتي يريدونها لبلادهم »[٦] .

---

(٢) حركة رشيد عالي الكيلاني ، ص : ١٢٢ ، عن :
Spaiser, E. A. : The United States and the Near East. P.95

(٣) المرجع السَّابق ، عن : Holling Worth, C. : The Arabs and the West, P.62

(٤) الوحدة العربيَّة ، ص : ٤٦٨

(٥) فرسان العروبة في العراق ، ص : ١٣٩

(٦) مذكَّرات رشيد عالي الكيلاني ، (آخر ساعة) : العدد ١١٦٧ ، تاريخ ١٩٥٧/٣/٦ م .

ولما اتضحت أبعاد خطة الإنجليز والوصي على العرش ، خلال عهد وزارة طه الهاشمي ، تشكلت (اللَّجنة العربيَّة) برئاسة الحاج أمين الحسيني رئيساً ، وثلاثة من الضباط : صلاح الدين الصباغ ، وفهمي سعيد ، ومحمود سلمان . وثلاثة من المدنيين : يونس السَّبعاوي ، وناجي شوكت ، ورشيد عالي الكيلاني . وهي اللَّجنة الَّتي تولت حركة الكيلاني في أوَّل نيسان (أبريل) ١٩٤١ م .

وأمَّا عن (إيديولوجية) الحركة ، فكانت (إيديولوجية) عربيَّة نابعة من إيمان القائمين بعروبتهم وبدينهم ، ورفضهم كل (الإيديولوجيات) والعقائد الاجتماعية والاقتصادية الأجنبية ، يقول الصباغ في مذكراته : « أنا لا أؤمن بديمقراطيَّة الإنجليز ، ولا بنازيَّة الألمان ، ولا ببلشفية الروس ، **أنا عربي مسلم ، لا أرضى دون ذلك بديلاً من مزاعم وفلسفات** »[٧] .

ويقول الدكتور أنيس صايغ : « من يراجع مذكرات صلاح الدين الصباغ ، بطل الفكرة العربية في ١٩٣٩ / ١٩٤١ م ، يندهش لأثر الحسِّ الطائفي في تفكيره ، أثراً جعله لا يفرق بين العروبة والإسلام »[٨] .

ويروي الكيلاني في مذكراته[٩] « أنه في اليوم الذي وقع فيه الاصطدام بين حامية (الْحَبَّانِيَّة)[١٠] البريطانيَّة ، وبين الجيش العراقي ، دعا زعماء القبائل والعشائر إلى اجتماع عقده في مكتبه برئاسة مجلس الوزراء ، وشرح لهم الموقف مبيناً أن حكومته تحاشت الحرب ، على حين أن الإنجليز هم الَّذين أرادوها . ثم يقول : ولن أنسى في حياتي واحداً من هذه القبائل ، إنَّه الشيخ عبد الواحد

---

(٧) حركة رشيد عالي الكيلاني ، ص : ١٣٤ ، عن فرسان العروبة ، ص : ١٨

(٨) الهاشميُّون والثَّورة العربيَّة الكبرى ، ص : ٣٠٨

(٩) (آخر ساعة) ، العددان : ١١٦٩ و ١١٧٠ ، تاريخ : ٢٠ و ١٩٥٧/٣/٢٧ م .

(١٠) الْحَبَّانِيَّة : موقع غربي بغداد ، أقرب المدن إليه (الرَّمادي) على نهر الفرات ، قاعدة عسكريَّة جوِّيَّة ، بالقرب من بحيرة الحبَّانيَّة .

سكر ، كان رجلاً عظيماً ، وكان وطنياً متطرفاً ، قال وهو يتوجه بالحديث إلى زملائه : إنَّ موقفنا من الحرب يشبه موقف أحدنا وكأنما اصطحب زوجته وهو يحمل بندقيته ، ذهب بها لتزور أهلها في قرية قريبة من قريته ، وفي الطريق خرج عليه عشرون من قطاع الطرق المسلحين بالبنادق الرشاشة . ماذا يفعل ؟ هل يستسلم ويترك عرضه لكون الذين هاجموه أكثر منه قوة وسلاحاً ؟ أمْ يقتل في سبيل الدفاع عن عرضه ؟ وقام الرجل من مكانه وأخذ يصيح : سنقاتل بالبندقية اليتيمة حتَّى الموت ، دفاعاً عن بلادنا ، ولن نستسلم لنرى بلادنا بأعيننا وهي تداس وتهدر كرامتها .

وأثار الرجل حماسة زملائي ، ولم يكن منّي إلاَّ أن قمت واحتضنته وقرر زعماء القبائل أن يهبُّوا جميعاً لنصرة الوطن ، واتفقوا على إعلان الجهاد المقدس ضدَّ الإنجليز وأذنابهم في العراق » .

ولم يقتصر التأييد للحركة على رؤساء القبائل والعشائر ... بل أصدر رجال الدِّين والعلماء فتاوى بإعلان الجهاد المقدَّس ضدَّ بريطانية ، وكانت لهذه الفتاوى أثرها في إذكاء شعلة الكفاح والجهاد .

وأصدر مفتي فلسطين ، الَّذي طلبت بريطانية من الكيلاني طرده من العراق مع الثوار جماعته ، مقابل الاعتراف بالعهد الجديد في العراق[١١] ، وتجهيز الجيش العراقي بالأسلحة والعتاد . أصدر إعلاناً للجهاد . لقد أثر مفتي فلسطين على مجرى الأحداث ، أثناء إقامته في بغداد ، فقد نهض فجأة لإثارة الرَّأي العام في العالم الإسلامي ضدَّ بريطانية ، ففي حديث إذاعي في ٩ أيار « مايو » ١٩٤١ م ، أعلن الجهاد ، ودعا كل مسلم قادر على الاشتراك في الحرب ضدَّ (أكبر عدو للإسلام) .

---

(١١) قدم طلب بريطانية هذا سفيرها (كورنواليس) ، مع طلبات أخرى ، منها إنشاء مطارات عسكريَّة .

لقد كانت حركة رشيد عالي الكيلاني حركة إسلامية ، لذلك لما فشلت ، لأسباب سترد ، قام اليهود يستعدون للاحتفال بعيد النبي يوشع «Shevuoth» من ١ ـ ٢ حزيران « يونيه » ، وفي أول يوم للاحتفال خرجوا للاحتفال بالعيد واستقبال الوصي[١٢] . فأخذ بعض شبابهم يستفزون أهل بغداد المسلمين ، ويظهرون شماتتهم بفشل الحركة الكيلانية ، بل لم يتورع بعض الشبان اليهود النزقين ، عن إسماع فلول الجيش العراقي المنسحب الكلمات الاستفزازيَّة النَّابية[١٣] !

وتعترف (مس بيل) في : (فصول من تاريخ العراق القريب) ، ص ٥٠ ـ ٥٢ ، بأنَّ (جمعية النَّهضة الإسلامية) كانت أوَّل من وقف في وجه الاحتلال البريطاني في العراق .

☆ ☆ ☆

أسباب فشل حركة الكيلاني :

تميز الإنجليز بالمبادرة والمبادأة في الحرب ، فهم الذين اختاروا توقيتها ، وجعلوا العراق أمام الأمر الواقع ، بإنزال قواتهم في البصرة وهم الَّذين بدأوا شنّ الهجوم على القوات العراقية المرابطة على التلال المحيطة بقاعدة (الْحَبَّانِيَّة) الْجَوِّيَّة ، في الوقت الذي لم تكن فيه قوات الثَّورة مستعدة للحرب ، ناهيك عن قوة الطَّيران الإنجليزيَّة في (الْحَبَّانِيَّة) .

---

(١٢) كان مصرع الملك غازي في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٣٩ م ، فنودي بابنه فيصل الثَّاني ملكاً ، وعبد الإله وصيّاً عليه .

(١٣) حركة رشيد عالي الكيلاني ، ص : ١٦٢ ، عن (الأسرار الخفيَّة) ، ص : ٢٥٥ و ٢٥٦

يقول العقيد توفيق القره غولي[١٤] ، عن السَّاعات الأُولى لبدء الاصطدام في ٢ أيار « مايو » ١٩٤١ م : « وفجأة استيقظ الجميع على أصوات أزيز الطَّائرات الَّذي ملأ الفضاء ، والقنابل تتهاطل على القوات والأهداف المعينة ، وكنا بين مكذِّب ومصدِّق ، فسارع من كان يرتدي (بيجامته) بخلعها ليرتدي ملابسه العسكريَّة ، وهرع الجنود إلى رشاشاتهم يوجهون نيرانها إلى الطَّائرات ، وعندئذ فقط عرفنا أنَّنا نقاتل الإنجليز على غير استعداد »[١٥] .

كما تأخرت المساعدات الألمانيَّة ، لأنَّ ألمانية كانت عاجزة عن حشد قوات احتياطيَّة كافية .

كان عدد الجيش العراقي (ثلاثين ألف جندي) ، ولكن دون تسليح ، لقد كان آنذاك لا يملك دبابة واحدة . وليس فيه مدافع مضادَّة للطيران ، وذخائره تكاد لاتكفي أُسبوعاً واحداً للقتال ، وهذه الإمكانيات لن تقف في وجه جيوش الإمبراطورية البريطانيَّة !!

كما شنت مدرسة عبد الإله[١٦] ـ نوري السعيد[١٧] ، حرباً نفسيَّة على الحركة ، فروَّجوا معلوماتٍ كاذبةً ، أضعفت الرُّوح المعنويَّة للجيش .

---

(١٤) أقوى العقداء الأربعة في الحركة : صلاح الدِّين الصَّبَّاغ ، فهمي سعيد ، كامل شبيب ، ومحمود سليمان .

(١٥) حركة رشيد عالي الكيلاني ، ص : ١٨٥ وما بعدها ، نقلاً عن (سِرّ اجتماع الفالوجة) ، جريدة المنار العراقيَّة : ١٩٦٧/٣/١٣ م .

(١٦) عبد الإله بن علي بن الحسين : [١٣٣١ ـ ١٣٧٧ هـ = ١٩١٣ ـ ١٩٥٨ م] ، الوصي على عرش العراق في أيام فيصل الثَّاني من ١٩٣٩ م حتَّى ١٩٥٣ م حيث أصبح وليّاً للعهد ، قتل عند قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م .

(١٧) نوري السَّعيد : [١٣٠٦ ـ ١٣٧٧ هـ = ١٨٨٨ ـ ١٩٥٨ م] ، تولَّى رئاسة الوزارة العراقيَّة مرات كثيرة في أيَّام فيصل وابنه غازي وحفيده فيصل بن غازي ، قتل بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م بيوم أو يومين .

كما بالغت ألمانية في تقدير قدرة الجيش العراقي على القتال ، بشكل يفوق الواقع بكثير[١٨] .

لقد اتهمت اللجنة العراقية المكلفة بالتحقيق في حوادث ١ و ٢ حزيران (يونيه) ، التي سبقتها احتفالات اليهود بعيد النبي يوشع ، مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني ، بأنَّه من المحركين الأوائل للثَّورة في العراق ، لقد قام يدعو إلى نبذ الظلم ، ويدعو إلى فلسطين باسم العروبة والدِّين . وأنَّه « قد أثر في رجال الحكم ، وفي قواعد الجيش تأثيراً كبيراً ، إلى درجة أنه كانت تصدر الأوامر من داره ... »[١٩] .

وهكذا ... قاومَ الاستعمارُ البريطاني ، وعملاؤه (عبد الإله ونوري السعيد) في العراق :

١ ـ اللَّجنةَ العربيَّةَ الَّتي كانت برئاسة الشَّيخ الحاج أمين الحسيني .

٢ ـ وجمعيةَ النَّهضة الإسلامية ، الَّتي كانت أوَّل من وقف في وجه الاحتلال البريطاني في العراق .

ويكفينا أن فكر الحركة كان دينيّاً مبنيّاً على فكرة الجهاد المقدس ، فهذا هو أبرز العقداء الأربعة ، العقيد صلاح الدين الصَّباغ يقرر :

« أنا عربي مسلم ، لاأرضى دون ذلك بديلاً من مزاعم وفلسفات » .

☆ ☆ ☆

(١٨) (لوكاز هير زوير) : ألمانية المتلريَّة والمشرق العربي ، ص : ٢٢٦

(١٩) حركة رشيد عالي الكيلاني ، ص ٣٠٤ ، وانظر مصدر المعلومات في نصّ تقرير لجنة التَّحقيق في (الأسرار الخفيَّة) ، ص : ٢٥٩ ـ ٢٦٩ ، وانظر أيضاً :

Pearlnan, M: Mafti of Jerusalem, The Story of Haj Amin El-Husseiny, P.34-39

ومن العلماء المسلمين ، الَّذين وقفوا أنفسهم للجهاد ، في وجه الطغيان والاستعمار :

الشَيخ محمُود شُكري الآلوسيّ

وهو أبو المعالي ، محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود بن عبد الله بن محمود الخطيب الآلوسي نسبة إلى قرية (آلوس) ، قرب (عانات) على نهر الفرات[٢٠] .

ولد سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٧ م في رصافة بغداد ، في بيت من بيوت العلم والمجد ، فنشأ في رحاب العلم ، فأخذه عن أبيه وعمه وغيرهما . وتصدر للتَّدريس في داره ، وفي بعض المساجد ، وحمل على أهل البدع في الإسلام برسائل أصدرها . نادى بالإصلاح ، ودعا لتطهير الدِّين مما طرأ عليه وليس منه ، فعودي ، ووشي به إلى الوالي ، فأصدر أمراً بنفيه إلى بلاد الأناضول ، مع عدد ممن هم على رأيه ، فلما وصل (الموصل)[٢١] ذاهباً إلى الأناضول سنة ١٣٢٠ هـ ، قام أعيان (الموصل) ومنعوه من السفر ، وكتبوا إلى السلطان عبد الحميد يحتجون ، فجاء الأمر بإبقاء الأستاذ الشيخ في بلده ، فأعيد ومن معه إلى بغداد .

وفي زمن دخول الإنجليز العراق ، عرضت عليه وظائف كبيرة ، فرفض ، وقبل عضوية مجلس المعارف فقط ، للتَّوجيه القويم ، وللإصلاح ، بدلاً من أن يكون فيه إنسان فاسق مطيع للإنجليز ، فهذه إيجابية تحمد له ، فقد تمكن من توسيع نطاق التَّعليم في العراق .

---

(٢٠) آلوس : قرب الحدود السورية ـ العراقية .

(٢١) الموصل (أمُّ الرَّبيعَيْن) على نهر الدَّجلة شمالي العراق ، بقربها أنقاض نينوى ، العاصمة الآشوريَّة .

وكان عضواً فخرياً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وتولى إنشاء القسم العربي في جريدة (الزوراء) ، وهي أوّل جريدة أُنشئت في بغداد ، أنشأها مدحت باشا[٢٢] ، وفي أول القرن الرابع عشر للهجرة ، اقترحت لجنة اللّغات الشرقية في استوكهولم على العلماء ، تأليف كتاب : (تاريخ العرب والإسلام في الشّرق والغرب) ، واشترك الشيخ الأُستاذ الآلوسي في ذلك ، وألّف كتاب : (بلوغ الأرب في أحوال العرب) ، في ثلاثة أجزاء ، وعرض كتابه على اللجنة ، فنال الجائزة والوسام الذّهبي[٢٣] .

له مؤلفات كثيرة تزيد على الخمسين منها : تجريد السِّنان في الذبِّ عن أبي حنيفة النُّعمان ، وبلوغ الأرب .. المذكور . تاريخ بغداد في ثلاثة أجزاء ، الدُّرّ اليتيم في شمائل ذي الْخُلُق العظيم ﷺ ...

توفي الشيخ محمود شكري الآلوسي رحمه الله عام ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

ومن مواقفه الوطنيّة ، ناهيك عن نشره العلم والإصلاح ، وفكرة إيجاد طبقة مستنيرة في البلاد تشعر بمسؤولياتها ، أنّه لما نشبت الحرب العالمية الأولى ، وهاجم البريطانيون العراق ، سافر إلى نجد ، وسعى لمناصرة العراق وذلك عام ١٣٣٣ هـ ، ولما أخفق في مهمته عاد إلى العراق ، ولزم بيته عاكفاً على التّأليف ، وبث روح الجهاد في التّدريس في المساجد . وحاول البريطانيون إرضاءه ، عندما

---

(٢٢) مدحت باشا (أو أحمد مدحت) بن حاجي حافظ : [١٢٣٨ - ١٣٠١ هـ = ١٨٢٢ - ١٨٨٤ م] ، أبو الأحرار ، من أعظم رجال الإدارة العثمانيّة ، صدرٌ أعظم ، نشر الرُّوح الدُّستوريّة في البلاد العثمانيّة ، مات مخنوقاً في السِّجن ، اتُّهم بالمشاركة في قتل السُّلطان عبد العزيز ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م ، وحكم عليه بالإعدام ، فنفي إلى قلعة الطّائف بالحجاز ، وفيها بعد بضع سنوات قُتِلَ بأمر السُّلطان .

(٢٣) (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) ، مطبوع في ثلاثة أجزاء ، دار الكتب العلميّة - بيروت .

عرضوا عليه قضاء بغداد ، فزهد فيه انقباضاً عن مخالطتهم . ولم ينل عملاً بعد ذلك ، غير عضوية مجلس المعارف كما أسلفنا [٢٤] .

رحم الله الشيخ الأستاذ محمود شكري الآلوسي ، فقد كرّس حياته للإصلاح وتحرير بلاده من الاستعمار ، شارك بكل طاقاته ، بقلمه ونفسه .



(٢٤) الأعلام ٨/٤٩ ، وأعلام الإسلام ، ص : ٩٠

خاتمة

« تاريخ أحداث هذه الدُّنيا هو في حقيقته تاريخ ماصنع الرجال العظام هنا فوق سطح هذه الأرض » .

لا يفوتنا ـ ونحن نطوي صفحات هذا الكتاب الأخيرة ـ أن نذكر :

موريتانيا

حيث بدأ التَّدخل الفرنسي فيها منذ : ١٨٥٤ م ، وذلك بإرسالها حملات كانت تنطلق من مستعمرتها (السنغال)[١] .

وفي عام ١٩٠٢ م غزا الفرنسيون موريتانية[٢] ، وفي ١٩٠٣ م أعلنوا الحماية عليها .

وكعادة الإسلام ، قام للذود عن أرض الوطن ، قام ليأخذ دوره الطَّبيعي في مكافحة الاستعمار . فكانت المقاومة بزعامة الشَّيخ (ماء العينين) ، وهو : مصطفى بن محمد فاضل بن محمد مأمون الشنقيطي القلقمي ، أبو الأنوار ، الملقب بماء العينين ، من عرب شنقيط ، مولده ببلدة (الحوض) ، ووفاته في (تزنيت) من مدن السُّوس الأقصى عام ١٩١٠ م عالم بالحديث واللغة والسير . قال صاحب

---

(١) السّنغال Sénegal ، حالياً جمهوريّة في إفريقية الغربيّة ، عاصمتها داكار ، مساحتها ٢٠٠,٠٠٠ كم٢ .

(٢) كانت تعرف قبل عام ١٨٩٩ م ببلاط الشنقيط ، تشرف موريتانية Mouritanie على المحيط الأطلسي ، مساحتها ١,١٨٠,٠٠٠ كم٢ ، عاصمتها نواكشوط .

معجم الشيوخ وأخباره في العلم والطريق والسياسة واسعة ، تحتاج إلى مؤلف خاص له ، مؤلفاته عديدة كثيرة[٣] .

ومما يذكر أن ابنه (هبة الله) تزعم المقاومة من بعده .

☆ ☆ ☆

اليمن

لمع في سمائها الشيخ عبد الله الحكيمي ، (الزَّعيم الحر اليمني الشَّاذلي المصلح) ، الَّذي توفي في الخامس من ذي الحجة سنة ١٣٧٣ هـ الموافق ٤ آب « أغسطس » ١٩٥٤ م . حياته جهاد من أجل الله ، ومن أجل حريَّة الوطن .

حمل الشيخُ عبد الله الحكيمي الإسلام إلى جزر (كارديف)[٤] ، وأسس الجمعية العلويَّة الشَّاذليَّة ، وأصدر هناك مجلة (السَّلام) ، وأقام مسجد (نور الإسلام) ، الَّذي كان سبب هداية المئات إلى الإسلام الصَّحيح ..

---

(٣) الأعلام ١٤٥/٨ ، وانظر مجلَّة (الاعتصام) الصَّادرة في الرباط ، العدد : ٢ ، السَّنة الأولى ، جمادى الثَّانية ١٣٩٥ هـ ، يونية ١٩٧٥ م ، مقال : من أعلام الصَّحراء المغربيَّة (الشَّيخ ماء العينين) للأُستاذ الحاج أحمد معنينو ، من ص : ٤٨ إلى ص : ٥٢

ومما جاء في المقال عن الشَّيخ ماء العينين ، أنَّه كان « ملجأ للخائفين ، ومورداً للجائعين ، ومنهجاً للتَّائبين العابدين ، ورحمة للضُّعفاء والمساكين .. وحَّد بين أبناء الأُمَّة المسلمة ، وآخى بين أفرادها ، كما كان رحمه الله ذا أنفة إسلاميَّة تمنعه من الانضواء إلى الأجانب ، بل كان من أعدى أعاديهم بالصَّحراء » .

وأجمل كاتب المقال أعماله ، فذكر أهمها جهاده ، ورباطة جأشه في سبيل الله ضدَّ العدو المحتل ، واستمراره في جهاده حتَّى لقاء وجه ربّه .

(٤) كارديف : في المحيط الهندي .

وعند عودته إلى اليمن في أيَّامه الأخيرة ، تزعم حركة التَّحرير الوطني ، حتَّى لقي ربَّه ، وقد غرق في الدِّيون والفاقة ، حتَّى رهن بيته الَّذي كان يسكنه في سبيل دينه وبلده ، بقدر ما هو غريق في إعجاب النَّاس به ، وتقديرهم لتاريخه وجهاده المتواصل .

ولو أنهم مدوا أيديهم إليه ببعض العون ، لكان أثره أكبر ، وجهاده أخطر ، ولكنهم تركوه وربه ، واكتفوا بالتَّفرج عليه من بعيد ، وهذا لسوء الحظ ، شأن كثير من المسلمين مع كل مصلح أمين[٥] .

☆ ☆ ☆

ولا يفوتنا أيضاً ذكر المراكز العربيَّة الَّتي كانت خارج الوطن العربي ، لقد عمل الشَّيخ جمال الدين الأفغاني ، وتلميذه الشَّيخ محمد عبده في (باريس) لصالح القضية العربية . لقد حدَّدا سياستهما في العدد الأول من (العروة الوثقى)[٦] ، أنَّهما كانا يريدان أن يكون لهؤلاء الضعفاء وهم المسلمون ، دولة قوية آخذة بأسباب المدنية والعمران الموصلة إلى العزَّة والاستقلال ، مع مراعاة تعاليم الإسلام الأساسيَّة .

وعمل المجاهد (علي باش حمبه) مع جماعة مسلمة مؤمنة في الأستانة ، لصالح المقاومة في تونس .

وتمركز الأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ / ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م) في جنيف ، مكرساً وقته وقلمه للقضايا الإسلاميَّة والعربيَّة ، فما ترك ناحية منها إلاَّ تناولها تفصيلاً وإجمالاً ، وأصدر مجلة باللغة الفرنسية : (La Nation Arabe) في جنيف للدفاع عن القضايا الإسلاميَّة والعربيَّة[٧] .

(٥) (المسلم) عدد صفر ١٣٧٥ هـ ، ١٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٥ م ، ص : ٤١

(٦) الصَّادر بتاريخ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ (باريس) .

(٧) الأعلام ٢٥١/٣ و ٢٥٢

ولما جاء (الظَّهير البربري) في سنة ١٩٣٠ م ، ليؤكِّد الصِّفة الإسلاميَّة للحركة الوطنيَّة عند نشأتها في مَرَّاكُش ، واعتبر (الظَّهير) سياسة التَّبشير تهدف إلى تنصير البربر بالقُوَّة ، تعاون مع الأمير شكيب أرسلان ومع تلامذته ، لإثبات هذه الحقيقة في جميع أقطار العالم الإسلامي ، وحاول الأمير شكيب أرسلان دخول المغرب بنفسه لهذه المناسبة ، ولكن السلطات الفرنسية أبعدته(٨) .

ولم يكن الأمير بعيداً عن أحداث الجزائر أيضاً ، فلما شكل (مصالي أحمد بن الحاج) هيئة النَّجمة لشمال إفريقية بين عامي ١٩٢٥/١٩٢٦ م ، شاب أفكارها الغموض ، لقد وصفت بأنَّها تجمع بين الشِّعارات الماركسيَّة ، والوطنيَّة الجزائرية العاطفية ، والتَّمسك بفكرة التَّضامن الإسلامي .

وفي (جنيف) اتصل بالأمير شكيب الَّذي له أثر كبير على (مصالي الحاج) ، وأدى هذا الاتصال إلى تحول (مصالي) من صورته الشُّيوعيَّة الفرنسيَّة ، إلى مظهره العربي الإسلامي ، مما سبب اتصال (مصالي الحاج) بالحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر ذاتها(٩) .

☆ ☆ ☆

وما يذكر في المغرب أيضاً ، تشكل حزب الاستقلال ، الذي أعلن مبادئه ، الَّتي توضح بجلاء نزعة أصحابها الدِّينيَّة . فهي تعلن أن المغرب متمسك بالإسلام ، وأنَّ الإصلاحات في جميع الميادين ، بما في ذلك النظام النيابي والانتخابي ، لا بد وأن تستمد من الشَّريعة الإسلامية ، كذلك طالب الحزب بمكافحة التَّبشير في بلاد البربر ، فكان يتتبع الحفلات الدِّينيَّة التَّبشيريَّة ويقابلها بإحياء الذكريات

---

(٨) المغرب العربي ، ص : ٣٨٩

(٩) المرجع السَّابق ، ص : ٣٩٤

الإسلامية ، كما أسس لجاناً خاصة بالتَّقويم الخلقي ، وخصص لجنة أخرى للدفاع عن قضية فلسطين .

وكل هذه الأمور تبرز التَّربية الدِّينيَّة الَّتي انطبعت في زعيمه (علاَّل الفاسي)[١٠] .

لقد لعب الإسلام دوراً أساسيّاً ، إيجابيّاً وفعالاً ، في حياة هذه الأُمَّة ، فقد تفاعل مع أحداثها ، وقام متمثِّلاً برجالاته للذَّود عن حياض هذه الأرض ، وشرف هذه الأُمَّة .

فهو الَّذي خلص الأُمَّة العربيَّة من الرُّوم والفُرْس ، وحرر الأرض والإنسان .

ـ وهو الَّذي صدَّ أكبر غزو جندت له أوربة كل طاقاتها الرُّوحيَّة والبشريَّة ، والماديَّة ، والإعلاميَّة . لقد صدَّ الإسلامُ ، والإسلامُ وحده الصَّليبيين ، وحرر الأرض ، فعادت عربيَّة إسلاميَّة .

ـ وهو الذي دحر التتار ، وقهرهم لأوَّل مرة في تاريخهم المليء بالانتصارات ، قهرهم على يد المظفر (قُطُز)[١١] ، الذي كانت كلمة (وإسلاماه) ، صرخته في (عين جالوت)[١٢] وهي الوقود الروحي لجند الله ، وكان النَّصر ، وتخلصت الأرض العربيَّة من برابرة أواسط آسية .

---

(١٠) المرجع السَّابق ، ص : ٣٩٥ ، ومما يذكر في المغرب أيضاً العلماء السَّادة : محمد بن كنون ، إبراهيم التَّادلي ، إدريس بن عبد الهادي ، المهدي الوزاني ، شعيب الدكاني ، محمد بن العربي العلوي ، أبو القاسم الحفناوي ، مبارك الميلي .. الَّذين عملوا بدافع من دينهم في حركة التَّحرُّر والاستقلال .

(١١) قُطُز بن عبد الله المعزِّي : [ت ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م] ، ثالث سلاطين المماليك بمصر والشَّام .

(١٢) عين جالوت : قرب مدينة بيسان ، وتاريخ المعركة : ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م .

وهو الَّذي تصدى لمحاربة الاستعمار الحديث بكل أشكاله ، العسكري منها والفكري ، فالعالم كلُّه يعرف من طريق صحافته :

ـ أنَّ الجامعات الأمريكيَّة التَّبشيريَّة تتغذى بأموال الكنائس ، للنَّيل من الإسلام .

ـ وأمريكة تمد أثيوبية (الحبشة) بالسِّلاح لمحاربة الأريتريين ، لأنَّ الأريتريين مسلمون كلُّهم .

ـ والصُّحف والمجلات الأمريكية والبريطانية والأوربيَّة كلها توجه شعوبها بأن الحرب في فلسطين هي حرب بين إسلام ويهود ، ومن الخير للمسيحيين في فلسطين أن يكونوا في حماية اليهود من اضطهاد الإسلام والمسلمين(١٣) .

ـ كل ذلك لا نخشاه ، إن كان أبناء الإسلام متمسكين بعقيدتهم على هدى وبصيرة .

وكل ما نخشاه جهل الأبناء بأبيهم ! وتنكر الفرع للأصل !! فيتشرد الابن ، ويجف الفرع !!

الهجماتُ التَّبشيريَّة الصَّليبيَّة لا نخشاها ، إن كان أبناء الإسلام على وحدة العقيدة ، وعلى علم كامل صحيح بها ، وقد أخذوها من كلِّ أركانها .

فالخطر يكمن في جهل الأبناء ، وهذا ما نخشاه !!!

الخطر يكمن في أدعياء الإسلام ، وهذا ما نخشاه !!

الخطر يكمن في عدم مواكبة ركب الحضارة ، وموكب العلم ، وباسم

(١٣) وبما أنَّنا هنا خصَّصنا البحث (لحركات التَّحرُّر العربيَّة) ، لن نذكر ما يجري في البلاد الإسلاميَّة غير العربيَّة من فظائع ، ونكتفي بالقول مثالاً : إن أمريكة أعطت قوات جويَّة للجيش الفيليبِّيني الكاثوليكي ، المنصرف لحرب الأقليَّات المسلمة الَّتي تسكن جزيرة (مَنْدِناو) .

الإسـلام ! فسبب فشـل بعض الحركات التَّحـريريـة ، مردُّه إلى عـدم التَّصنيـع ، وعدم الأخذ بأسباب العلم في كل مجالاته أيَّام الـدَّولـة العثمـانيَّـة ، فكمـا كان تسلح الدَّولة العثمـانيَّـة في أوَّل عهـدهـا سببـاً في توسعهـا وقهرهـا للصَّفويِّين والمماليـك ، ووصولها إلى أسوار فيينة ، كان سبب سقوطها أيضاً عدم مواكبتها للعلم الحديث ، والتَّقدم (التكنولوجي) .

الخطر يكمن بالتصاق الرجعية بالإسلام عن قصد ودراسة وخبث « لهـذا كان الاستعمار ، وما زال ، يوصي الرجعية بالالتصاق الدائم بالشِّعار الإسلامي ، تـآمرا على هذا الشعار نفسه ، وعلى الحركة التقدمية صاحبة الحقيقة » .

وستبقى الأسماء الَّتي ذُكِرَت في هـذا الكتـاب ، مشـاعـل نـور ، مهما حـاول أدعياء (التَّحليل العلمي) أن يسدلوا الظلمـات فوقهـا ، حقـداً ومجـانبـة للواقع ، وغمطاً لحق الإسلام ودوره الإيجابي في الحياة .

وسيبقى دور الإسـلام في حركات التَّحرر واضحـاً جليّـاً لكل مـوضـوعي منصف ، ترك الهوى واتبـع الحقيقـة . وهـؤلاء الأعـلام الَّـذين ذكرنـا ، منـارات هدي لكل من يريد أن يعرف بعد أن يقرأ كتب التـاريخ المؤلفـة حـديثـاً : أين دور الإسلام ؟!

وعلى مرِّ الزَّمن ، سيجـد الإسلام من أبنـائـه من ينـافح عنـه ، وإنَّـه لجهـاد يطيب للعاملين ، لو يعلم مزورو التاريخ .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلى البـاطِلِ فَيَـدْمَغُـهُ فَـإذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّـا تَصِفُونَ ﴾ ، [الأنبياء ١٨/٢١] .

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً

☆ ☆ ☆

مَراجعُ البَحْث

١- ابن باديس « حياته وآثاره » : إعداد وتصنيف عمار الطالبي ط ١ ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

٢- الأمير عبد الكريم الخطابي : محمد عبد المنعم إبراهيم ، محمد عبد الوارث الصُّوفي المكتبة العلمية ١٩٥٨ م

٣- المغرب العربي : د . صلاح عقاد مكتبة الأنجلو ـ المصرية ١٩٦٢ م

٤- أُسس الاشتراكيّة العربيّة : د . عصمت سيف الدولة ، الدار القومية للطباعة والنشر

٥- الإسلام في القرن العشرين : عباس محمود العقاد ، كتاب الهلال ، العدد ١٨٠٨

٦- الإسلام والفلسفات المعاصرة : د . محمد البهي ، المكتب الفني للنشر ، القاهرة

٧- الإسلام والوجود الدَّولي للمسلمين : محمود شلتوت ، المكتب الفني للنشر ، القاهرة

٨- السلام العالمي والإسلام : سيد قطب ، مكتبة وهبة

٩- المختار من تاريخ الجبرتي : اختيار محمد قنديل البقلي ، كتاب الشعب ٢٧ عام ١٩٥٨ م

١٠ـ **الثّورة العربية الكبرى في فلسطين** : صبحي ياسين ، النادي الفلسطيني العربي بالقاهرة
١١ـ **السُّودان الشّقيق** : إبراهيم الأسيوطي محمد ، كتب سياسية ١٨٧
١٢ـ **إفريقية الغربيّة في ظلّ الإسلام** : نعيم قداح ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ سورية
١٣ـ **الجيش «مجلة الجيش الوطني الشعبي»** : العدد ١٠٢ ، سبتمبر (أيلول) ١٩٧٢ م ـ الجزائر
١٤ـ **الثّورة العُرابية** : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المكتبة الثقافية « ٣٠ »
١٥ـ **التّبشير والاستعمار** : د . خالدي ، د . فروخ ، ط ١٩٧٢ م ، المكتبة العصرية ـ صيدا
١٦ـ **أعلام الإسلام** : عبد الوهاب سكر ، نشر وتوزيع المكتبة العربية بحلب
١٧ـ **الأعلام** : خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة
١٨ـ **اليمين واليسار في الإسلام** : أحمد عباس صالح ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت
١٩ـ **الثّورة السُّورية الوطنية** : مذكرات عبد الرحمن الشهبندر ، مطبوعات دار الجزيرة العربية ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م
٢٠ـ **إيضاحات ديوان الحرب العرفي بعاليه** : نشر من قبل جمال باشا السفاح ، مطبعة الطنين ١٣٣٤ هـ

٢١- **الجزائر أرض المعارك** : د . يهي الدين الزيان ، دار الكتاب المصري ١٩٥٨ م
٢٢- **المهدي والمهديّة** : د . أحمد أمين ، سلسلة اقرأ ، ١٠٣
٢٣- **أعلام الإسلام « مهدي الله »** : توفيق أحمد البكري ، دائرة المعارف الإسلامية
٢٤- **أسرار الانتداب الفرنسي في سورية** : غالب العياشي ، بيروت مطابع أشقر
٢٥- **الإخوة الشُّهداء الثلاثة** : المطران بشارة الشمالي ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٢٦ م
٢٦- **الهلال** : عدد خاص « دولة الإسلام » أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ م
٢٧- **الهلال** : مصر المحاربة ، عدد خاص ، سبتمبر (أيلول) ١٩٧١ م
٢٨- **الهلال** : « الثَّورة العُرابية بعد ٩٠ سنة » عدد خاص سبتمبر (أيلول) ١٩٧١ م
٢٩- **الصُّومال** : حسن محمد جوهر ، سلسلة شعوب العالم ، ١٧ دار المعارف
٣٠- **المغرب** : حسن محمد جوهر ، صلاح العرب عبد الجواد ، شعوب العالم ، ١٤
٣١- **العربي** : العددان : ١٢٠ و ١١٨
٣٢- **الصُّحف** : فتى العرب ، الرأي العام ، سورية الجديدة ، الجزيرة
٣٣- **بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري** : يحي أبو عزيز ، المكتبة الشرقية ط ١ ، ١٩٥٧ م

٣٤ـ تاريخ السُّودان الحديث : ضرار صالح ضرار ، الدار السودانية ط ١٩٧٤ م
٣٥ـ تاريخ أُوربة الحديث : هـ . ا . ل . فِشَر ، ط ٤ ، دار المعارف ١٩٦٤ م
٣٦ـ تاريخ العصر الدَّموي : ناصيف أبي زيد ، مطبعة المفيد ، دمشق ١٩١٩ م
٣٧ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر : د . الخاني ، خيمي ، عفلق ، مطابع فتى العرب ١٩٦٥/٦٤ م
٣٨ـ ثورة ١٩١٩ : محمد كامل سليم ، كتاب اليوم ، القاهرة
٣٩ـ ثمن الكرامة : سلامة خاطر ، سلسلة اقرأ ، ٢١٩
٤٠ـ حركة رشيد عالي الكيلاني : إسماعيل أحمد ياغي ، دار الطليعة ، بيروت
٤١ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ١٣٨٣ هـ
٤٢ـ حقائق عن قضية فلسطين : سماحة محمد أمين الحسيني ط ١٩٥٦/٢ م الهيئة العربية العليا
٤٣ـ خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني : محمد المخزومي ، دار الفكر الحديث ، لبنان ، ط ١٩٦٥/٢ م
٤٤ـ روما والشرق الروماني : د . سليم عادل عبد الحق ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م
٤٥ـ زعيم مصر الأوَّل السيد عمر مكرم : محمد فريد أبو حديد ، كتاب الهلال ، ١٩٥١ م

٤٦- شروط النّهضة : مالك بن نبي ، دار الفكر
٤٧- عمر المختار « مقاتلاً وشهيداً » : كتاب السفير ، دار العروة الوثقى للنشر ، بيروت
٤٨- عبد الرحمن الكواكبي : د . سامي الدهان ، نوابغ الفكر العربي ٢٣ ، دار المعارف بمصر
٤٩- عبد الرحمن الكواكبي : د . محمد عبد الرحمن برج ، أعلام العرب ٩٩
٥٠- عبد الكريم الخطابي : د . جلال يحيي ، أعلام العرب ٧٨
٥١- عبد الكريم « أمير الريف » : روبرت فورنو ، تعريب د . فؤاد أيوب ، دار دمشق
٥٢- علماء في وجه الطغيان : محمد رجب البيومي ، مذاهب وشخصيات ، الدار القومية
٥٣- فاجعة ميسلون : محيي الدين السفرجلاني ، ط ١ ، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٦٦ م
٥٤- فلسطين بين تقسيم الأمس واليوم : محمود الخالدي ، منظمة التّحرير الفلسطينية ، دمشق ١٩٦٦ م
٥٥- قصة الكفاح بين العرب والاستعمار : عريان د . شيال ، ط ٢ ١٩٦٠ م ، دار المعارف بمصر
٥٦- قضية الجلاء عن مصر : د . عبد العزيز رفاعي ، المكتبة الثقافية ٣٩
٥٧- كفاح الشعب العربي السّوري : إحسان هندي ، منشورات إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي
٥٨- ليبيا : حسن محمد جوهر - محمد مرسي أبو الليل ، شعوب العالم ، ١٥

٥٩- **مصطفى كامل** : عبد الرحمن الرافعي ، ط ٣ ١٩٥٠ مكتبة النهضة المصرية

٦٠- **محمد توفيق البكري** : د . ماهر حسن فهمي ، أعلام العرب ، ٦٤

٦١- **مع القوميَّة العربيَّة وجهاً لوجه** : جاك بولين ، كتب سياسية ، ٢٠٤

٦٢- **مع الأبطال** : محمد رجب بيومي ، مذاهب وشخصيات ١٢٣ ، الدار القومية

٦٣- **معركة ميسلون** : إحسان الهندي ، وزارة الثقافة ١٩٦٧ م ، دمشق

٦٤- **وثائق جديدة عن الثورة العُرابيَّة** : حَصَلَتْ عليها من باريس فريدة مرعي ، علق عليها د . أحمد مصطفى ، نشرتها الهلال

٦٥- **وحدة العرب** : إبراهيم البساطي ، سلسلة اقرأ ، ٢١٦

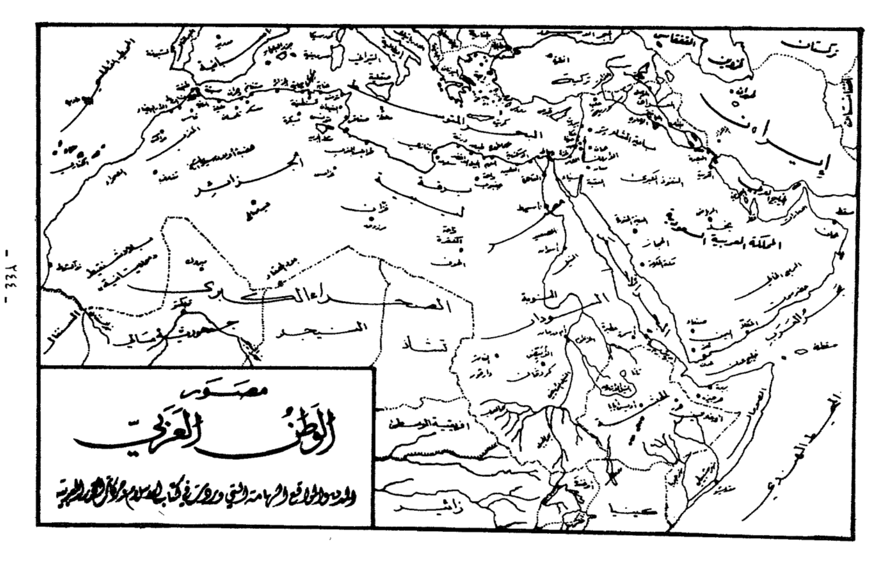
٦٦- **يقظة العرب** : جورج أنطونيوس ، تعريب علي حيدر الركابي ، دمشق ١٩٤٦ م

٦٧- **يوم ميسلون** : ساطع الحصري ، صفحة من تاريخ العرب الحديث

٦٨- **مؤسسو مصر الحديثة** : ماري رولات ، المكتب التجاري ، بيروت

☆ مع مصادر أخرى ، أشرنا إليها في حينها خلال البحث .

☆ ☆ ☆


مصور
الوطن العربي
إيران
الجزائر
ليبيا
برقة
البحر المتوسط
الصحراء الكبرى
السودان
تشاد
النيجر
كينيا
زائير
المملكة العربية السعودية
الصومال
المحيط الهندي

المحتَوى

لعبَ الإسلامُ دوراً رئيساً ، إيجابياً وفعّالاً ، في حياة هذه الأمة العربيّة ، تفاعَلَ مع أحداثها ، وقَامَ متمثّلاً برجالاتِه وأبنائِه للذّودِ عن حياضِ هٰذه الأرض ، وشرف هذه الأُمّة .

فهو الّذي دحَرَ التّتار ، وقهرهم لأوّل مرّة ، وهو الّذي تصدّىٰ لمحاربة الاستعمار الأُوربي الحديث بكل أشكاله ، العسكري منها والفكري .

وإذا عرّف الباحثون التّقدُّميّة والتّقدُّميّين : « بأنهم كلُّ ضحايا الاستعمار الّذين يرفضونَ استمرارَهُ ، ويناضِلُونَ في سبيلِ التّحرُّرِ ، وكلُّ ضحايا التّجزئة ، وكلُّ ضحايا الاستبداد والتّخلُّف » ، فأيُّ منهجٍ ، وأيُّ أرضٍ ، وأيُّ أتباع يتعرّضونَ لهجماتِ الاستعمار كفكر ، وكمنهج ، وكأرض ، كأتباع الإسلام ، منذ الحروب الصّليبيّة ، إلى الاستعمار الأُوربي ، مروراً بالغزو التّتري ــ المغولي ؟!

إنّ في هذا الكتاب ، إجابة عن سؤالٍ واحد : هل قامَ الإسلامُ ــ عندما دنّسَ الاستعمارُ أرضنا العربيّة ــ بما طُلِبَ منه ، دينَ حياةٍ ، قبلَ أن يكونَ دينَ آخرة ؟!